

348
519

لجنة التأليف والترجمة والنشر

حياة النابغة

تأليف

حسن جلال

مؤلف كتاب الثورة الفرنسية

الجزء الثاني

سلسلة المعارف العامة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

حياة نابليون

تأليف

حسن جلال

ومكتبة كتاب البصرة العربية

الجزء الثاني

سلسلة المعارف العامة

فهرست الجزء الثانى

ص

الكتاب الرابع — الامبراطورية ٣٤٩

(١) الباب الاول — التحالف الدولى الثالث . . . ٣٥١

الفصل الاول — اسباب التحالف . . . ٣٥١

» الثانى — موقعتان فريدتان فى التاريخ ٣٥٥

» الثالث — توزيع التيجان . . . ٣٦٩

(٢) الباب الثانى — التحالف الدولى الرابع . . . ٣٧٣

الفصل الاول — اسباب التحالف . . . ٣٧٣

» الثانى — موقعتان أخريان . . . ٣٨١

» الثالث — قرارات برلين . . . ٣٨٧

» الرابع — القيصر ٣٩٠

» الخامس — مارى فاليسكا . . . ٣٩٣

» السادس — انقلات القيصر . . . ٤٠٢

» السابع — معاهدة تلست . . . ٤٠٧

(٣) الباب الثالث — النظام القارى ونتائجه . . . ٤١٣

القصل الاول — أثر النظام فى سياسة نابليون ٤١٣

» الثانى — أثره فى ولايات البابا . . . ٤١٥

» الثالث — أثره فى البرتغال (ب) ٤١٦

» الرابع — حكومته اسبانيا (ز) ٤١٦

ص

- الفصل الخامس - رواية تاريخه . (ك) ٤١٦
- » السادس - الحملة الاسبانية . . ٤١٧
- ٤ (الباب الرابع - التحالف الدولي الخامس . . ٤٢٦
- الفصل الاول - حرب النمسا . . . ٤٢٦
- » الثاني - طلاق جوزفين . . . ٤٢٨
- ٥ (الباب الخامس - عوامل سقوط نابليون . . ٤٥٤
- الفصل الاول - النظام القارى . . . ٤٥٤
- » الثاني - نهضة بروسيا . . . ٤٥٩
- » الثالث - القرحة الاسبانية . . ٤٦٤
- » الرابع - نكول القبصر واسبابه ٤٦٨
- ٦ (الباب السادس - التحالف الدولي السادس . ٤٧٤
- الفصل الاول - الحرب الروسية . . . ٤٧٤
- » الثاني - بروسياتنقض على نابليون ٥٠٢
- » الثالث - لوتزن وباوتزن . . . ٥٠٨
- » الرابع - الهدنة المشثومة . . . ٥١٤
- » الخامس - حرب الأمم . . . ٥١٧
- » السادس - انهيار البناء . . . ٥٢٣
- » السابع - الحلفاء فى باريس . ٥٣٥
- » الثامن - النزول عن العرش . . ٥٤٢
- » التاسع - وداع فوتنبلو . . . ٥٥٠

ص

الكتاب الخامس - المنفى ٥٥٧

الباب الأول - إلبا ٥٥٩

الفصل الأول - ملك البا ٥٥٩

» الثاني - البربون في فرنسا ٥٦٦

» الثالث - عودة نابليون الى فرنسا ٥٧٣

(٢) الباب الثاني - حكومة الأيام المائة (١٩ مارس ٥٨٣

سنة ١٨١٥ - ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥)

الفصل الأول - تغير نابليون ٥٨٤

» الثاني - ووترلو ٥٨٩

» الثالث - نابليون بعد الهزيمة . ٦٠٢

(٣) الباب الثالث - سنت هيلانة ٦٠٨

الفصل الأول - لنجود ٦٠٩

» الثاني - هديسون لو ٦١٢

» الثالث - وفاة نابليون ٦١٩

» الرابع - نابليون يرقد على . . .

ضفاف السين ٦٢٨

الصواب	الخطا	السطر	الصحيفة
الفريقان	الفريقين	٢	٣٥٣
امبراطوريته	امبراطورية	٣	٣٦٩
كان	كال	١٣	٣٧٧
كيا	كما	١٧	٣٨٢
خبريني	ابريني	١٢	٣٨٥
غرفته	غرفة	٦	٣٩٨
تستطيع فيها أن	تستطيع أن	١٤	٤٠١
وزملاؤهم	وزملائهم	١٢	٤٠٣
١٨٠٩	١٩٠٨	١٦	٤٢٧
١٨٠٩	١٩٠٨	١٦	٤٢٨
الساعة	ساعة	٢٠	٤٢٨
جمع	جميع	٢	٤٣٠
تقتلني	تقتلني	١٧	٤٤٤
خطاباته	الخطابات	٧	٤٦١
١٨٠٩	١٩٠٨	١٧	٤٦٥
ومضيعة	وضيعة	١٦	٤٦٧
عليه برياسة سناين أثناء	عليه أثناء	١٠	٤٦٨
البرتقال وأن	البرتقال	١١	٤٧٢

الصواب	الخطا	السطر	الصحيفة
التحالف	التآلف	١	٤٧٣
وبحسبك	بحسبك	١٦	٤٧٨
والغازى الفاتح	والغازى والماث	٣	٤٨٢
مثيلا	مثلا	١٥	٤٩٢
وجدة	وجد	٢	٤٩٣
ابلدون رمة حاء	نابليون	١	٤٩٨
صنيع	صنع	١٨	٥٠٤
قرارهم	فرارهم	٥	٥٢٨
١٨١٣	١٩١٣	٣	٥٢٩
أكتوبر	أغسطس	١	٥٣٦
ناتئة	ناتنة	١٨	٦٠٩
يستيقظ	يستقيظ	٣	٦١٢

ملحوظة : سقطت عند طبع الكتاب الملزمة الواقعة بين
الصحيفتين ٤١٦ و ٤١٧ فأعيدت تحت نمرة ٤١٦ — ولزم التنوية



الأمبراطور نابليون الأول

الكتاب الرابع

الامبراطور

- الباب الأول — التحالف الدولي الثالث
- الباب الثاني — » » الرابع
- الباب الثالث — النظام القارى ونتائجه
- الباب الرابع — التحالف الدولي الخامس
- الباب الخامس — عوامل سقوط نابليون
- الباب السادس — التحالف الدولي السادس

الباب الأول : التحالف الدولي الثالث

الفصل الأول — أسباب التحالف

» الثاني — موقعتان فريدتان في التاريخ

» الثالث — توزيع التيجان

الباب الأول

التحالف الدولي الثالث

الفصل الأول

اسباب التحالف

كانت الجرثومة الحقيقية لهذا التحالف الجديد تلك الحرب التي أعلنتها إنجلترا على نابليون (في ١٨ مايو سنة ١٨٠٣) وهي مندفعة اليها بعامل الكراهة لشخصه والخوف من اتساع نفوذه .

وقد تركنا نابليون في بعض الفصول السابقة عند بولوني يدرب جنده كل يوم على ركوب البحر والتزول منه الى الأرض توطئة للغزوة التي أزمع القيام بها على شواطئ إنجلترا نفسها وأشرنا إلى ما استشعرته إنجلترا من الخطر المحقق أمام هذه الاستعدادات التي يقوم بها نابليون على بعد ٣٠ ميلا من بلادهم .

والآن أصبح نابليون امبراطورا على فرنسا فزاد مركزه ثباتا وقوة وزادت في الوقت نفسه أحقاد الانجليز عليه كما زاد توجسهم من شره . فلقد كانوا يرجون الخلاص منه على كل حال وهو زعيم عارض تولى حكم فرنسا لمدة عشر سنين أو لمدة حياته . أما وقد أصبح امبراطورا يحكمها هو ثم يحكمها من بعده أبنائه وأحفاده على نفس طريقته فهذه هي النكبة المؤبدة التي لا تطيق انجلترا أن تفكر في احتمالها والتي لا بد لها من محاربتها مهما ضحت في سبيل ذلك من أنفس وأموال .

وتصادف أن عاد ولیم پت إلى رئاسة الوزارة الانجليزية في مايو سنة ١٨٠٤ وكان تعيينه في ذاته نذيرا كافيا لنابليون بما سيلاقه في عهده من المتاعب والمشاغبات . وذلك لما اشتهر عن پت من مقتته الشخصى لنابليون وحقده الشديد عليه . وكان دوق دنجین قد قتل قبل ذلك بشهر وأحدث قتله ضجة عظيمة في الدوائر الملكية الأوربية حتى أن قيصر روسيا أمر أن يلبس بلاطه عليه الحداد ثم لم يلبث أن قطع علاقاته السياسية بسببه مع فرنسا .

ولم يكن پت بمن تفوتهم أمثال هذه الفرص فإنه سارع

الى القيصر بمجرد أن اشتهم منه ريح السخط على نابليون واتفق الفريقين في ١١ أبريل سنة ١٨٠٥ على تكوين حلف أوربي جديد على طاغية فرنسا .

وعرض على النمسا أن تشترك في هذا التحالف الجديد ولكنها كانت تخشى مطامع روسيا بقدر ما كانت تخشى أطماع نابليون فبقيت مترددة زمنا طويلا واخيرا غلب عليها سخطها على نابليون بسبب تدخله في إيطاليا وقضائه على نفوذها فيها بتعيين نفسه ملكا عليها فانضمت إلى الحلفاء .

أما بروسيا فأنها على قدر تضررها من احتلال الجيوش الفرنسية لمقاطعة هانوفر في بدء حربهم مع الانجليز كانت لا تميل إلى الاشتراك في حرب أوربية عامة تخسر فيها جيشها الفخم ولذلك اعتصمت بخطة الحياد وبقيت عليها دهرا طويلا على الرغم من الحاح بريطانيا وروسيا عليها في وجوب الاشتراك .

وكانت غاية المتحالفين إعادة التوازن الدولي الذي أفسده نابليون بتوليّه ملك إيطاليا . وتدخله في سويسرا . وهولندا . وهانوفر . وارتباطه بمعاهدات صداقة مع كثير من الولايات

الألمانية . واهتمامه المتجدد بشئون مصر والشرق عامة وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

ولذلك اتفقت كلمتهم على مداومة القتال حتى يتم لهم الغاء الحكم الفرنسى من إيطاليا — وهولندا — وسويسرا — وهانوفر — واعادة ييمون Piedmont إلى ملك سردانيا — وحماية نابولى — واقامة حاجز بين فرنسا وأوربا بضم هولندا إلى بلجيكا تحت حكم أسرة أورانج .

أما خطة القتال فكانت أن يسير جيشان نمسويان أحدهما يتجه جنوبا نحو إيطاليا والآخر يتجه غربا نحو فرنسا . وكان من المتفق عليه أن يتقدم الجيش الأخير فى سيره حتى يلحق به جيش آخر تبعث به روسيا لينضم إليه وتتوحد جهودهما فى مفاجأة نابليون وهو ما يزال على انهماكه فى شواطئ فرنسا الشمالية يشرف على معدات تلك الحملة الخطيرة التى كان ينوى الأغارة بها على الجزائر البريطانية .

الفصل الثاني

معركتان فريديتان في التاريخ

أولم Ulm وأوسترلitz Austerlitz

كانت عادة نابليون التي جرى عليها في كل خطته — « ان يعد لموضوعه مشروعين » « faire son thème en deux » — كما كان يقول — حتى إذا اتضح له فساد أحد المشروعين تحول عنه بسرعة البرق إلى المشروع الآخر .

وعلى الرغم من تكتم الدوائر الأوربية لهذا التحالف الجديد بغية مفاجأة نابليون به وتماديهم في ذلك إلى حد اشتراك النمسا في الحرب من غير أن تسحب سفيرها من باريس . فإن نابليون لم تفت عينه الراصدة اليقظانة جزئية من جزئيات هذه العاصفة العنيفة التي عباها له ولیم پت في شرق أوربا لينسف بها ملكه . ولكنه رأى قبل أن يتوجه إلى أعضاء هذا التحالف (في أوربا) أن يضرب رأسه (إنجلترا) تلك الضربة التي طال تأهبه لها .

وكان نابليون يعلم أن الاسطول البريطانى كله قد احتشد فى المضيق ما بين فرنسا وانجلترا لما كان يعلم أنه لا يستطيع ركوب البحر ما دام نلسون مرابطا له على هذه الصورة فرأى أن لا بد له من الاحتيال لأقصائه عن بحر المنش حتى يتمكن فى غيبته من حمل جنوده إلى لندن وللوصول إلى هذه الغاية رسم الخطة التالية :

يسير فيلنيف « Villeneuve » أميرال الأسطول الفرنسى بسفنه إلى جهة الغرب موهما أنه ذاهب لمهاجمة مستعمرات انجلترا فى أمريكا . فإذا ما خرج وراءه نلسون فليضله فى عرض البحر ثم يقفل راجعا إلى فرنسا ليسد المضيق فى وجه السفن الانجليزية ريثما يعبره نابليون وجنوده .

ولم يكن نابليون فى الواقع يحتاج إلى أكثر من ثمانى ساعات للوصول إلى الأراضى الانجليزية وكان يملؤه اليقين بأنه متى وضع قدمه فى تلك البلاد فإنه سوف يهيب بالشعب الانجليزى لجمه على الثورة على حكومته الغاشمة التى أرهقته بالضرائب والحرب المتواصلة فى سبيل الدفاع عن مصالح لا خوف عليها ولدفع مخاوف وهمية لا مبرر لها . وكان يقدر فى نفسه أن الشعب الانجليزى سوف ياتف حوله لذلك .

وبهذه الكيفية يتسنى له أن يقيم في إنجلترا نفسها نظاما حكوميا على طراز حكومة فرنسا .

وقد نجح النصف الأول من هذه الخطة أتم نجاح . فقد خرج فلنيف بأسطوله وخرج نلسون وراهه بمراكبه . وجدّت السفن الفرنسية في سيرها حتى غابت عن أنظار الانجليز ثم ما لبثت أن حولت شراعها نحو فرنسا تاركة نلسون وراهها ينهب البحر نهبا ليدركها في أمريكا !

ولكن نلسون لم ين أن تنبه إلى ما حدث فبعث بأسرع زورق في أسطوله لينذر الحكومة البريطانية بعودة الأسطول الفرنسي حتى تأخذ له أهبتها .

ووصل فيلنيف فعلا فوجد المراكب المتخلفة من الأسطول البريطاني قد وقفت في وجهه خارج المضيق تمنعه من الوصول إلى الموانئ الفرنسية نفسها . واشتبك الفريقان ولم ير فيلنيف بدا من أن ينسحب إلى قادس (في اسبانيا) ليحتمي في مينائها خشية تكاثر المراكب الانجليزية عليه .

معركة أولم Ulm

عند ذلك تحقق نابليون استحالة المضى فى هذا الطريق .
وحول وجهه فوراً نحو الشرق وبادر بنقل « الجيش الأعظم »
وهو الاسم الذى أطلق على جيش بولونى — من بحر المانش
إلى نهر الرين . وتم هذا الانتقال فى مدى عشرين يوماً لم تكن
تحلم النمسا فى خلالها بأن نابليون قد استطاع أن يجمع أمره
ويستعد للرحيل .

وأدرك نابليون جيش النمسا الشمالى عند مدينة أولم
(على نهر الطونة) وهو يزحف متلصصاً تحت قيادة الجنرال
ماك النمساوى ريثما يصل إليه جيش الروسيا الموعود ليقوم
بغزو فرنسا فى غفلة من نابليون على ما كانوا يزعمون . فدار
نابليون بجيشه الأعظم وانقض على مؤخرة ماك وقام بحركة
تطويق باهرة قضى بها على جيش النمسا وهو ثمانون ألفاً
فوقع منهم فى يده ثلاثون ألف أسير وارتد ماك بنحو ٣٦
ألفاً أخرى إلى مدينة أولم وتحصنوا فيها وهناك حاصروهم
نابليون ولم ير ماك بدا بعد النكبة الأولى من تسليم قوته
الباقية إذ لم يرى أى أمل فى الأفلات من ذلك النطاق الذى
ضربه حوله نابليون .

وفي صبيحة اليوم التالي (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٤)
جلس نابليون وسط أركان حربه على ربوة تجاه المدينة وهو
يشهد خروج ستة وثلاثين ألف جندي يلقون سلاحهم بين
يديه . وقد استمرت هذه العملية خمس ساعات متواصلة
كانت كل مالتى الأمبراطور من راحة منذ غادر ثغر بولونى
ويقول المؤرخون أنه لم يسبق فى تاريخ العالم أن ضربة عاجلة
قاضية مثل هذه الضربة قد تمت على يد أحد غير نابليون .
ولقد ثبت هذا النصر الباهر أقدام الأمبراطورية كما
ثبتت موقعة ما رنجو أقدام القنصلية من قبل (١)
وتوالت هزائم النمسا بعد أولم واستمر زحف نابليون
نحو فينا حتى دخلها فى ١٩ نوفمبر بعد أن فر منها امبراطور
النمسا فرنسيس الثانى لينضم الى جيش الروسيا الذى كان
يقوده القيصر بنفسه .

(١) ولكن حدث فى نفس اليوم التالى لنكبة أولم أن استتبك نلسون
بأسطول فيلنيف عند « الطرف الأغر » (فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥)
ودمره تدميرا . وبذلك أنقذ انجلترا نهائيا من كل خطر كان يستطيع نابليون
أن يهددها به ولم يخفف من دفع هذه الكارثة على الفرنسيين إلا أن نلسون
نفسه قد مات فى المعركة . ولم يبق أمام نابليون بعد هذه النكبة البحرية الا
مقاومة انجلترا من طريق تجارتها ومنع بضائعها وسفنها من الوصول الى
أية دولة من دول أوروبا .

معركة أوسترليتز Austerlitz

وعلى الرغم من انتصار نابليون ودخوله عاصمة بلاد أعدائه . فقد كان موقفه غاية في الخطورة لأن توغله في قلب أوروبا جعله بعيداً عن باريس بمئات المراحل (نحو ١٥٠٠ ميل) وأصبح من المتعذر عليه الحصول على أى امداد منها لبعده المسافة واحاطة الحلفاء به من كل جانب . فأن الارشيدوق شارل لم يكذ يسمع بضياح فينا حتى عاد من إيطاليا ومعه نحو ٧٠,٠٠٠ مقاتل كما أن الامبراطور فرنسيس نفسه استطاع أن يجمع حوله من جديد نحو ٨٠,٠٠٠ جندي . أما جيش روسيا المنتظر فقد كان يزحف حثيثا بقضه وقضيضه ليزيد الى قوة النمسا أكثر من مائه الف روسي كامل العدد وكانت بروسيا ما تزال على حيادها ولكن القيصر ما كادت تصل اليه أنباء أولم حتى أسرع الى برلين لعله يؤثر بشخصه في تحويل ملك بروسيا عن هذا الحياد العقيم الذي كان يلزمه فيضيف بذلك مائتي الف جندي بروسيا الى قوة الحلفاء . وكانت الملكة لويزا ملكة بروسيا أشد من زوجها حماسة لهذه الغاية وكانت تعلم من

زوجها تراخيه وضعفه وتقلبه . فاقترحت أن يقسم الملكان
قسما عظيما على قبر « فردريك الأكبر » لا يدع مجالا بعده
للتردد والتقلب . وفي منتصف الليل نزل الثلاثة — القيصر وملك
بروسيا وملكتهما — الى مقبرة ذلك الملك العظيم وأقسم الملكان
على أن ينصرا قضية الحلفاء ضد تلك المبادئ الشعبية الخطيرة
التي كان ينشرها نابليون ويهدد بها عروش أوروبا قاطبة .
وهكذا اجتمع حول نابليون في وسط أوروبا نحو خمسمائة
الف جندي . وهو لا يملك للقائهم أكثر من سبعين الف .
وظنت كل أوروبا أن النسر الفرنسي طار بجناحيه ليرمي بعنقه
في هذا الفخ العظيم . وحسب الناس أن نابليون سوف لا
يخرج من فينا ولكنه يبقى فيها ويتحصن داخل أسوارها
لصد هجمات تلك الجيوش ريثما يأتيه إمداد من فرنسا أو يمن
الله عليه بالخلاص بأي شكل من الأشكال .

ولكن نابليون كان أحرص من أن يستسلم في مكانه إلى
هذا الخطر المحدق وبقيت دعوته لجنوده كما كانت دائما « إلى
الأمام ! إلى الأمام ! » وحاول هو من جانبه أن يفرق بين
القيصر وامبراطور النمسا فعرض شروطا للصالح على كل واحد
منهما ولكنهما لم يؤخذا بخدعته واستمررا في جهادهما المشترك

لاسترداد فينا من قبضته إلى أن كان يوم أول ديسمبر سنة ١٨٠٥ حيث تبين نابليون جيوش الحلفاء في معسكرها على مرتفعات پراتزن Prätzen وفطن من حركاتهم إلى خطة القتال التي يريدون اتباعها معه وتنبه إلى عيب فيها جعله لا يتمالك أن يصيح صيحة الفرح والاعتباط :

« غداً قبيل الغروب سيكون كل هذا الجيش في قبضة يدي ! »
وظل يومه على ظهر جواده ينظم صفوفه ويتهيأ للقاء اليوم التالي بل لقد ظل إلى منتصف الليل وهو يطوف بكتائبه ويعد معدات معركة الصباح بدقة تفوق الوصف حتى أنه قبل اشتباكه مع الأعداء سأل سولت : « كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات پراتزن ؟ »

فأجاب سولت : يلزمني أقل من عشرين دقيقة !
فرد عليه نابليون قائلاً : إذن يمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر !

وتنبه في تلك الليلة أحد الجنود إلى أن ليلتهم هذه كانت توافق ليلة عيد جلوس نابليون على عرش الإمبراطورية فما كان منه إلا أن أشعل حزمة من القش المعد لنومه ورفعها

على سنان رمح هاتفا « ليحي الامبراطور » فسرت عدوى فعلته سريان البرق في زملائه وسرعان ما سطع الجو بضوء آلاف من هذه الشعل وكان الهتاف الحار بحياة نابليون يشق أجواز الفضاء .

وأغنى الجنود اغفاءة قصيرة قبيل الفجر . وعاد نابليون على ظهر جواده في الساعة الرابعة صباحا وكان الضباب الكثيف يحجب عنه منظر أجناده وأجناد خصومه على السواء ولكن أذنه الفطنة تلمست من وراء أستار الضباب حركة العدو فإذا جلبة حافلة أشعرتة بأن الروسيين يزحفون نحوه زحفا حثيثا بغية مفاجأته قبل أن ينتبه اليهم . فأمر بأن يضرب البورى « نوبة اليقظة » كما يسميها العسكريون . ونفخ في الصور فإذا بجنوده إليه ينسلون . ولم تكن قد انقشعت بعد غياهب الظلام في تلك الليلة الليلاء . وأسرع كل إلى مكانه المعد له . ولم تكد تشرق أضواء الفجر الأولى حتى كان كل جندى في مكانه ينتظر أمر ضابطه ووقف الضباط بدورهم إلى جانب نابليون ينتظرون إشارته لبدء الهجوم . فلم تمض إلا لحظات قصيرة حتى دوى في الفضاء صوت المدفعية الروسية وعند ذلك صاح نابليون :

« الآن حق الهجوم ! فهللوا أيها الأبطال ! »
فبادر كل إلى قرقته . والتحم الجيشان في « معركة الأباطرة
الثلاث » كما يسميها المؤرخون لاجتماع نابليون فيها بقيصر
الروس وامبراطور النمسا الذي كان يصحبه . واستدرج
نابليون جناح الجيش الروسي الأيسر من فوق الهضبة فأنزله
إلى الوادي وكان سولت في هذه الأثناء يحل محله فيها . وألقى
نابليون على قلب الروس جحيا مستعرا بناره وشرائطه فقننت
صفوفهم تحت هجماته كما يفنى الضباب تحت أشعة الشمس .
ولم تستطع الفرار منهم إلا بضعة ألوف من الفرسان أطلقوا
لخيلهم العنان هارين يلتمسون العودة من حيث أتوا . على
أن النكبة التي حلت بهم كانت أشنع من نكبة زملائهم . فقد
مروا في طريقهم فوق بحيرة من الثلج المتجمد وانتبه اليهم
نابليون فوجه قذائفه إلى سطح البحيرة فانشقت قشرتها
الجامدة عن قبر واسع من الماء المثلوج احتوى في بطنه تلك
البقية الباقية من جيش الأعداء . وانهى بهذه النهاية الأليمة آخر
دور من أدوار تلك المعركة الخالدة — معركة أوسترلتز —
التي ظل يتغنى بها شعراء فرنسا ويمجدون بها ذكرى بطلم
عشرات السنين .

وقد كانت خسائر الحلفاء في تلك المعركة خمسة عشر ألف مقاتل بين قتيل وجريح وعشرين ألف أسير وثمانين ومائة مدفع وخمس وأربعين راية وكمية لا حصر لها من المؤن والذخائر . على أن أعجب ما في هذه المعركة أن نصف قوة نابليون لم تتح لها فرصة الاشتراك في القتال فكأنما تم له كل هذا النصر الشامل على نحو مائة ألف جندي بجيش لا يتجاوز الأربعين ألف .

وهكذا انسحب القيصر بفلوله إلى بلاده قانعاً من العنيفة بالأياب ولم تر النمسا بعد نكبتى أولم وأوسترلتز واحتلال الفرنسيين لفينا إلا أن تقبل شروط الصلح التي يعرضها عليها نابليون .

أما ولیم پت فانه كان مريضاً في فراشه لما جاءت أنباء أوسترلتز فلم يقو على احتمال وقعها وفاضت روحه وهو في شرح شبابه بعد ذلك بقليل (٢٦ يناير سنة ١٨٠٦) .

وبذلك انحلت عناصر هذا التحالف الثالث ولم تنهياً به لنابليون إلا فرصة جديدة ينكل فيها بخصومه ويعيد إلى أذهانهم ذكرى دروسه القديمة القاسية التي ألقاها عليهم في سهول إيطاليا الشمالية .

وفي ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقعت معاهدة پرسبورج
بين فرنسا والنمسا وكانت أهم شروطها :

١ — في إيطاليا — ١) اعترف فرنسيس الثاني بالمملكة
الإيطالية .

٢) نزل لهذه المملكة عن إستريا

Istria ودلماسيا Dalmacia

والبندقية Venice

ب — في ألمانيا — ١) ضمت التيرول إلى ولاية بافاريا
(حليفة نابليون)

٢) حصل كل من أمير بافاريا وأمير

ورتمبرج على لقب ملك وبذلك

قضى على نفوذ النمسا في ولايتهما

وخسرت النمسا بهذا الصلح نحو ثلاثة ملايين من رعاياها

وانقطعت صلتها بإيطاليا وانفتح الطريق أمام نابليون إلى
تركيا والشرق .

ولم يخل هذا التحالف من « الفصل المضحك » الذى تنتهى به عادة أدوار الرواية المحزنة فان بروسيا التى قضت كل وقتها فى التردد والأحجام أبى سوء حظها الا أن تنقاد أخيراً الى دعوة القيصر فتخرج من حيادها وتبغث بانذار الى نابليون (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) تطلب فيه أن يقوم فوراً باخلاء هولندا وسويسرا وليمون وتهدهه بالانضمام الى التحالف اذا هو لم يجب هذه الطلبات . ووصل انذارها هذا الى نابليون قبل معركة أوسترلتز بأيام قليلة . وبذلك أدركت آخر فرصة ممكنة لكسب غضبه عليها . فان هذه المعركة قد بددت شمل التحالف كما وضحنا وانهارت به أركانه فانسحبت روسيا واصطلحت النمسا ونظرت بروسيا فاذا هى ماثلة وحدها وجها لوجه أمام قاهر الحلفاء فلم تر إلا أن تنصاع لأوامره وتقبل شروطه على علاتها .

ولكن نابليون كان يعلم أن روسيا مازالت أمامه وأن انجلترا سوف لا تفتأ تكيد له فاكتفى من بروسيا بأن تعاهده (١٥ فبراير سنة ١٨٠٦) على نقض يدها من صلاتها الروسية والاشتراك معه هو فى المحافظة على سلامة تركيا من اعتداء

القيصر وأن تتعهد بمقاومة التجارة البريطانية ومطاردة سفنها
في مدائنها الشمالية .

ولكى يكفل نابليون نفاذ هذا الاتفاق الحيوى قدم
هانوفر الى بروسيا بدعوى أنها ولاية ألمانية وحق بروسيا عليها
أظهر من حق الانجليز .

الفصل الثالث

توزيع التيجان

اتسع نفوذ نابليون في أوروبا بعد « معاهدة برسبورج »
اتساعا لم يسبق له مثيل منذ عهد شارلمان العظيم فرأى أن يقيم
بنيان سلطانه على أساس من المصاهرات يجعل امبراطورية
يونان برتية اسما ولحما ودما :

ففي المانيا : زوج بنت ملك بافاريا إلى ريبه أوجين بوهارنيه
(نائب ملك إيطاليا) .

وقدم مدموازيل ستيفاني ابنة أخت جوزفين
إلى ابن غراندوق بادن فتزوجها .

وكان أخوه جيروم قد تزوج في أمريكا بفتاة
أمريكية حسناء فطلقها منه وزوجه إلى بنت
ملك ورتمبرج .

(وبذلك ارتبطت بافاريا وبادن وورتمبرج
بفرنسا) .

وفي إيطاليا : كان أوجين بن جوزفين نائب ملك على

لمبارديا وأنشأ نابليون في البندقية ١٢

دوقية وزعمها على أنصاره وكبار رجال

حاشيته . وأرسل ماسينا لطرده آل بوربون

من نابلي (جزاء لهم على تحالفهم مع

الانجليز) ففر منها ملكها وملكته للمرة

الثانية وعين نابليون أخاه يوسف ملكا عليها .

وفي هولندا : قلب نظام الحكم الجمهوري إلى نظام ملكي

وعين لويس أخاه ملكا عليها .

وفي ولايات الرين : أقطع لمورا (زوج أخته كارولين) قطائع

واسعة على حده د بروسيا الغربية .

وقرر ١٥ أمير من أمراء المانيا الجنوبية

والغربية (وفي مقدمتهم أصهاره ملكي

بافاريا وورتمبرج وجراندوق بادن)

الاتصال من الامبراطورية الألمانية

(التابعة للنمسا) وألفوا « ولايات الرين

المتحدة » وجعلوا عاصمتهم فرانكفورت

ثم عقد الأمراء مع نابليون محالفة مستديمة

دفاعية هجومية ومنحوه حق السلم والحرب
وقيادة جيش الاتحاد وتحديد عدده
والأشراف على السياسة الخارجية .

وبذلك عقد سلطان نابليون المطلق من نهر الألب شمالا
إلى جبال البرنيز جنوبا فضلا عن تفوذه الشامل على إيطاليا
واسبانيا .

وازاء هذه العملية القاسية التي مثل فيها نابليون بامبراطورية
النمسا في المانيا وإيطاليا أشنع تمثيل لم ير فرنسيس الثاني بدا
من النزول عن لقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية
المقدسة » التاريخي والاكتفاء بلقب « امبراطور النمسا » فقط .

الباب الثاني : التحالف الدولي الرابع

الفصل الأول : أسباب التحالف

الفصل الثاني : موقعتان أخريان (بيننا وأورستاد)

الفصل الثالث : قرارات برلين

الفصل الرابع : القيصر

الفصل الخامس : هاري — كوتس فاليسكا

الفصل السادس : انقلاب القيصر

الفصل السابع : معاهدة تلس

الباب الثاني

التحالف الدولي الرابع

الفصل الأول

أسباب التحالف

ذكرنا في خاتمة الفصل الثاني من الباب السالف أن
بروسيا قدمت (في ٣ نوفمبر سنة ١٨٠٥) إلى نابليون إنذارا
تهدده فيه بالانضمام إلى التحالف الدولي الثالث اذا هو لم يخل
هولندا وسويسرا وييمون وان موقعة أوسترلتز وقعت بعد
ذلك بأيام (ديسمبر سنة ١٨٠٥) وأن التحالف الثالث انهار
بعد هذه الموقعة الحاسمة . وأن نابليون على الرغم من انتصاره
الشامل لم يشأ أن يرهق بروسيا بمطالبه . فاكتمت باتفاقية ١٥
فبراير التي أشرنا إليها أيضا في ذيل ذلك الفصل وبها تعهدت
بروسيا بالاشتراك مع نابليون في واجب الدفاع عن سلامة

تركيا من اعتداء القيصر . وبمقاطعة التجارة الانجليزية . وفي
نظير ذلك سمح لها نابليون بالاستيلاء على مقاطعة هانوفر .
وكان ولیم بت قد مات في يناير سنة ١٨٠٦ كما ذكرنا .
أما الذى ولى الوزارة البريطانية بعده فكان مستر فوكس
Mr. Fox منافس بت Pitt وصديق نابليون . ورأى نابليون
أن توليه الوزارة فى تلك الظروف ربما كان من دلائل إذن
الله بعقد صلح مع الانجليز فدخل معه فى مفاوضات تمهد
لأبرام هذا الصلح .

ولم يبق بعد ذلك من ملوك التحالف الثالث غير القيصر .
وقد نما إلى علمه (فى شهر مارس سنة ١٨٠٦) نبأ تلك الاتفاقية
التي حنت فيها ملك بروسيا بقسمه الذى أقسمه معه على قبر
جده الأعظم والتي اتفق فيها مع نابليون (فى ١٥ فبراير سنة
١٨٠٦) على تلك الشروط التي ذكرناها فى حينها فلم يربدا
من الاتفاق هو الآخر مع نابليون . وأنشأ يفاوضه (فى مايو
سنة ١٨٠٦) على شروط الصلح الذى يعقد بينهما . وبذلك
أوشك علم السلام أن يرفرف على أوروبا بأكملها بعد كل هذه
الحرب .

ولكن القيصر فى الحقيقة لم يكن يرغب من وراء هذه

المفاوضة أكثر من أن يخادع نابليون ريثما يتصل بزميله القديم ملك بروسيا . ويعيد إليه توازنه بالارتباط معه بعهد جديد ينقض به عهده مع نابليون ويتنحى به أيضا عن طريق مطامع روسيا في الشرق . وقد نجح القيصر (في يولييه سنة ١٨٠٦) في عقد « معاهدة بوتسدام السرية » Potsdam التي تعهد له فيها ملك بروسيا بعدم التدخل إذا قام هو بواجب الدفاع عن تركيا من اطماع نابليون وهكذا نصب القيصر نفسه حارسا على تركيا من كل معتد عليها وهو لا ينوى إلا أن يستخلصها لنفسه ويستأثر بأسلابها دون غيره .

وكانت بروسيا في الواقع منقسمة على نفسها . ففريق يرى مسألة نابليون ودفع شره بالاتفاق معه وكان الملك وبعض وزرائه على رأس هذا الفريق .

وفريق آخر على رأسه الملك ووزراء آخرون كانوا يرون الاشتراك مع الدول المتحالفة في قتاله وذلك لعدة أسباب : أولها — أن نابليون انتهك حياد الأراضي البروسية عندما مرت جيوشه فيها وهي تحاول الوصول إلى مارك ومفاجأته عند أولم .

وثانيها — أنه أهملها وتغافل عن وجودها وقضى على

مستقبلها في ألمانيا حينما جمع الولايات الألمانية الجنوبية والغربية وأنشأ منها « اتحاد الرين » .

وثالثها — ان الجنود الفرنسية كانت ما تزال مرابطة في جنوب وغرب ألمانيا منذ حروب التحالف الثالث .

ورابعها (وأهمها) — أنه بعد أن فرض عليها مقاطعة التجارة البريطانية — وكان بذلك سببا في دخولها في حرب مع إنجلترا والسويد — عاد فأدخل هانوفر في شروط الصلح التي كان يعرضها على فوكس عند مفاوضاته له مع أن هانوفر هذه هي الغنم الوحيد الذي قبلت بروسيا من أجله أن تجر على نفسها كل تلك المشاكل .

ولقد نجح هذا الفريق أخيرا في التغلب على الفريق الآخر ورأست الملكة بنفسها فرقة من الجيش البروسي فأذكي ذلك حماسة مواطنيها وهبت بروسيا كلها في وجه نابليون . وتشجع الملك فبعث في السابع من شهر أكتوبر (سنة ١٨٠٦) بأنذار آخر إلى نابليون يهدده فيه بإعلان الحرب عليه إن لم يبدأ الجلاء عن ألمانيا في اليوم الثامن من ذلك الشهر أي بعد الأتذار بأربع وعشرين ساعة .

وأبت الأقدار الا ان يموت فوكس في هذه الظروف

وأن تنقطع بموته مفاوضات الصلح مع الانجليز . وكان القيصر من جهة أخرى قد اطمأن على بروسيا بعد معاهدة بوتسدام (يولييه سنة ١٨٠٦) وأخذ يستعد لاستئناف القتال . ونجحت جهود انجلترا والروسيا في كسب اسبانيا إلى صف الحلفاء بعد تحطيم أسطولها مع الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر . وسخطها على نابليون لهذا السبب . وبذلك تألف التحالف الدولي الرابع من هذه الدول الأربعة (انجلترا . والروسيا . وبروسيا . واسبانيا) غير أن بروسيا لم تتمهل ريثما يصلها المدد الروسى اعتدادا منها بقوة جيشها . وبذلك وقعت في نفس الغلطة التى وقعت فيها النمسا حينما سيرت جيشها تحت قيادة ماك فتقدم بمفرده وكان ذلك سببا في نكبته عند أولم .

على أن الجيش البروسى كال جديرا بالاعجاب حقا من حيث عدته وعدده ولكنه كان من حيث ضباطه وقواده لا يصلح لمواجهة نابليون أصلا فأن رياسته كانت من تخريج المدرسة القديمة وكانت تسير في حركاتها العسكرية على نفس الخطط التى كان يتبعها فردريك الأكبر في القرن السابع عشر . ويكفى أن نذكر أن قائده الأعلى كان الدوق برنسويك الذى

كان في عهد الثورة الأولى يهدد الفرنسيين بتخريب باريس إذا هم مسوا أفراد الأسرة المالكة بأذى فكان سيبا أنذاره هذا في جمع كلمة الثائرين وشحذ هممهم ونجاح حركتهم .

ولقد اتبع نابليون كعادته سياسة التفاهم تلافيا لويلات القتال فكتب رسالة خاصة وجهها إلى ملك بروسيا لعله يرجع عن انذاره ويكفي الاستين شر الحروب . ولكن الأمر كان قد خرج من يد الملك وأصبحت القضية قضية الشعب البروسي . والشعب نفسه هو الذي كان يطلب الحرب في هذه المرة . واليك نص رسالة نابليون :

١٢ أكتوبر سنة ١٨٠٦

أخي

... . اكتب لكم من قلب سكسونيا . وصدقوني إن القوة التي معي لن تسمح لجيوشكم بترجيح كفة النصر إلى جانبكم طويلا — ولكن لم إراقة الدماء ؟ — ولآية غاية ؟ — أني لا أكتب لكم بنفس اللغة التي وجهتها إلى القيصر قبل معركة أوسترلتز يومين ...

يا صاحب الجلالة

لقد كنت صديقكم مدة ست سنوات . ولو أن مذكرتكم لي طلبت الى أجابة شروط معقولة لما ترددت في إجابتها . ولكنها تفرض على العار . ففي وسعكم أن تعرفوا ماذا يكون جوابي — إذ لن يكون بيننا إلا الحرب وستنقسم عرى صداقتنا إلى الأبد ! فهل من سبب ندفع برجالنا من أجله إلى المدبحة ؟ إني لا أرى قيمة للصبر الذي أشتريه بدماء الكثيرين من أبنائي . ولو أنني في مستهل حياتي الحربية وكنت أخشى بعد أهوال المعارك لما كان لهذه اللغة التي أخطبكم بها أى معنى ...

يا صاحب الجلالة

إن لجلالتكم الهزيمة المحققة في هذه الحرب . وانكم لتجنون بذلك على حياة هادئة كنتم تحيونها وعلى وجود قوى كنتم تكفلونه لشعبكم . وما لكم في كل ذلك من شبهة في عذر . واليوم تستطيعون أن تتفاوضوا معي بما يتفق مع سمو مركزكم . ولكنكم لن ينقضى عليكم شهر واحد حتى تجري بيننا مفاوضات على أساس آخر . واني لأعلم بأن ما اكتبه اليكم الآن يثير فيكم تلك الحساسية التي هي من طبع

الملوك . ولكن الظروف تضطرنى أن اكون معكم صريحا .
وأرجو أن لا تروا جلالتيكم فى كلامى هذا الا رغبتى فى حقن
الدماء .

وأنى أسأل الله يا صاحب الجلالة أن يحيطكم بحفظه
ورعايته .

أخوكم الصادق
نابليون

الفصل الثاني

موقعتان أخريان — يينا واورستاد

Jena & Aurstadt

لم تشر دعوة نابليون إلى الصلح والتفاهم . وكانت خطة الجيش البروسي أن يسير غربا ليطرد الجيوش الفرنسية المرابطة هناك . ولكن نابليون ما علم بموقف بروسيا الأخير حتى طار إلى لقاءها . وبهت برنسويك إذ علم أن نابليون قد تسلم قيادة الجيش الفرنسي فعلا . وانه جاد للقاءه . وبعد أن كان ينوى أن يبدأ بالهجوم استحسن أن يتقهقر إلى مجدبرج تاركا جناحه الأيسر تحت قيادة (هوهنلوه Hohinlohe) للمحافظة على (يينا Jena) . ولكن نابليون أرسل دافوت « Davoust » للحاق ببرنسويك وانقض هو على هوهنلوه في يينا (١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦) . فوقف له الجيش البروسي وقفة عنيدة منذ الساعة السادسة صباحا حين بدأت المعركة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . واستمرت

المعركة في حلال تلك الساعات الطويلة سجّالا عنيفا بين الفريقين . وأخيرا رأى نابليون من كلال العدو واعياته ما جعله يطمئن إلى اتخاذ الاجراءات الختامية لانتهاء المعركة فبعث بفرقة من الفرسان قوامها ١٢ الف فارس تحت قيادة (مورا) ققضت بسنابكها على البقية الباقية من جيش هوهنلوه وملكّت عليها مسالك الحرب . وظلت تعمل السيف في قلوب البروسيين حتى خيم الظلام واضيف يوم يينا إلى سجل نابليون الحربي كمفخرة من أزهى مفاخرة .

وكان دافوت قد ادرك في نفس ذلك اليوم جيش برنسويك عند اورستاد على بعد ١٢ ميلا من يينا وانتهى به إلى مثل ما انتهى إليه نابليون بجيش هوهنلوه وبلغت خسائر البروسيين في ذلك اليوم العصيب نحو ٢٠ الف اسير غير عشرين الف اخرى ما بين قتيل وجريح .

وكان ملك بروسيا نفسه من بين الأفراد القلائل الذين كتبت لهم النجاة في ليلة تلك الهزيمة النكراء فظل على جواده هائما بين الحقول والغابات حتى ادركه الصبح وهو في مخبأ بعيد ثم واصل سيره منه إلى حدود بولندا كما يتصل هناك بجيش الروس الموعود .

ولقد وقعت انباء هاتين الموقعتين على بقية الحصون البروسية موقع الصواعق فأخذ قوادها يتنافسون في التسليم لنابليون حتى لم تبق الا « لوبك » (Lubeck) وكان عليها قائد شهيم اسمه (بلوخر) وهو الذي تمت على يده فيما بعد هزيمة نابليون في معركة ووترلو الشهيرة . فظل يقاوم الفرنسيين حتى تغلبوا عليه ودخلوا حصنه عنوة ولم يبق امامه الا الرضوخ .

وعند ذلك عرض نابليون على ملك بروسيا شروطا للصالح رآها الملك بحجة لا يستطيع إلى إجابتها سيلا فرفضها ورحب الحلفاء بهذا الرفض لأنهم كانوا ينوون القيام بعمل مشترك قريب وكانوا يخشون خروج بروسيا عليهم من جديد فينفرد نابليون بالروسيا ويسهل عليه اقتراسها وبذلك تضع الفائدة من جهود الحلفاء .

وانفتح الطريق إلى برلين امام نابليون فبعث إليها بدافوت ليسبقه في دخولها تكريما له على حسن بلائه في اورستاد . وقضى هو ليلتين في بوتسدام نزل خلالها في قصر فردريك الأكبر واقام في حجرته وعرض الحرس الامبراطوري ثم زار قبر فردريك واخذ سيفه ومنطقته وغير ذلك من آثاره

وجمع اعلام حرسه الخاص في حرب السبع سنوات وارسلها كلها إلى بازييس كغنائم حرب .

وفي ٢٧ اكتوبر وصل نابليون برلين بين قواده واركان حربه وكان في طليعة الموكب ثمانون من الحرس الامبراطورى حاملين الاعلام التى غنمها الفرنسيون من الجيش البروسى وقد خرج للقاءه وفد من الأعيان والحكام تحت رياسة الكونت (هاتزفلد) Conte Hatzfeld حاكم المدينة فرحبوا به وقدموا له مفاتيحها .

ووصل نابليون إلى القصر الامبراطورى فى الساعة الثالثة بعد الظهر فأخذ يهتم بتنظيم المدينة واستبقى الكونت هاتزفلد حاكما عليها كما كان وتولى الكونت أمر المفاوضة بين الحكومة البروسية وبين نابليون ولكنه بلغ به الطيش إلى حد أن يفشى إلى بعض القواد البروسيين ما علمه بحكم مركزه عن الجيش الفرنسى . وتطوع بالتجسس على نابليون فضبطت إحدى رسالاته وقرر نابليون إحالته إلى المحاكمة تمهيدا لأعدامه .

وكان للكونت زوجة طيبة سليمة القلب فما كاد يصل

إلى عليها ما حل بزوجها حتى ظنت أنها وشاية وشى بها في حقه
بعض القواد الفرنسيين فعقدت النية على تبرئته عند نابليون .
وتقدمت إليه وهي تذرف الدمع وألقت بنفسها عند قدميه
واخذت تدافع عن زوجها بكل حرارة . وكان نابليون لا
يحب من النساء أشباه الملكة لويزا التي دفعت زوجها
وطنها في أتون هذه الحرب وسببت كل هذه الخسائر في
الأموال والأرواح ولكنه كان يمتلئ عطفًا وحبًا نحو المرأة
الصالحة الطيبة مثل الكونتس هاتزفلد . فما هو أن رأى
تأثرها وانفعالها حتى رفعها عن الأرض ثم فكر قليلا —
وقال :

— « لا شك يا سيدتي أنك تعرفين جيدا خط زوجك .
فخذى هذه الرسالة واقريها ثم ابريني عمن كتبها ! » .
وناولها الرسالة . فعرفت خط زوجها . ولم يسعها
إنكاره . وعلمت أنه لم يعد لها حجة لطلب العفو . فلبست
نفسها ونهضت . . ثم انفجرت مرة أخرى بالبكاء وهي تهم
بالخروج مستسلمة إلى قضاء الله . وعند ذلك استوقفها نابليون
ومد إليها يده بالرسالة قائلا :

— « خذى هذه الرسالة يا سيدتي وألقها في النار ينعدم

الدليل الوحيد الذى لدينا على خيانة زوجك وبذلك ينجو
من القصاص ! » .

فبهت المرأة لسماح هذا الكلام وتناولت الرسالة وألقته
فى النار ووقفت تنظر إلى ما يتصاعد من لهبها ودخانها وهى
لا تكاد تصدق ما تسمع وما ترى .

الفصل الثالث

قرارات برلين

دخل نابليون برلين في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٦ كما اسلفنا . ودانت له بذلك ألمانيا الشمالية . كما دانت له من قبل ألمانيا الجنوبية فضم مقاطعتي هس — كاسل Hesse - Cassel وبرنزويك Brunswick بعضها إلى بعض بعد أن عزل أميريهما لا شيرا كهما مع بروسيا في حربها الأخيرة وأنشأ منهما مملكة « وستفاليا » « Westfalia » وعين أخاه الأصغر جيروم ملكا عليها .

أما أمير ساكسوني فإنه بادر من تلقاء نفسه فطلب الانضمام إلى « اتحاد الرين » ليكسب بذلك عطف نابليون عليه . وقد صدقت فراسته وانعم عليه نابليون بلقب « ملك ساكسونيا » فشجع كثيرا من ولايات ألمانيا الشمالية الصغرى التي كانت تخشى غضب نابليون عليها فتفادته بانضمامها هي الأخرى إلى « الاتحاد » .

على أن نابليون أصبح لا ينظر إلى هذه الانتصارات والفتوح كغاية في ذاتها يصح الاغتياب بها والتعويل عليها بعد أن رأى ما رأى من تصميم إنجلترا على هدمه فبات هو الآخر لا يقر له قراز حتى يتخلص منها أو يتغلب عليها واصبحت حروبه كلها بعد تحطيم أسطوليه وأسطول حلفائه الاسبان في موقعة الطرف الآخر وبعد وفاة صديقه فوكس لا تعدو أن تكون وسيلة لبسط نفوذه على جهات جديدة من أوروبا ليحملها بقوة سيفه على أن تتعاون معه في القضاء على إنجلترا بمقاطعة تجارتها وحصرها في جزائرها حتى تضمحل وتهلك .

ففي ٢١ نوفمبر أصدر من برلين أول حلقة من سلسلة المرسومات الشهيرة « بمرسومات برلين » أو « قرارات برلين » وهي التي أعلن فيها أن الجزائر البريطانية في حالة حصر — وأنه من المحرم الاتصال بها أو الاتجار معها . فالمرآكب الانجليزية التي تضبط في المياه الفرنسية أو مياه حلفائها تكون غنمة حربية للفرنسيين والرعايا البريطانيون الذين يضبطون على الأرض الفرنسية أو أرض حلفائها يلقي عليهم القبض ويعاملون كأسرى الحروب .

وكانت هذه المرسومات أساس تلك السياسة التي اشتهرت

فما بعد باسم « النظام القارى » وهى تلك السياسة التى أراد بها نابليون أن يقضى على انجلترا بالقضاء على تجارتها فى القارة الأوروبية . فكانت بدورها سببا فى القضاء على امبراطوريته . ثم على عظمته ومجده . ثم على آماله وعلى شخصه . وذلك لأن تنفيذ هذه السياسة لم يكن متعلقا بأشخاص الملوك الذين كان يحملهم نابليون على اتباعها . ولا بالحكومات التى كان يلزمها نابليون بوجوب السير عليها ولكنها كانت تمس افراد الشعوب المختلفة واحدا واحدا وتستدعى توضيحات شخصية يقوم بها كل إنسان فى حاجياته وادوات عيشه لأن المراكب الانجليزية كانت يقع عليها عبء تموين أوروبا كلها بما تحتاج إليه دولها المختلفة من مصنوعات العالم ومنتجاته فمنعها من أداء عملها معناه حرمان هذه الدول مما تحتاج إليه من المصنوعات وفى بعض الأحيان حرمانها مما هى فى حاجة إليه من الغذاء .

ولقد صادف نابليون بعد هذه القرارات فتوحا باهرة . واضاف إلى عظمة اسمه اسبابا جديدة ولكنه فى الواقع وهو يوقع هذه القرارات كان يوقع صك فشله وسقوطه .

الفصل الرابع

القيصر

تشكل التحالف الرابع في أخرج الأوقات بالنسبة لنا بليون وكانت الغاية كما أوضحنا تحويل نابليون عن الغزوة البريطانية ومفاجأته في الوقت نفسه بنصف مليون جندي يزحفون على حدوده الشرقية فيملون عليه الشروط التي ترضاها إنجلترا وحلفاؤها .

ولكن نابليون حطم النمسا تحطياً في أولم وأوسترلتز . وقضى على جيش بروسيا قضاء مبرماً في يينا وأورستاد . ولم يبق من زعماء التحالف أمامه إلا القيصر — وقد عقدت أوروبا عليه وعلى جيشه العظيم آمالها في القضاء على نابليون ! وكان هذا القيصر الذي عقدت عليه الآمال قتي شاباً رقيقاً . خفيف الروح . أحمر الخدين . نسوى الملامح . عواطفه هي العنصر الغالب في مزاجه . ولم يكن على أية حال ند نابليون في تلك الوقفة التاريخية التي أوشكا أن يقفاها . وبحسبي أن أسوق لك وصف نابليون نفسه له ليتبين لك الفرق بين الغريمين

« إن القيصر اسكندر لأحد أولئك الناس الذين تجذبك إليهم صفاتهم والذين يفتنك سحرهم ويحملك على التعلق بأشخاصهم ولو أتى رجل أندفع وراء العواطف الشخصية لكانت له على قلبي السيطرة المطلقة . ولكنه إلى جانب ذلك ينقصه شيء لا أستطيع تحديده — شيء لا يستطيع الإنسان أن يخصصه بظرف معين أو بحالة معينة لأن ذلك الذي ينقصه يختلف دائما باختلاف الظروف والأحوال ... »

وفي الجملة لو أن هذا القيصر امرأة فما أظن إلا أنى كنت اتخذته خليله لى ! »



وقد كان نابليون يعلم من رجاله الذين دخلوا قصر بوتسدام (حيث كانت تقيم الملكة لويزا ملكة بروسيا) أن القيصر كانت له منزلة ممتازة فى قلب الملكة وأنه ترك لها صورته كتذكارة وأن هذه الصورة قد وجدت كما قال نابليون « معطرة بأطيب العطور وقد اختلطت هى وأدوات الزينة برسائل الدولة الرسمية ووثائقها » ولذلك لم يفت نابليون مافى الموقف من الخطر إذا ما اتحد ملك بروسيا تسوقه عوامل الوطنية والغيرة على سمعة بلاده بقيصر روسيا وهو مدفوع بشهامته

وعهوده للملكة بأنه سيقف إلى جانبها حتى يتم لها النصر والفوز
ووافته الأنباء من بروسيا الشرقية بأن الروسية قد بعثت
بجيش عظيم تحت قيادة بنجنسن Bannigsen لرفع الحصار
عن بعض موانئ ألمانيا الشمالية التي كان يحاول نابليون الآن
الاستيلاء عليها توسعاً في تنفيذ « نظامه القارى » فغادر برلين
من فوره وسار قاصداً إلى نهر الفستولا حيث علم باجتماع
ملك بروسيا بجيش القيصر وقد أوحى إليه فطنته أن يمهّد
للمحمة القادمة بمنشور أذاعه على البولنديين يمنهم فيه بالعمل
على إعادة استقلالهم اليهم ليضمن ولائهم له وليزيد بأثارة هذه
الخواطر فيهم حرج مركز أعدائه .

ولكن هذا المنشور كان سبباً في اتصال نابليون
بالكونتس فاليسكا « Comtesse Waleska » ذلك الاتصال
الذى لا نستطيع ان نمر بدون الاشارة اليه لما كان له من
التأثير المباشر فى ما استجد بعد ذلك من الحوادث .

الفصل الخامس

مارى فاليسكا

ساجية الطرف . ساحرة النظرات فتاة الملاح . لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . من اسرة عريقة في المجد ولكنها فقيرة ولذلك اغرتها امها بقبول الزواج من الكونت فاليسكا الشيخ البولندى العجوز طمعا في غناه وتحسين حال الاسرة . وقبلته الفتاة راضية مع ان لصغر احفاده يكبرها بنحو عشر سنوات وكانت ماري قد تقدم اليها شاب روسى نيل يطلب يدها فرفضته بأبأء لاشيء إلا انه روسى والروسيا هي عدوة بلادها پولندا وسر نكبة اسرتها لانها اشتركت مع النمسا وبروسيا في القضاء على استقلال وطنها^(١) . فكانت إذا اشتبكت دولتان من هذه الدول الثلاثة في حرب فليس على المغلوب إلا ان يسترضى الغالب بالتنازل له عن شيء من حصته في ارض

(١) تقع بولندا بين هذه الدول الثلاثة . فكانت بحكم موقعها موضع التجاذب بينها تسمى كل واحدة منها للاستيلاء عليها . واسكنها اتفقت أخيراً على تقسيم بولندا الى ثلاثة أقسام يختص كل دولة منها بقسم .

بولندا . وهكذا بقيت تلك البلاد التعسة نهبا مقسما بين هذه الدول .

واخيراً ظهر نابليون في اوربا حاملاً لواء الديمقراطية في وجه الاستبداد الارستقراطي العتيق ورأته ماري يقضى على النمسا ثم على بروسيا فتوجهت ميولها إليه ثم رأته يتقدم الآن للقضاء على روسيا فرأت فيه الصديق الطبيعي لبلادها لأنه عدو أعدائها وتمثلت فيه قوة الله التي سخرها لانقاذ وطنها فما هو ان عرفت امر المنشور الذي اعلن فيه عن عزمه على إعادة استقلال بولندا حتى كانت في طبيعة مستقبله . وبلغ بها الانفعال لدى رؤية موكبه الفخم ان ألقت بنفسها إلى جانب عربته قائلة :

« مرحباً بك يا مولاي ! إن ارض بولندا لتتشرف ان تطأها قدماك وان البولنديين مهما فعلوا التحيتك لا يستطيعون ان يعبروا التعبير الصادق عما تكنه افئدتهم من الحب لشخصك العظيم . وان هذا الوطن المنكود ليضرع اليك ان تأخذ يده لتنقذه من الاستعباد . »

وقد أخذ نابليون بفتنة هذه الشابة وهي تتوسل اليه وتستجديه العطف على قضية بلادها فوعدها خيراً وناولها

باقية من الزهور كانت في يده طالبا اليها ان تحتفظ بها كعربون على حسن نياته نحو بولندا . . .

دخل نابليون بعد ذلك مدينة وارسو و اقيمت له حفلة استقبال باهرة جمعت وجوه القوم . و اقيال بولندا : وازدانت الحفلة بعقائل كبار البولنديين — وكان الجمال البولندى ومازال مضرب الأمثال في كل اوربا — فراغت أبصار ضباط نابليون وقواده . وطفق كل منهم يتودد إلى إحدى المحتفلات يراقصها ويحادثها بينما جلس نابليون في مكانه شارد الفكر قلق العينين حتى لقد استلقت امره انظار كل الحاضرين .

واخيرا استقرت عيناه على جهة معينة وأبرقت اساريره وادركته شبه نشوة فأكثر من ملاطفة جلسائه ومعايشتهم حتى لقد دهش الجميع من هذا الانقلاب وتتبعوا نظراته فاذا هي مصوبة نحو إحدى المدعوات فاشترأبت نحوها الأعناق وسرى اسمها سريان البرق في كل صالونات القصر من فم إلى فم — « الكوتس فاليسكا ! »

وانتهت الحفلة . . .

وما كادت تدخل الكوتس مخدعها حتى سلمتها وصيفتها

الرسالة التالية :

« لم ار غير وجهك . ولم اعجب إلا بك . ولست ارغب إلا فيك فهل من رد عاجل تطمئن له نفسى القلقة الشائرة . ن . »
ولكن الجنرال ديروك عاد دون ان يظفر برد على هذه الرسالة وكان وقع ذلك على نفس نابليون اليما . فانه اعتاد ان يرى النساء والأميرات يتهاقن عليه إذا ما التقى بنظرة إلى إحداهن فما بال هذه الشابة تصد عنه وتهمل رسوله ؟ أفينقم منها هذا التصرف ويغضب عليها كما كان يغضب على كل من حاول ان يعصى له امرا ؟ حبذا لو استطاع — وحبذا لو فعل ! ولكنه لم يستطع إلا ان يرسل اليها رسالة اخرى :

« هل اغضبتك يا سيدتى ! كنت اطمع فى ان التقى منك غير ما لقيت فهل اخطأت ؟ إن اندفاعك نحوى قد قتر بيننا اندفاعى نحوك ينمو ويزيد حتى لقد سلبتنى الراحة فهلا تمنين بشيء من الفرح والسعادة على قلب لا يريد الا ان يحلك ويمجدك ؟ وهل يصعب عليك إلى هذا الحد أن تجيبى على رسائلى بكلمة ؟ أنك مدينة لى بردين ! ن . »

أما الرسالة الأولى فأن « ماري » قد كورتها فى يدها وألقتها إلى الأرض نافرة من جرأة أسلوبها . وأما هذه الرسالة فأنها ابت ان تفتحها اصلا وامرت الرسول بأن يعود بها إلى

سيده . ولكن الرسول لم يذكر إلا أنه لم يظفر برد .
وثقلت وطأة هذا الفشل المتكرر على نفس نابليون .
ورأى أن يطرق باب الأيهام والتعليل مادام باب الاستعطاف
والتوسل ظل موصدا في وجهه .

وذهب « ديروك » للمرة الثالثة برسالة جديدة وفي هذه
المرة دخل على الكونتس بنفسه وظل يعالج إصرارها وعنادها
بكل ما أتاه الله من فنون القول وأساليب الكلام ثم ألقى
على ركبتيها مظروفاً جديداً فقرأت فيه :

« سيدتى إن العظمة لتثقل على النفس أحيانا . وهذا
ما أحسه الآن ، وكيف أستطيع أن أجيب مطلب قلب يود
لو يطير اليك فتقعهده أثقال الاعتبار العالية ؟ ... إنك
أنت التى تستطيعين أن تزيل ما يبتئنا من العوائق وهذا صديق
ديروك يعاونك ويمهد لك السبيل ! تعالى الى وكل رغباتك
مُجَابَةً . وسيكون وطنك اعز على نفسى متى اخذتك الرحمة
بقلبى المعذب المسكين ... »

وصدقت فراسة نابليون وكثرت المؤثرات حول
رأس الكونتس الشابة حتى لم تعد تدري ماذا تقول او ماذا
تصنع . ولم يبق من كبار رجالات پولندا من لم يشجعها على

تلبية نداء الامبراطور خدمة لقضية بلادها . فاستسلمت
المسكينة آخر الأمر . وانهمرت الدموع من مآقيها وقالت في
تنهد عميق :

« اصنعوا بي ما شئتم . وايكن ما يرى الله ان يكون ! »
وكان الموعد المضروب لذهابها اليه في الساعة العاشرة
من مساء ذلك اليوم . ووقف نابليون في غرفة قبيل الموعد
وقد عقد كفيه وراء ظهره واستغرق في افكار عميقة وهو
يذرع أرض الغرفة مسرعا جيئة وذهابا مضطرب العقل
ساجح النظرات حتى لقد قال عنه خادمه كونستان في مذكراته :
« كان نابليون قبيل تلك الساعة كتليـذ ضرب أول
موعد لحبيته . فأخذ قلبه يخفق وصبره ينفد وهو يسأل بحدة
بين كل دقيقة وأخرى : كم الساعة الآن ؟ ولقد صرف نابليون
في تلك الساعة سكرتاريه وطلب أن لا يدخل عليه قواد
ولا غير قواد . وأمر بأن يحل جواده وينزع عنه سرجه .
ولينتظر الآن كل رجال السراى — والجيش — وباريس
ولتنتظر أوربا كلها أيضا . . . ! فأن هذا الرجل الذى أفى من
عمره سبعا وثلاثين سنة لم يعرف فيها طعم الحب الا مرة
واحدة حين رأى جوزفين وهى تكبره بأكثر من ست

سنوات قد عاد الآن إلى حظيرة الحب وأسلم زمامه لصيدة فاتنة رفضته مرتين ولم يصل إليها الا عن طريق المخادعة والتلويح بالوعد الخلافة .

وانقضت المقابلة الأولى بين النسر وفريسته بعد ثلاث ساعات طويلة قضتها الكونتس في بكاء مستمر وقضاها نابليون في ملاطفة متواصلة حتى لقد خرجت الكونتس من عنده في الساعة الواحدة وهي تعجب لهذا الرجل الذى يقول الباس عنه انه « حديدى » والذى رأته هى بعينها يذوب رقة ويقطر حنانا . . .

وتكررت هذه الزيارة بعد ان اطمأنت فاليسكا إلى نابليون . واصبحت تأنس به وتسرب بمجلسه . ووجد نابليون فيها بما أبدته من العفة والولاء ضالته التى ينشدها من بين نساء العالمين فحرص عليها وقضى كل أوقاته بين يديها ولعل شيئا من ذلك وصل إلى علم جوزفين فى باريس فاهتاجتها الغيرة وألحت على زوجها فى وجوب حضورها اليه فكان يعتذر لها بعد الشقة وسوء حالة الجو . ولكن هذه المعاذير لم تكن تزيدها إلا رغبة فى السفر واضطربت نفسها وقلقت خواطرها وبلغت نابليون اخبار حزنها وبأسها وبكائها المستمر . . . فكتب اليها يقول

« إن ما بي يا عزيزتى لفوق الذى بك . ولكم كنت اتمنى ان تشاطرينى لىالى هذا الفصل الطويلة ولكنى اتطلب منك شيئا من الشجاعة والحزم . . . ولقد اخبرونى انك دائما تبكين . فأف لهذا البكاء . ما اقبحه واثقله ! إن الأمبراطورة ينبغى ان تكون ذات قلب شديد ! فابقى إذن يباريس وكونى فيها مريحة سعيدة . وربما وافيتك فيها عن قريب . اما قولك انك اتخذت لك زوجا لتكونى معه فقد اضحكنى كثيرا . فانى اظن — على جهلى — ان المرأة لرجلها وان الرجل للوطن . والأسرة . وللجد ! »

وهكذا انعكست الآية بين نابليون وجوزفين فينما كان هو يلح عليها فى ايطاليا متوسلا اليها ان تحضر اليه وهى غافلة عنه بأصحابها واصدقائها الكثيرين اصبحت هى اليوم تلح عليه فى پولندا متوسلة اليه ان يسمح لها باللحاق به وهو يدافعها عن نفسه بنفس اعدارها المتحلة . وينشغل عنها بكنزه الثمين — ماري !

ولم تكن اهمية ماري لنابليون فى أنها وهبته ولأما بعد صدها وحبته برضاها بعد نفورها . ولكن فى أنها وضعت له

غلاماً (١). وكان ذلك سبباً في إقناعه بأن عقم جوزفين ناشئ
عن نقص فيها هي لا عن نقص فيه . فقويت عنده فكرة
الطلاق منها ليتيح لفرنسا وارثاً يجلس على عرشه فيها من بعده

• • •

وأخيراً علم نابليون بتقديم القائد الروسي « Bennigsen »
نحو شواطئ ألمانيا الشمالية ودعاه إلى لقائه داع « المجد
والوطن » كما كان يقول لجوزفين . فلم تقعد به صلاته بماري
ولم يضع احساسه بالواجب في وسط تلك الدنيا التي انغمست
فيها حواسه . ولكنه هب يودع رفيقته فأعطاهما خاتماً نقشته
عليه هذه العبارة :

« Si tu cesse de m'aimer, n'oublie pas que je t'aime »
« إذا أمسكت عن حبي فلا تنسى أنني على حبك مقيم ! »
وهكذا انفصل الصديقان ولم يقدر لهما أن يجتمعا بعد
ذلك إلا في جزيرة البا حيث نفى نابليون بعد اعتزاله الملك
ورأت ماري أن تلك ساعتها التي تستطيع أن تدخل السرور
على قلب صاحبها القديم فرحلت اليه هي ووليدها وكانت بذلك
كريمة معه في محنته أشد مما كانت كريمة معه في نعمته ! .

١ أصبح هذا المولود فيما بعد وزير خارجية فرنسا وذلك في عهد
الامبراطور نابليون الثالث .

الفصل السادس

انقلاب القيصر

سار بنجنسن Bennigsen نحو ميناء دانتزج ولكن تقدم نابليون نحوه كان سبياً في ارتداد الجيش الروسى إلى إيلاو حيث حضر القيصر بشخصه وهناك التحم الجيش الفرنسى وعلى رأسه نابليون بجيش القيصر (٨ فبراير سنة ١٨٠٧) وللرة الأولى فى تاريخ الحروب النابوليونية تدوم المعركة ثلاثة أيام كاملة يخسر فيها الفرنسيون نحو ٢٥,٠٠٠ جندى ثم يرتدون وقد أخطأهم ذلك النصر الذى كان من نصيبهم دائماً فى كل المعارك السابقة .

ولم يشأ نابليون أن يعاود القتال مع الروسين بعد الذى رآه من صلابتهم قبل أن يزود جيشه بكل ما يستطيع جمعه من الأدوات فلبث ثلاثة شهور يتلقى من حلفائه كل ما استطاعوا جمعه له ونجح فى الوقت نفسه مسعاه فى إثارة سلطان تركيا للقيام من جديد فى وجه القيصر « عدوهما المشترك » . وفى

تأكيد تمنياته السلبية للنمسا حتى لا تفكر في الانتصار لحليفها القديم . وفي حضن البولنديين على انتهاز هذه الفرصة وحمل السلاح في وجه شر أعدائهم والعامل الأساسي في هدم استقلالهم وتمكن بهذه التعبئة العامة سلبها وإيجابها من تقوية مركزه وإخراج مركز خصمه .

وأخيراً (٥ يونيه سنة ١٨٠٧) اشتبك الفريقان ودارت بينهما عدة معارك صغيرة كان النصر فيها سجالاً بينهما . وفي العاشر من ذلك الشهر دارت معركة دموية بلغت خسائرها نحو ١٨,٠٠٠ جندي فما كان أعجب إلقاء الفريقين لسلحهما عند الصباح وقيامهما معاً . ومن غير اتفاق سابق باسعاف جرحاهم ودفن موتاهم وقد اختلط بعضهم ببعض في نفس الميدان الذي هلك فيه بالأمس إخوانهم وزملائهم ! .

واستؤنف القتال وارتد الروسيون شمالاً نحو قرية فريدلند « Friedland » الواقعة على نهر الآل يلتمسون لنفسهم جنة يتقون بها هجمات نابليون ولكنهم ظلوا يتقهقرون حتى بلغوا تلك القرية في الرابع عشر من شهر يونيه وأشرف نابليون من فوق ربوة عالية يتبين مواقع أعدائه فما كاد يرى « Bennigsen » بجيشه وقد وقفوا عند تلك القرية والنهر

وراءهم حتى أمسك بذراع المارشال ناى « أتجمع الشحمان ،
كما كان يسميه — مشيراً بأصبعه إلى القرية وإلى الجنود
الروسين الذين تموج بهم سهولها قاتلاً :

« ذلك هو الهدف . فاحمل عليه ولا تنظر إلى ما حولك
وألقي بحيشك على أكداس هذه الجنود مهما كلفك الهجوم
تم ادخل القرية واستول على جسورها ولا تهتم بما يجرى
عن يمينك أو عن شمالك أو من خلفك فساً كون أما وبقية
الجيش فى أترك ! » .

فانقض ناى كالقضاء المبرم ومعه أربعة عشر ألف من
رجالہ على جيش « نيجسن » فما كاد بدخل القرية حتى أشعل
النار فى مساكنها . ثم بادر إلى حسورها فخطمها تم أعمل
السلاح فى كتائب الروس فارتدت أمامه . ولم ير الفارون
منها بدا من الاقاء بأنفسهم فى مياه الهر . فابتلع الماء أكثر
مما أتلفت النار . وفنيت قوه الروس فى ذلك اليوم العصب
وتحطم آخر أمل لهم فى قتال نابليون .

وقد بلغت خسائر الروس بين الخامس والخامس عشر
من شهر يونيه سنة ١٨٠٧ نحو ستين ألف جندى ما بين قتل
وجريح وأسير غير ١٢٠ مدفع استولى عليها الفرنسيون و ٣٠٠



استسحاق السعوط
كان ناليون يستشق سعوطا من السع
ويكبر منه في ميدان القتال

٩٢١ و ٩٢٠ - ٤٠٥ - ج - ٢

مركب كانت راسية في ميناء كونجزبرج وهي مثقلة بأنواع
الذخيرة وأصناف السلاح .

ونشر نابليون على جنوده بعد تلك المعركة الحاسمة نشرة
من نشراته التاريخية الخالدة مجد فيها أعمالهم وذكركم بأنهم
في أوسترلتز أحيوا ذكر ارتقائه على عرش الامبراطورية
وانهم في فريدلند أحيوا ذكرى معركة مارنجو التي حطموا
بها التحالف الدولي الثاني . ثم قال لهم :

أيها الفرنسيون ! إنكم تعودون اليوم إلى فرنسا وعلى
جبينكم اكليل من الغار لأنكم هياثم الطريق لصلح شريف
يحمل في ثنياه كل ما يكفل بقاءه وقد آتت الألوان لوطننا
العزیز ان يعيش في هدوء بعد ان وقيناه شر احقاد الانجليز .
وستكون اعطيتي لكم عنواناً حياً لاعترافي بفضلكم . ورمزاً
ناطقاً للحبّة التي احسها نحوكم ! » .

❖ ❖

أما القيصر الشاب فقد أخذته نوبة اعجاب بنابليون جعلته
يطلب لقاءه عن شوق ليفضى إليه بتقديره لنبوغه ولتفق معه
على أساس صالح يقيم فوقه بنيان عهد جديد يتفق مع حسن ميوله
نحو الفرنسيين وزعيمهم العظيم . وتلقى نابليون هذه الدعوة

بالسرور والارتياح وحدد اليوم الخامس والعشرين من شهر
يونية للقاء غريمه

ووقف على شاطئ نهر نيمن « Niemen » في ذلك اليوم
صفان طويلان من الجنود في أحسن لباس وأنخر زينة - هذا
حرس القيصر وهذا حرس نابليون . وفي تمام الساعة الواحدة
أطلقت المدافع وأبحر زورقان واحد من كل جانب من جانبي
النهر . والتقى العاهلان في وسط النهر فوق رمث أعد لهذا اللقاء
وأسرع نابليون في النزول إلى هذا الرمث ثم استقبل القيصر عند
ما وصل بالعناق !

وكان أول ما قاله القيصر لنابليون :

— انى اكره الانجائز بمقدار كراحتك لهم وأنى على استعداد
لتأييد رأيك فى كل ما تقترح بشأنهم ! .
فأجابه نابليون :

— « لقد أصبح من السهل إذن يا صاحب الجلالة أن
تسوى علاقاتنا وأن يتم اتفاقنا على الصلح »
ودام اللقاء ساعتين خرج القيصر بعدهما مأخوذا بما رآه من
عظمة نابليون وتفردته فى السيطرة على النفوس والعقول .

البقيّة السّابع

معاهدة تلست [٧ يوليو سنة ١٨٠٧]

في اليوم التالى ذهب القيصر للقاء نابليون مرة اخرى وفي صحبته ملك بروسيا التعس لعل حضوره يكون سببا في عطف نابليون على بلاده . وحاول الرجل أن يعتذر بين يدي نابليون عن رفعه السلاح في وجه فرنسا ولكن نابليون لم يشأ أن يؤذى إحساسه بالشهامة فيه بعد أن رفض نصحه وأصر على قتاله واكتفى في الرد عليه بأن يندب سوء الحظ الذي قضى على بلاط برلين أن يستسلم لمكائد الانجليز ودسهم ويتسبب بذلك في إشعال حرب جيّهدة في أوروبا

وقرر القيصر أن يجعل إقامته بعد ذلك اليوم في مدينة تلست Tilsit التي يقيم فيها نابليون فكان العاهلان يخرجان كل يوم على جواديهما يتبعهما ملك بروسيا . فيقضيان الساعات الطويلة وهما يتحدثان في شئون أوروبا وفي السياسة التي ينويان السير عليها بعد ان استحكمت بينهما عرى هذه الصداقة . فكان لاهم للقيصر في كل حديثه الا مصير الامبراطورية العثمانية . ونصيبه في أسلاهما

وكان نابليون هو الذى تسبب أخيراً فى أن تعلن تركيا الحرب على روسيا فتعهد بالوساطة عند السلطان لصالح القيصر وتحقيق اطماعه فى الشرق ولكنه كان حريصاً على أن يتقاضى ثمن هذه الوساطة من القيصر بطلب تدخله هو بين فرنسا وإنجلترا وحسم النزاع القائم بينهما حتى إذا لم يفلح فى حمل إنجلترا على الاتفاق مع نابليون انسלخ عنها وانضم إلى نابليون عليها . وكان مما قاله نابليون لصاحبه يوماً فى هذا الصدد :

« — ما هى الغايات التى ترمى إليها إنجلترا ؟ إنها تريد أن تحكم البحار مع أنها ملك شائع لجميع الأمم . وتريد أن تستبد بالمرأ كبح المحايمة . وتحتكر التجارة لنفسها . وتثبت أقدامها فى كل مكان تصل إليه أقدامها من أرض القارة : فى البرتغال : فى الدنمرك . وفى السويد — وتريد أن تستولى على أهم محطات العالم البحرية : على رأس الرجاء الصالح . وعلى جبل طارق . وعلى مالطا . وهى الآن تستعد للاستيلاء على مصر وكانت حكومتها تريد إرسال بعثة إلى الدردنيل والله وحده يعلم ماذا كان يؤول إليه مصير الشرق إذا هى استولت على هذا المضيق .

إنهم يهتموننى باننى اسعى إلى الحرب واتى مغرم بها . وليس أبعد عن الحقيقة من هذا الاتهام وهاءنا على أتم اهبة لاثبات قولى فلتكن أنت وسيطاً بينى وبين وزارة لندن وإن لك من الصلة

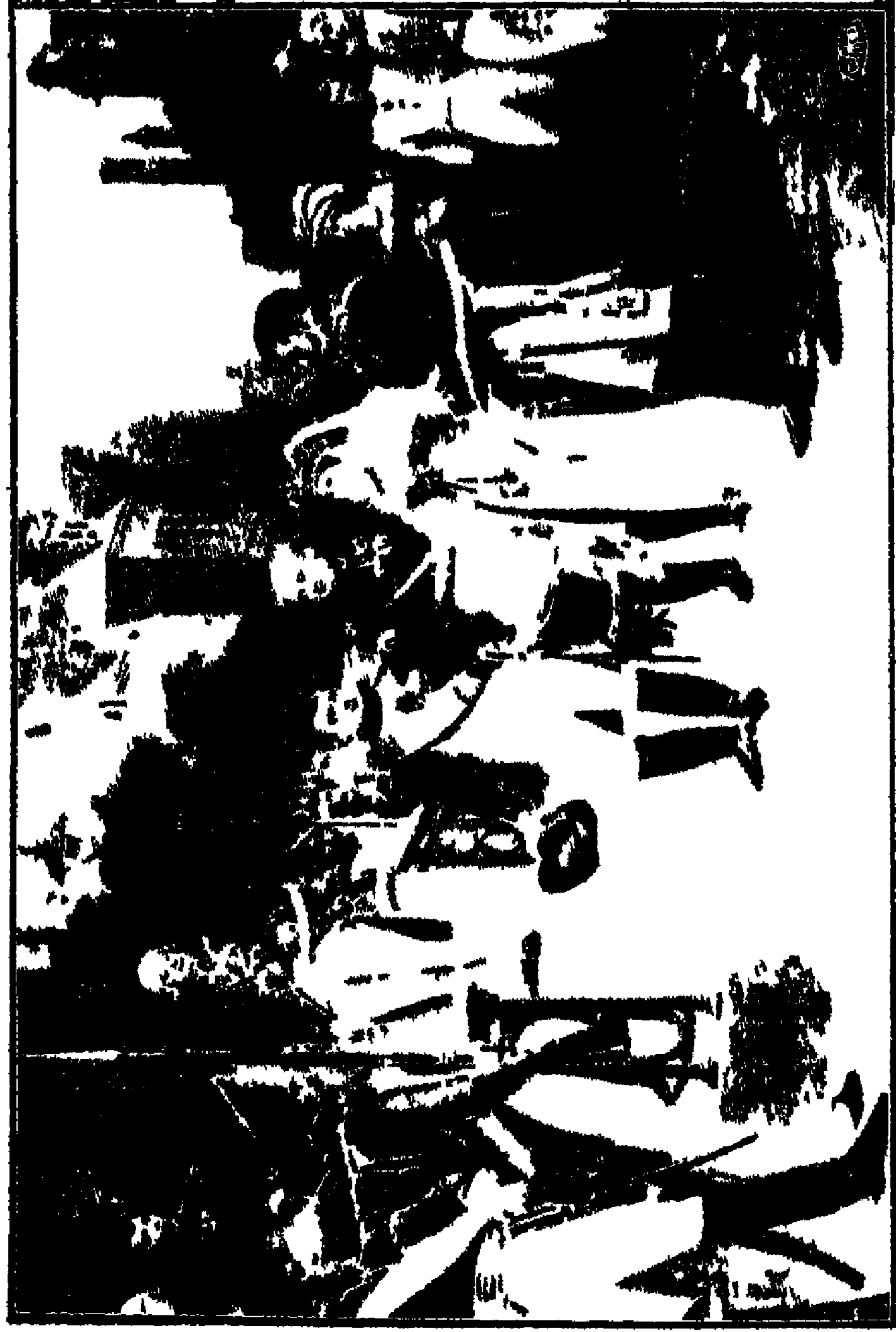
بانجلترا بحكم كونك حليفها ما يؤهلك للوقوف هذا الموقف بيني وبين الانجليز واني مستعد للتخلي لهم عن مالطا في نظير اعترافهم بفتوحى بعد صلح اميان . ولكن لا بد لهم من التخلي بدورهم عن مستعمرات حلفائى (اسبانيا وهولندا) التى استولوا عليها وراء البحار . وعند ذلك انزل لهم عن هانوفر . فما رأيك فى هذه الشروط ؟ الست تراها عادلة منصفة ؟ وهل فى استطاعتى ان اقبل غيرها ؟ وهل يحق لى ان اتخلى عن حلفائى ؟ واذا كنت انا اريد التخلي عن فتوحى فى قارة اوربا لا كفل لحلفائى عودة املا كههم اليهم اكون هناك ادنى مجال للشك فى اعتدالى واستقامة نواياى ؟ !

فاذا رفضت انجلترا هذه الشروط فلا بد من حملها على قبولها إذ ليس من الصواب أن تظل ترمى على رأس العالم شواظ هذه الحروب . وان لدينا من الوسائل ما يمكننا من إرغامها على قبول الصلح . فاذا أبت الرفض هذه الشروط فأعلن للعالم انضمامك إلى فرنسا . وصرح بأنك ستضم قواك إلى قواها حتى يتحقق السلام فى اوربا . ولتعلم انجلترا بذلك أنهم افوق حربها مع فرنسا ستكون فى حرب مع قارة اوربا بأسرها : مع الروسيا وبروسيا والدنمرك والسويد والبرتغال وهى الدول التى تتحتم عليها الطاعة

إذا نحن أفضينا بأرادتنا إليها . ولن يكون أمام النفس غير هذه السيل إذا هي رأت أنها لا بد لها من الانضمام إما إلى إنجلترا وإما إلى صفوفنا وعند ذلك لا ترى إنجلترا مفرا من إلقاء السلاح . وسأكون أنا بدورى وسيطا بينك وبين السلطان . فإذا رفض قبول الشروط المعقولة التي أعرضها عليه فآني أنضم معك على الأتراك وعند ذلك نقوم بتقسيم الإمبراطورية العثمانية التقسيم اللائق . »

وهكذا تم الاتفاق بين العاهلين على أن يكون أحدهما صاحب الكلمة في الغرب ويكون الآخر صاحب الكلمة في الشرق ! أما بروسيا فلم يبق لها بعد عملية التشذيب التي أجراها لها نابليون الانصف أرضها فقد اقتطعت منها في الغرب مملكة وستفاليا وفي الشرق غران دوقية وارسو التي اعطيت لملك ساكسوني . وذلك بخلاف ما فرض عليها من الغرامات الفادحة التي ارهقت خزائنها وبخلاف تحديد عدد جيشها بأربعين الف لا تجوز الزيادة عليها بحال من الأحوال .

وأحست الملكة لويزا ان وجود زوجها إلى جانب القيصر ونابليون لم يحول هذا الجبار عن عزمه بالنسبة لوطنها وكانت لها ثقة غير محدودة في فتنة جمالها وسحر كلامها . فذهبت تجرب حظها



نابليون مع ملكة بروسيا في تلسنت

هى الأخرى لعل مواهبها الخلافة تعوض على بلادها تلك النكبات
التي أوشكت أن تتردى فيها بسببها . فقصدت إلى تلست
ولكن يظهر ان قدومها جاء متأخرا نوعا فان اساس الاتفاق
كان قد ابرم بين القيصر ونابليون ورسمت خطته النهائية . ولم تعد
الوساطة مجدية على احد نفعا على الرغم من تفنن الملكة في
التأثير على نابليون وفي كسب رضاه

ولقد كتب نابليون في تلك الفترة إلى جوزفين يقول له
« إن ملكة بروسيا لامرأة فتانة حقا وهى ذات ولع بملاطفتى
والتودد إلى ولكن إياك ان تغارى منها . فأنت تعرفينى كالقماش
« المشمع » الذى تتزلق عليه امثال هذه الأشياء دون ان تبلله او
تخترق نسيجه على انى اعرف ما اتكبد من الخسائر الفادحة لو
انى رضيت ان ابادلها شيئا من مجونها ! »

وهكذا اخفقت « الأمازونة » حتى فى ميدان العواطف :
وكانت الصدمة قاسية على اعصابها حتى انها لم تنج من تأثيرها .
وماتت فى ميعة صباها دون ان تبلغ الخامسة والثلاثين .

الباب الثالث : النظم القارى وآثاره

الفصل الأول — اثر النظام فى سياسة نابليون

الفصل الثانى — اثره فى ولايات الباي

الفصل الثالث — اثره فى البرتقال

الفصل الرابع — حكومة اسبانيا

الفصل الخامس — رواية تاريخية

الفصل السادس — الحملة الاسبانية

الباب الثالث

النظام القارى وآثاره

الفصل الأول

أثر النظام فى سياسة نابليون

يعتبر المؤرخون صلح تلمست نقطة انقلاب فى تاريخ نابليون لأنه ظل منذ نشأته مضطرب الصعود والتقدم إلى أن بلغ تلك المنزلة التى بلغها حوالى سنة ١٨٠٧ وهو يوزع التيجان على أهله وأنصاره ويتحكم فى عروش أوروبا وملوكها ولكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الأولى عقب هذا الصلح . وكان ذلك بسبب تلك السياسة الجبارة التى أراد اتباعها لاذلال إنجلترا والقضاء على سطوتها بحصر موانئها واغلاق الموانئ الأوربية فى وجهها .

ولقد كانت إنجلترا فى الواقع خطراً حقيقياً على نابليون

فانها لم تذقه طعم الراحة منذ انبرت لصراعه وهدمه ومن الممكن الرجوع في توقيت هذا الصراع إلى حصار مدينة تولون التي تعارف الغريمان حول أسوارها — ولقد حاول نابليون استرضاءها والعمل على التصافى معها عدة مرات في كل مناسبة من المناسبات اللائقة ولكن ذهبت جهوده في ذلك إدراج الرياح . ولم يكن يلقي منها إلا الاستهزاء به والسخرية من نواياه والاصرار على مناوآته وزعزعة بنيانه . فلم يعد أمامه إلا أن يساجلها هذا الكفاح وحاول أن يجمع لها كل ما يستطيع جمعه من القوى البحرية ولكن موقعة « الطرف الأغر » حطمت سفنه وآماله . فلم يبق له وقد وقف وقفة الدفاع الشرعى عن نفسه أمام عناد انجلترا وإصرارها على القضاء عليه إلا أن يتناول هذا السلاح المسموم ليضرب به ضربته الأخيرة .

ولكنه وهو يحاول ذلك اصطدم بأكبر قوتين في المدينة الأوربيه وهما — الكنيسة الكاثوليكية — والروح القومى — وكان هذا الاصطدام فاتحة سقوطه وانهيأر امبراطوريته .

الفصل الثاني

أثره في ولايات البابا

كان تنفيذ النظام القارى يستتبع حتما نشر سلطان نابليون على شواطئ القارة الأوربية بأكملها لأن بقاء دولة واحدة على ولائها للانجليز يكفى لتسرب المتاجر الانجليزية عن طريق شواطئها إلى قلب القارة ويفسد تدبير نابليون . فحرص نابليون على أن لا يترك منفذاً واحداً في كل أوربا أمام السفن البريطانية تستطيع الوصول منه إلى داخلية البلاد الأخرى ومن هنا يتبين لك اتساع نطاق هذا العمل والجهود الجبارة التى يستدعيها إحكام تنفيذه .

وقد تمكن نابليون فى بادىء الأمر من الاتفاق مع روسيا والنمسا وبروسيا والدنمرك وإيطاليا وإسبانيا على اتباع نظامه واستبشر هو بهذه البداية . ولم يخرج على هذا الاجماع فى كل أوربا إلا السويد فى الشمال وولايات البابا ومملكة البرتغال فى الجنوب .

فأما السويد فانه جازاها على هذا العصيان باطلاق يد القيصر فيها ليفعل بها ما يشاء فلم يتردد القيصر في انتهاز هذه الفرصة السعيدة وبادر باحتلال فنلندا التي كان يطمح إلى اجتلالها منذ زمان لبسط نفوذه على بحر البلطيق .

وأما البابا فانه لم يشأ أن يشترك في ذلك النزاع الغيف القائم بين انجلترا و نابليون ورفض أن يعرض مصالح شعبه ورفاهيته لتلك الأزمات القاسية التي تنجم حتما عن اتباع هذا النظام الذي أراد أن يفرضه عليه نابليون . ولم تكن للبابا في نظر نابليون تلك القداسة التي يكنها لمقامه الديني العالي سائر الناس لأنه لم يكن يعتبره إلا ككبير أساقفة روما ولم يكن يسيغ احتكار قس إيطاليا لعضوية جمعية الكرادلة . وكان ينوى أن يجعل لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها . ولكنه رأى أن يبدأ بمهاجمة الخبر الأعظم باحتلال ولاياته فدخلتها الجيوش الفرنسية في أوائل سنة ١٨٠٨ . ولما وقعت الحرب في العام التالي (سنة ١٨٠٩) بين النمسا و نابليون ودخل نابليون فينا للمرة الثانية أصدر قراراً منها بالغاء سلطة البابا الزمنية وضم ولاياته إلى فرنسا نهائياً . ثم أوحى إلى عماله بالقاء القبض على البابا نفسه فاعتقلوه وحملوه

إلى سجن في بلدة سافونا بقرب جنوا . وعند ذلك أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية ودفع مرتب البابا وتأييد الأعمال الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بنفذه السياسي . وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوي الى باريس . ولم ير البابا من سلاح يجيب به على اعتداء نابليون عليه إلا أن يصدر مرسوماً بحرمانه من الرحمة . فأصبح القسس في كل البلاد الأوربية يخصصون بعض أوقات تسييحهم واستغفارهم لاستمطار اللعنات على رأس نابليون الأول « عدو الكنيسة » « وعدو الله » .

الفصل الثالث

آثره في البرتقال

أما البرتقال فهي تلك السهول الزراعية الواقعة على مصبات أنهار أسبانيا وكان ينتشر فوق حقولها الخضراء ثلاثة ملايين فلاح في الدرك الأسفل من المدنية والفهم لا يكادون يعرفون من أمر دنياهم أكثر مما يجب عليهم دفعه لحكومتهم الغاشمة من الضرائب . وكانت حكومتهم في يد أسرة براجانزا القديمة صاحبة الأملاك الواسعة في البرازيل (أمريكا الجنوبية) . وكانت السيطرة في أسواق البرتقال للتجار الأنجليز بقدر ما كانت السيطرة في حكومتها للنفوذ الانجليزي^(١) فأرسل نابليون إلى هذه الحكومة مذكرة يطلب إليها فيها أن تغلق موانئها في وجه السفن الانجليزية وأن تصدر في الحال كافة المتاجر البريطانية التي في أسواقها . فلم يكن من

(١) وكان على حكومة البرتقال في ذلك الوقت ملكة محلة الموى العقلية

اسمها ماريما وكان القائم بالامر عنها ابها يوحنا .

البرتقال إلا أن حولت هذه المذكرة إلى وزارة إنجلترا لتتولى الرد عليها بما تشاء .

وعاد الرد من لندن بأن البرتقال توافق على إعلان الحرب على إنجلترا كما توافق على إقفال الموانئ البرتغالية في وجه المتاجر الانجليزية ولكنها ترفض مصادرة البضائع الانجليزية . وكان معنى ذلك فتح الباب لمفاوضات جديدة تستغرق وقتاً آخر تستفيد منه الوزارة الانجليزية في تصريف شئونها حسب ما يستجد من الظروف .

وكأما أدرك نابليون ما يدور بخلد الانجليز . فعول على غزو البرتقال من فوره وبغير انتظار ولكنه رأى أن لا سبيل له إلى ذلك دون اشتراك اسبانيا معه لأن جيوشه لا بد لها من اختراق الأراضي الاسبانية للوصول إلى غايتها ولأن اسبانيا لا ترضى بتقديم هذه المعونة لنابليون من غير أجر تتقاضاه .

وكانت اسبانيا قد أغضبت نابليون عليها لأن وزيرها الأول جودوا (Godoz) رأى أن ينتهز فرصة اشتباك نابليون بدول التحالف الدولي الرابع لعمل على التخلص من نفوذه الذي كلف بلاده خسارة أموالها وأبنائها وأسطولها فاجتمع

فى مؤتمر سرى بسفير القىصر فى مديرد ومندوب مملكة البرتقال وقرروا فىما بينهم أن يقوم جودوا بتعبئة الجيش الأسبانى ثم يتربصر لنابليون حتى إذا ما تلقى أول هزيمة على يد التحالف انطلق هو وجيوشه — تساعده جيوش انجلترا البرية — نحو حدود فرنسا الجنوبية لغزوها من هناك .

وقد أصدر جودوا تعليماته الخاصة بهذه التعبئة فعلا . ولكنه فوجئ بأخبار موقعة يينا وانتصار نابليون فيها ذلك النصر الخالد المبين . فبادر إلى الغاء أوامره وسرح الجيش وأخذ يستعد لاستقبال نابليون الاستقبال اللائق به عند عودته .

ولكن أخبار المؤتمر السرى كانت قد وصلت عنها تقارير مفصلة إلى نابليون وهو ما يزال فى بروسيا فعول على الاحتياط للمستقبل باتخاذ إجراءات حاسمة مع بلاط اسبانيا وذلك متى قدر له الفراغ من دول التحالف وكتبت له العودة ظافرا إلى باريس .

فلما عول فى تلك الظروف التى بسطناها على أن يقوم بغزو البرتقال كان فى الوقت نفسه يفكر فى الانتقام من حكومة اسبانيا الغادرة التى قامت تحاول أن تطعنه فى ظهره أثناء انشغاله عنها بدول التحالف الرابع .

وكانت خطته التي أراد اتباعها أن يغرى إسبانيا على الاشتراك معه في غزو البرتغال واقتسامها وذلك ليكفل لنفسه أولاً — إدخال جيوشه في الأراضي الإسبانية وثانياً — لمهد بهذه الشركة سبيل النزاع مع إسبانيا — وقديماً قيل : « الاشتراك أصل العراك » !

وفي معاهدة فونتنبلو السرية (٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧) قبل جودوا مع السرور والغبطة أن يشترك مع فاتح أوروبا العظيم في تلك الحملة البرتغالية وقد ذهب نابليون في التلاعب بعقل هذا الرجل الى أقصى حد من السخرية حين تعهد بأعطائه ولاية كبيرة من ولايات البرتغال الجنوبية لتكون ملكاً خاصاً لشخصه في نظير قبوله الاشتراك في تلك الحملة وتقدم الجنرال جونو Junot الفرنسى فعبرجبال البرانس بخمسة وعشرين ألف جندي ولكنه جد في الطريق حتى أنهك قوة رجاله ولما بلغوا حدود البرتغال لم يكن يقوى واحد منهم على رفع ذراعه . ولكن لحسن حظهم لم يعترض طريقهم من يدعوهم الى القتال . فأن يوحنا - قائم مقام الملكة - ما كاد يعلم بقدوم هذا الجيش حتى عقد مجلس الدولة وقرر مغادرة البلاد هو وأمه المجنونة وبقية أهله اكتفاءً

بأملاك الأسرة الواسعة في البرازيل . ووقف لهم اسطول
بريطاني عظيم ريثما جمعوا أموالهم وأهليهم فركبوا متن سفنه
في يوم عاصف ثم نشر الأسطول بهم قلوعه للرياح .
ودخل جونو عاصمة البلاد كأنه ضيف كريم دون أن يخسر
طلقة واحدة من ذخيرته ولا يكاد يروى التاربخ مثلاً آخر
لهذا التطور العجيب الذي انتقلت فيه أمة بأكملها من يد الى
يد وتعاقت فيها سلطة بعد سلطة بمثل تلك النعومة التي
تتعاقب بها أشباح الأحلام !

الفصل الرابع

حكومة اسبانيا

خليق بنا قبل أن نمضى فى الحديث عن اسبانيا وما فعله بها نابليون أن نبين كيف آلت السلطة فيها إلى يد وزيرها الأول « Godoy » فأصبح يدبر شئونها باسمه ويقيدها بمعاهدات يهرها بتوقيعه الخاص مع وجود ملك لها . وملكة . وولى عهد . وتفصيل ذلك أن الملك شارل الرابع كان رجلاً خليعاً فاجراً فى صباه فأصبح معتوها مخبولا فى شيخوخته . ولم يكن له عمل يقتل وقته به إلا الصيد . فكان يخرج له كل يوم فى الصباح شتاء وصيفا . ولا يعود قبل الظهر فإذا عاد تناول طعام الغداء ثم خرج للصيد من جديد وبقي فى طرادته الى وقت الغروب . وعند ذلك يتقدم اليه جودوا بخلاصة ماتم فى سحابة النهار من شئون الدولة . ثم يأتى وقت الراحة فيذهب الملك لينام على أن يعود فى الغد الى ما كان فيه بالأمس وهكذا دواليك .

أما الملكة لويزا ماريا فكانت أميرة ناپوليتانية يقول عنها بعض المؤرخين أنها لم تكن تمتاز فى شىء عن سكان

منازل الدعارة في أى بلد من بلاد اسبانيا . وكان جودوا في أول عهده جندياً من جنود الحرس الملكى ولكنه كان على جانب كبير من جمال الجسم والمخلقة . وكان رجلاً ذا نزعة شعرية خيالية يستهويه ضوء القمر . وسكون الليل . فكان يقضى وقته متنقلاً تحت ظلال أبراج قصر (الاسكوريال) الملكى وهو يتغنى بصوته الجميل ويوقع على قيثارته أعذب الألحان . فتنبهت اليه الملكة واستدعته إلى حضرتها . فأعجبها . فاستبقته لنفسها . واتخذته أنيساً فى غيبة الملك المتواصلة يسيلها بحديثه وغنائه ثم ما لبثت أن تطورت الصلة بينهما فوضعت الملكة بين يديه زوجها . وحكومتها . وشخصها . وبلغ من خيبة أمل الملك أنه فرح باكتشاف زوجته — « الملكة » — لهذا البطل الذى سيقوم عنه بحمل اعباء الملك ووضع بدوره هو الآخر كل ثقته فيه حتى أنه أطلق عليه اسم « أمير السلم » ، عندما وقع معاهدة « بال » مع فرنسا . ونجح بذلك فى عقد صلح خرجت به اسبانيا من تلك الحرب التى كانت قد تورطت فيها مع رجال الثورة الفرنسية .

وكان لشارل من زوجته ثلاثة أولاد أكبرهم اسمه فردناند وقد جمعت الطبيعة فيه عته أبيه العجوز وتهتك أمه

الفاجرة. ولكنه كان على الرغم من ذلك طموحاً يلتمس عرش اسبانيا لنفسه مادام لا بد لآييه أن ينصرف عن شئون الملك وبذلك نشأت منافسة حادة بينه وبين جودوار بما كان لعلاقة أمه بوزيرها دخل فيها . أما الشعب الأسباني الذي لم يكن يرى في الملك والملكة ووزيرهما الا عصابة من الفجار المبتدلين فقد عفى عن مساوئ الولد وولاه زعامة المعارضة التي أعلنها على حكومته . وبذلك انقسمت البلاد على نفسها فكانت الملكة تريد أن تفرض على الشعب واجب الطاعة لها ولوزيرها بينما كان الشعب يريد أن تنتقل الإدارة الى يد فردناند وهو على ثقة من أن أى تغيير يطرا على الموقف لابد أن يكون تغييراً الى ما هو أحسن .

ولم يشأ جودوار أن يستسلم لما تجرى به المقادير . وأراد أن يسبق الحوادث حتى لا يمكن خصومه من نفسه فتقدم يوماً الى الملكة يتهم فردناند علناً بأنه يحاول دس السم لها . وله . ولآييه الشيخ . ليتخلص بذلك من الحكومة القائمة وليمهد الطريق بين نفسه وبين العرش ، وأحدثت التهمة أثرها المطلوب فأصدر الملك والملكة أمرهما بألقاء القبض على فردناند فاعتقل وأودع في بعض السجون .

وكان فردناند قد نجح قبل ذلك في الاتصال سرا بنابليون
مستغنياً به من عبث أبويه ووزيرهما بمصالح الأمة الاسبانية
والتمس منه في الوقت نفسه أن يشرفه بتزويجه بأحدى أميرات
أسرته لترتبط اسبانيا وفرنسا برابطة النسب فوق ما بينهما
من روابط الصداقة .

واهتم نابليون بهذه الدعوة حتى أنه سعى فعلاً في البحث
عن عروس يحكم بها اسبانيا عن طريق زوجها فردناند . وعلى
قدر سخط الشعب الاسباني على حكومته كان حبه الآن
لأميره الشاب ولنصيره العظيم . فما كادت تصل الى عليه أبناء
اعتقال فردناند حتى أعلن أنها مكيدة دنيئة أراد بها جودوا
إيصال الأذى الى غريمه وقام أهل مدريد بثورة حامية هاجموا
فيها قصر الوزير وحطموا كل ما وصلت اليه أيديهم من أثاثه
وألقوا به من الأبواب والنوافذ ولم ينبج جودوا نفسه من
أيديهم في أول الأمر إلا بأعجوبة اذ فر الى غرفة حقيرة على
السطح ولف نفسه في حصير قديم كان فيها . وبذلك تفادى
غضب الثوار عليه . ولقد بقي في هذا الحصر ليلة كاملة
ومرت به ساعات اليوم التالية الطويلة وهو يكاد يسقط
من الجوع والعطش والاعياء . ولكنه فضل كل هذه المحن

على أن يترك حصنه ويعرض نفسه للهلاك . غير أنه في صباح
اليوم التالي كان قد برح به العطش الى حد جازف معه بحياته
وتسلل من تحت الحصير ياتمس جرعة من الماء .

وأبى القدر إلا أن تذهب سدى كل هذه الجهود المضنية
التي بذلها في سبيل التستر . فأنه ما كاد يطل برأسه حتى تنبه اليه
أحد الحاضرين فتم عليه . ووقعت الواقعة . وانهاال عليه الناس
سبا ولعنا وضربا وركلا حتى وصل إلى الطريق يدور
على جنبيه ولا يسير على قدميه . وقد تمزقت ثيابه وانكشفت
من تحتها جراحه الدامية . ولولا أن أدركته ثلة من الجند
فاختطفته من أيدي جلاديه لكان ذلك اليوم آخر أيامه .
أما الملك والملكة فانهما ما أحسا بجنود نابليون تنسل
الى بلادهم وبروح التمرد تسرى في شعبهم حتى ذكرا خاتمة
قريهما لويس السادس عشر الذي مات على حد المقصلة
وتناديا بوجوب الفرار فلم يقفا للتفكير فيما يأخذان وما
يتركان وطفقا ينهيان الأرض نحو الشاطئ ليركبا أية سفينة
تحملاهما الى أمريكا . ولكن أمرهما لم يلبث أن انكشف
كما انكشف من قبلهما أمر لويس وماري اتوانت
وأعيدا الى مدريد .

الفصل الخامس

رواية تاريخية

دخل (مورا) بجيشه الى اسبانيا تلبية لنداء فردناند .
ولذلك رحب به الشعب ولم يعترض طريقه حتى وصل الى
قلب مدريد .

وكان أول ما عمله الملك بعد ضبطه واعادته أن أصدر
قرارا بعزل جودوا من الوزارة واعتزاله هو من الملك نزولا
على ارادة الشعب الذي يريد أن يرفع فردناند الى العرش .
وكان مورا صهرا لنابليون كما أشرنا الى ذلك من قبل .
وقد حسب أن نابليون انما اختاره للقيام بهذه الحملة توطئة
لتسليمه تاج اسبانيا اسوة ببقية الاصحار والانصار . فلما
نزل شارل عن الملك لابنه بلغ من احتياط مورا لأمره أنه
لم يعترف بهذا النزول ولذلك بقي فردناند دون أن يحصل
على تأييد حلفائه وبادر الملك فرجع في اعتزاله مدعيا أنه
انما أقدم على ذلك بعامل الرغبة في ارضاء نابليون وتحت

تأثير الأكرام الواقع عليه من حزب المعارضة الذى يقوده
ولده :

وهنا بدأت تلك الرواية التى كانت مبعث الحيرة والالاندهاش
فى كل أوروبا والتى ستظل مبعث الحيرة والالاندهاش لكل
من يقرأ التاريخ .

وذلك أن نابليون قد رسم خطته على أن يحصل هو على
عرش اسبانيا لأحد اخوته ولكنه كان يخفى نواياه حتى لا
يعلم بها أحد وحتى يستعين بكتمانها على قضائها وتنفيذها .
فلما سمع بتنازل الملك شارل الرابع عن عرشه لابنه أسرع
إلى Bayonne — بايون — فى جنوب فرنسا وأوحى الى
فردناند بأنه لا سبيل له إلى تثبيت أقدامه على عرشه إلا أن
يقصد اليه ويقدم له بشخصه ولائه وطاعته وأوعز فى الوقت
نفسه الى الملك والملكة وجودوا بأنهم إن كانوا يريدون أن
لا ينتصر عليهم غريمهم فردناند الطائش المغرور فليذهبوا
للقائه فى بايون لىتم الاتفاق بينهم وبينه على ما يكون .

وسار الفريقان كل من طريق . وليس يعلم أحدهم من
أمر الآخر شيئاً — وفى الخامس من شهر مايو سنة ١٨٠٨
التقى نابليون بأفراد العصابة الثانية وعرض عليهم الإقامة

عنده في فرنسا في قصور فخمة يهيؤها لهم ويزودها بكافة وسائل الترف والنعيم وتعهد لهم بأن يقطعهم أرضا واسعة للصيد فيها كما تعهد بدفع مرتبات طائلة تكفل لهم القيام بكل طلباتهم — وذلك في نظير أن ينزل الملك عن عرشه من جديد ولكن لا لفردناند بل لنابليون فلم يكده واحد من الثلاثة يصدق أذنيه لما انطوى عليه هذا العرض من الكرم والتسامح . والحقيقة أن واحدا منهم لم يكن يهمة من تتنون الملك الا أمثال هذه المزايا التي تطوع بتوفيرها لهم نابليون فقبلوا كلامه جذلين . وكتب الملك صك التنازل الجديد .

وعند ذلك أدخل فردناند . فطلب اليه أبوه أن ينخلي عن كل حق له في عرش اسبانيا مينا له أن نزوله عن العرش له وقع باطلا لأنه صدر تحت تأثير الاكراه الذي تنتفى معه الإرادة وتبطل العقود . فسخر منه فردناند وهو يحسب أن نابليون سوف يشترك معه في الاستهزاء بهراء هذا الشيخ ولكنه لم يلبث أن تبين انضمام نابليون الى صف أيه . فقرر على الرغم من ذلك . الاستمسك بحقه الى النهاية مدعيا بأنه هو وارث عرش اسبانيا وأن الشعب قد اعترف به ملكا

عليها وأن ليس في مقدور أحد أن يجعله يتحول عن حقه أو يتهاون فيه . وهنا خشى الفريق الأول أن يكون عناد الولد سبباً في ضياع تلك الأمانى الذهبية التى أحدثها في نفوسهم عرض نابليون . فهجم الملك على ابنه بعصا كانت في يده بينما انفجرت فيه الملكة بأقبح السباب . وفوجئ نابليون بهذه العاصفة المنزلية التى لم يكن يتوقع هبوبها بين يديه . ووقف هنيئة لا يدرى ماذا يصنع بأفراد هذه الأسرة العجيبة ثم ما لبث أن اقترب من فردنانز منبها إياه الى أنه قد جاءته أنباء ثورة تهدد جنوده في مدريد وأنه لا يمكن أن يكون لهذه الثورة من سبب غير جهود حزب المعارضة التى يتولى فردناند رياسته . ورأى فردناند أن ليس لهذا الكلام إلا معنى واحد : وهو اتهمه بمثل ما اتهم به دوق دنجين من قبل . ففترت حديثه . وخارت قواه . وفضل أن ينجو برأسه على أن يعترض طريق نابليون فتنازل عن حقه في الملك لابنه وبذلك خلا الجو من الوالد وولده وخلص العرش لنابليون وفى هذا الصدد تقول دائرة المعارف البريطانية :

ان استيلاء ابن أحد أعيان كورسيكا على عرش اسبانيا وتخلصه من ملوكها البربرون بهذه الطريقة السهلة الزرية

لأحدى عجائب التاريخ الرائعة .

وقد عرض نابليون عرش اسبانيا بعد ذلك على أخيه
« لويس » ملك هولندا ولكن لويس كان أبعد نظراً من
أن يستبدل بعرشه الهولندي الثابت ذلك العرش القلق
المزعزع فاعتذر عن قبوله . وعند ذلك عرضه نابليون على
« يوسف » ملك نابولي وهو عظيم الثقة في أن طيبة يوسف
ودمائه أخلاقه سوف تكفل له عيشاً رغداً بين الاسبانيين .
ولما قبل يوسف أن يتخلى عن عرش « نابولي » جاء دور مورا
في الملك فوهه له نابليون .

الفصل السادس

الحملة الاسبانية

أوضحنا في بعض الفصول السابقة كيف أن نابليون في سبيل تنفيذ نظامه القارى ارتطم بالكنيسة الكاثوليكية وخسر بذلك عطف العالم المسيحى عليه . وسنحاول في هذا الفصل أن نوضح كيف أنه وهو يحاول الاستيلاء على اسبانيا قد ارتطم بالروح القومية وخسر بذلك كما سبقت لنا الإشارة نفوذه . وامبراطوريته . وشخصه .

وذلك أن الاسبانيين ما كادوا يفتحون أعينهم على عرش اسبانيا ويجدون فيه يوسف بونابرت حتى ثارت ثائرتهم عليه وعلى أخيه . وأحسوا بأن نابليون قد خدعهم وسخر منهم وامتهن كرامتهم — وانتشر القسس فى أنحاء البلاد يهيجون ساكنها ويشيرون حاملها حتى أصبحت اسبانيا كلها أتونا مستعرا لا يمكن أن يعيش فيه يوسف ولا تستطيع أن تبقى فيه جنوده .

ولم تكن الحركة التى قامت بها اسبانيا فى هذه الثورة حركة

منظمة لها زعماء وقرادها وأتباعها وأجنادها ولكنها كانت حركة قومية لها في كل قرية مركز . وفي كل جماعة زعيم .. وما دامت النهاية واحدة وهي مطاردة الفرنسيين حتى يجلوا عن البلاد فقد عرف كل فرد واجبه . ولا حاجة بعد ذلك لرسم الخطط أو تنظيم الصفوف .

وربما عيب لأول وهلة على هذه الحركة أنها كانت خلوا من النظام وأنها سارت في حرب الفرنسيين على طريقة الكر والفر . ولكن الواقع أن هذا كان سر نجاحها . فلو أن جيوشا اجتمعت في نظام حربي مألوف وحاولت بذلك طرد الفرنسيين لسهل على نابليون تشتيتهم والاحداق بهم . ولكنهم وهم مبشرون في كل مكان كانوا فوق متناول جيوشه وفي الوقت نفسه كانت جيوشه في متناول ايديهم .

وكان الاسطول البريطاني في تلك الاثناء واقفاً بشواطئ اسبانيا يرصد حوادثها فما هو أن رأى ريح الثورة تهب على أرجائها حتى انحاز الى جانب الثوار فأمدهم بالسلاح والذخيرة وأيدت الحكومة البريطانية تصرف أسطولها بان اخلت سبيل الأسرى الاسبانيين الذين كانوا في قبضتها فكستهم وسلحتهم ثم أطلقتهم على يوسف ورجاله فزادوه ارتباكاً فوق ارتباكهم .

وبعث يوسف الى أخيه يستغيث به ويستنجده ولكن نابليون كان من جهته فى حيرة أشد من حيرة شقيقه . وذلك لأن امبراطور النمسا ما كاد يعلم بما حدث فى أسبانيا حتى تلقى فى روعه أن نابليون شرع ينفذ سياسته التى كانت تضيعها عنه انجلترا وهى أنه ينوى أن يسقط كل ملوك أوروبا عن عروشهم ويولى عليها أقاربه حتى لا يعيره أحد بنشأته وحتى يكون بين ملوكها أعرقهم أصلاً وأقدمهم تاريخاً . فكان ذلك سبباً فى قيام الحكومة النمساوية بتعبئة عامة جندت فيها ما يقرب من سبعمئة ألف نفس حشدتها على حدودها . علم نابليون بذلك فراعاه الأمر وحاول عبثاً أن يقنع النمسا بالعدول عن هذه الخطة فليجأ الى المفاوضة ثم الى الطلب ثم الى التهديد ولكن النمسا بقيت على رأيها فى وجوب الاحتفاظ بهذا الجيش العظيم « للدفاع عن نفسها اذا اقتضت الظروف » . وفى هذه الظروف الحرجة كان يتلقى نابليون استغاثة أخيه فيكتنى بأن يعده بقرب إرسال المدد ويعود فيعالج موضوع انقاص السلاح مع النمسا لعله يستطيع بذلك أن يتفق معها فيتمكن من سحب جيش من جيوشه المرابطة عند « اتحاد الرين » ويبعث به الى اسبانيا .

وأخيراً اضطر عشرون ألف جندي فرنسي كان يقودهم دييون « Dupont » في جنوب اسبانيا الى التسليم للشوار عند بايلن « Baylen » وبلغت أنباء هذه النكبة . نابليون فـكـاد يصعق في مكانه لانه كان يدرك مغزى هذا التسليم وما سيحدثه في روح أعدائه المعنوية من التشجيع وكان الى جواره وهو يقرأ الخبر وزير خارجيته فلما رأى ما طرأ عليه من الاتقباض والتخاذل خشي عليه وسأله :

— هل تحسون جلااتكم بشيء من التوعك ؟ فاجابه نابليون :

— لا !

— هل أعلنت النمسا الحرب ؟

— حبذا لو كان ذلك كل شيء !

— اذن ما الذي حدث ؟

فأفـضـى اليه نابليون بتسليم دييون ثم قال :

— لا جناح على الجيش ان ينكسر ويدحر . فالحرب سجال

يوم لك ويوم عليك . أما أن يستسلم الجيش فيلقى سلاحه

طائعا بين يدي عدوه فذلك هي الوصمة التي لا يمحوها الدهر

إن الشرف لا يجبر كسره . وستكون آثار هذه النكبة أبعد

مما تصل اليه الظنون ؟

وقد صحت فـراسة نابليون فان يوسف لم يستطع البقاء بعد هذه الضربة في مدريد فأخـلاها وانسحب نحو الشمال ونزلت حملة بريطانية بقيادة السير آرثر ولسلي (دوق ولنجتون فيما بعد) إلى لشبونة . واشتبكت مع جونو في معركة عند مدينة « فييرو » « Vimiero » فانهزم جونو وخلا الجوأمام الانجليز .

عند ذلك لم ير نابليون بدأ من الظهور في الميدان بشخصه لعله يصلح مافسد على يد Dupont و Junot ويعيد يوسف إلى مدريد ولكنه كان يعرف أن النمسا إنما تنتظر مثل هذا الظرف لتفتح الطريق أمام تلك القوات الهائلة التي كانت تعدها وتدريبها كل يوم على الحدود . فلم يشأ أن يبرح فرنسا قبل أن يتخذ لهذا الأمر عدته . ويحتاط لانقلاب خصومه عليه .

وانتهى به التفكير إلى أن يعد في قلب أوروبا — عند مدينة أرفرت — لقاء آخر مع صديقه القيصر يعيد به إلى الأذهان ذكرى لقاء تـلست ويلقى به الرعب في قلب كل من تحدته نفسه بالقيام عليه في أثناء غيبته .

واقرب اليوم السابع والعشرون من شهر اكتوبر سنة

١٨٠٨ — وهو اليوم المحدد للقاء ارفرت — وأعد له نابليون من مظاهر العظمة ما يجعله كفيلاً بأحداث الأثر المطلوب منه. فدعا إليه كافة ملوك أوروبا وأمرائها ونبلائها الخاضعين لنفوذه. وأمر بأن ينزل الجميع في ضيافته حتى يتم له الظهور عليهم جميعاً بمظهر الزعيم المسيطر. وتم اللقاء بينه وبين حليفه في جو مليء بحسن التفاهم والصفاء. وجدد كل واحد لصاحبه عهوده الأولى ومواريثه القديمة. فكرر نابليون اعترافه بحق امتلاك القيصر لفنلندا من السويد. والبغدان والافلاق من تركيا. وزاد على ذلك أنه يفكر في الزواج بأحدى أميرات أسرة رومانوف الروسية. فرحب القيصر بهذه الفكرة. وأكد له بدوره أنه على استعداد دائم للدفاع عن مصالح فرنسا وزاد على ذلك أنه يتعهد بمساعدته إذا ما أعلنت النمسا الحرب عليه.

وطابت نفس نابليون لهذه الوعود. واطمأن قلبه وطلب أن تنشر وتذاع في كافة أوروبا ليقف عليها الجميع. ثم طار إلى اسبانيا قبل أن تفوته الفرصة. فعب جبال البرانس. وكسر الأسبانيين عند نهر الأبرو. ودخل مدريد. وتمكن في بحر أسبوع واحد من إعادة أخيه يوسف فوق عرشه. ثم علم بنزول

جيش انجليزى جديد الى اسبانيا تحت قيادة سير جون مور .
فأسرع إلى لقائه . ولكن « Moore » كان أحرص من أن يشتبك
معه فى قتال وظل يتقهقر أمامه نحو الشاطئ الشمالى لاسبانيا
ليجتذبه خلفه ويخفف الضغط بذلك على الثوار فى جنوب
اسبانيا فينظموا صفوفهم ويستأنفوا الجهاد .

على أن نابليون لم يلبث أن بلغه أنه قد وقع ما كان يتوقعه .
وأعلنت النمسا الحرب عليه . فلم ير بداً من ترك مور لقائده
سوات حتى يتمكن هو من العودة إلى فرنسا ليستعد لنزول
الميدان الشرقى ضد النمسا من جديد .

وكان نابليون فى تلك السنة قد بلغ التاسعة والثلاثين من
عمره وامتلاً جسمه النحيل نوعاً ما وحسب الناس أن عناصر
الشيخوخة والضعف قد بدأت تدب فيه ولكن عبوره جبال
جواداراما « Guadarama » سعياً على قدميه وهو يتعقب السير
جون مور . وتمكنه من قطع ٢١٤ ميلاً فى جو ديسمبر
العاصف الثلوج فى مدى اثنى عشر يوماً وعودته من بلد الوليد
إلى باريس فى أقل من ستة أيام — كل ذلك كان دليلاً حياً
على أنه مازال يحتفظ بذلك النشاط العجيب الذى يرجع إليه
الفضل فى نجاح معظم خطته الحربية وتفرده فى تاريخ العالم

بتلك المفاجآت التي ماتزال موضع الدهشة عند الجميع .

✽

وسار سولت « Soult » يتعقب الانجليز حتى أدركهم
عد « Corunna » وعند ذلك لم ير مور بدأ من الالتحام
بالفرنسيين فدارت معركة كان مور أول ضحاياها . وبذلك
انسحب رجال الحملة البريطانية إلى سفنهم تاركين جثة قائدهم
في ميدان القتال .

غير أن شجاعة مور وما أبداه من البراعة الحربية في
تفهمه أمام الفرنسيين كان سيأفي تقدير الضباط الفرنسيين
لبطولته . فتولوا عن جيشه وأمتة الاحتفال بدفنه وإقامة
نصب تذكاري أيضاً فوق قبره !

الباب الرابع : التحالف الدولي الخامس

الفصل الأول : حرب النمسا .

الفصل الثاني : طلاق جوزفين .

الباب الرابع

التحالف الدولي الخامس

الفصل الأول

حرب النمسا

خرجت النمسا بعد توقيع معاهدة « كامبو فورميو » (سنة ١٧٩٦) وهي تفكر في نقضها لما أصابها فيها من المهانة . فتسببت بذلك في حروب التحالف الدولي الثاني الذي انتهى معها بصلح « لونفيل » (سنة ١٨٠١) — وفيه تأيدت كافة الشروط التي سبق لنابليون أنه أملاها في كامبو فورميو — ولكنها عادت بعد لونفيل تفكر في الانتقام لنفسها . وكانت بذلك عاملا مهما في تكوين « التحالف الدولي الثالث » الذي انتهى بصلح « برسبورج » وقد خسرت فيه أضعاف ما خسرت في كامبو فورميو .

وبينما كان نابليون يعتقد أنه ألقى على رجاها المسئولين درساً

مقنعاً في وجوب الامتثال كانت هي لا تفكر الا في استعادة شرفها الضائع وكرامتها المسفوكة وظلت ثلاث سنوات طوال وهي لا يقر لها قرار حتى وقعت ثورة اسبانيا وارتبك لها نابليون أشد ارتباك . فأيقنت في نفسها أن انهماكه في ذلك الميدان ومناوأة الانجليز له هناك لن يترك له مجالاً لمقاومة جيوشها في قلب أوروبا كما أيقنت أن هزيمة واحدة تحل بجيوشه الأوربية سوف تكون سبباً في تخلي حلفائه الألمان عنه ودخول بروسيا في الحرب عليه . وأن اعتراض أم القيصر على سياسة ابها وامتعاض أشرف الروسيا من اندفاع القيصر في علاقاته الودية مع نابليون سوف تمحو كل أثر لمقابلتي تلست وإرمرت . فحسبت أن هذه ساعتها التي طال تربصها لها . وكان قد زاد مخاوفها من نابليون ما أشرنا إليه في الفصل السابق من خلع ملك اسبانيا . فثبتت هذه الحادثة عزمها على القيام مرة أخرى لعلها تغسل العار الكثيف الذي تراكت عليها طبقاته منذ ظهر نابليون في أوروبا .

وفي شهر مارس سنة ١٩٠٨ أبرم اتفاق جديد بين الحكومة الانجليزية وأمبراطور النمسا تعهدت فيه إنجلترا بامداد النمسا بالمال للقيام بحملة جديدة ضد نابليون . وأرسل

مندوب الى الباب العالي على جناح السرعة لينبه السلطان الى ما اتفق عليه نابليون والقيصر من تقسيم الامبراطورية العثمانية فلم يتردد الخليفة لحظة في الانضمام الى جانب النمسا ثم ما لبثت أن انضمت الحكومتان الثائرتان في اسبانيا والبرتغال الى هذا الاتفاق أيضاً . وبذلك تألف (التحالف الدولي الخامس) من انجلترا . والنمسا وتركيا . واسبانيا . والبرتغال .

وكان نابليون يطارد السير جون مور في شمال اسبانيا عند ما علم بتحريك النمسا وتأهبها لحمل السلاح في وجهه من جديد فترك قيادة الحملة الاسبانية للجنرال سولت . وهب كالعاصفة على ظهر جواده ينهب الأرض حتى بلغ بايون عند حدود فرنسا الجنوبية ومن هناك استقل عربة حملته الى باريس (١) .

وفي الساعة الثامنة مساءً من يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٠٨ علم نابليون باعلان النمسا الحرب عليه . فلم تطلع عليه شمس . اليوم السابع عشر إلا وهو يشرف على ميدان القتال عند

(١) يقول بعض من رافق نابليون في هذه الرحلة المدهشة أنه كان يقطع

جواده ١٧ ميلا في ساعة

مدينة (دونافرت) على نهر الطونة .

وكان الأرشيدوق شارل صاحب اليد الطولى في إثارة النمسا لدخول هذه الحرب لأنه كان أول مورتور بين مواطنيه من أعمال نابليون . ولأن ما حل يسلاده من الذل إنما حل بها على يديه . فهو الذى كان يقود جيوشها في الحروب الماضية وعلى رأسه كانت تنزل ضربات نابليون . فأعد هذه المرة ثلاثة جيوش جرارة وأوغل بها في قلب المانيا حتى أشرف على حدود فرنسا نفسها . وكانت الجيوش الفرنسية بقيادة برتييه « Berthier » . ولكنه لم يكن نداءً للأرشيدوق فتقهقر أمامه في كل مكان . وهكذا حققت هذه البداية آمال شارل وشجعته على متابعة ضغطه على الفرنسيين .

ولكن نابليون لم يلبث أن وصل في الوقت المناسب . وما كاد يرى ما فعله برتييه بجنوده حتى أخذ ينفذ رساله إلى كافة الجهات التى كانت الجيوش الفرنسية مشتتة فيها لالغاء أوامر برتييه والتجمع في نقطة واحدة ليتسنى مهاجمة كل جيش من جيوش العدو بمفرده بدل الانتشار في خط طويل يكون من شأنه إضعاف جهة الدفاع وتمكين العدو من اختراقه في أية جهة يشاء .

وقد نجح نابليون — بمناورات تعد الوحيدة من نوعها في تاريخ الحروب — من جميع أشتات جيشه المبعثر ثم انقض على جنود النمسا ورجح خمس معارك في خمسة أيام متتالية (من ١٨ — ٢٢ ابريل سنة ١٨٠٩) وكان ختامها ذلك العراك الهائل الذي نشب بالقرب من قرية إكهمل « Ekmuhl » ودارت الدائرة فيه على النمسيين .

ولم تر الجيوش النمسية بعد إكهمل إلا أن تخلي الميدان لنابليون فارتد شارل بما بقي معه من جيوشه نحو الشمال . وما كاد يراه نابليون يسير في هذا الاتجاه حتى فطن إلى ما سيتعرض له من الخطر . فتألفت عيناه وظهرت على نظراته وإشارات ونبرات صوته نشوة من الفرح ثم قال :

— « الآن وقعوا في يدي ! لقد ضاع جيشهم ! وسنكون في فينا مرة أخرى ، في ظرف شهر واحد ! » .

على أن الحوادث أثبتت أن نابليون كان معتدلاً غاية الاعتدال في تقديره لأنه لم تمض عليه ثلاثة أسابيع إلا وهو نزيل قصر شونبرن « Schönbrunn » في العاصمة النمسية ! ولقد حدث ونابليون يحاصر فينا . ويصب على رأس سكانها جام غضبه وحنقه أن انفتحت أبوابها المواجهة



الامبراطورة ماري لويز

لمعسكره وبرز منها جماعة يحملون علم الهدنة الأبيض . فجئ بهم إليه فاستوضحهم عن خبرهم فقالوا له إن السراى الامبراطورية تواجه مدفعيته مباشرة وقد فر منها الامبراطور وأهله إلا ابنته فقد تركوها على سرير مرضها إذ لم يكن من الممكن نقلها معهم . وانها تتوسل بكرم الفاتح العظيم في أن يعنى مثواها من التدمير . فأصدر نابليون أمره في الحال بتحويل أفواه المدافع عن تلك الواجهة وهو لا يدري أن هذه الأميرة المريضة التى بعثت تتوسل بكرمه وشهامته إنما هى ماريا لويزا التى كتبت له الأقدار أن يطلق جوزفين زوجة صباه ليتزوج بها ويستولدها وارثه الوحيد وولى عهده « ملك روما » .

وكانت النمسا فى هذه المرة تنوى أن تجعل هذه الحرب حرب الحياة او الموت بالنسبة لآمالها مقتدية فى ذلك بالمثل الذى ضربته لها اسبانيا . فلم يؤثر فيها احتلال نابليون لفينا . واكتفت باخلاؤها له بعد أن حطمت كل الجسور القائمة على النهر بجوارها حتى لا يستغلها نابليون فى متابعتهم والحق بهم . ولكنه على الرغم من ذلك عول على عبور النهر وادراك أعدائه قبل ان يتيأ لهم الزمن الكافى لهم شعثهم وتنظيم

صفوفهم . فحاول ذلك في مكان يقع تحت فينا قليلا لأن النهر
تعترضه في هذه البقعة جزيرة طويلة من الممكن ان يستفيد
بها الجيش عند عبوره .

فأقام مهندسو الجيش جسوراً متحركة من الزوارق
المصفوفة وتمكن نابليون بواسطتها من نقل نصف جيشه
تقريباً إلى شاطئ "نهر الطونة الأيسر ولكنه قبل ان يتم ما بدا
فيه قام في وجهه اهالى قريتي اسبرن واسلنج *Aspern et Essling*
فلم يقو على مقاومتهم طويلا وارتد على اعقابهِ إلى الجزيرة
حيث بقى فيها ريثما تتم معدات العبور .

وفي هذا الظرف الدقيق قامت الدعاية الانجليزية بواجبها
خير قيام فأذاعت اخبار هذا الارتداد في كل اوربا على انها
هزيمة منكرة وان نابليون اصبح بعدها سجيناً هو وجيشه
فوق تلك الجزيرة التى يحيط بها الماء وانه لم يبق لالقاء
القبض عليه فيها واسر جنوده معه إلا ان تتآزر بقية دول
اوربا المهضومة الحقوق وتقف إلى جانب الحلفاء .

وفي الحق كانت الساعة رهية لنابليون . وكان هو يحس
بكل ما فى الموقف من حرج ويعلم بأن كل شيء اصبح موقوفاً
على نجاحه او فشله فى عبور النهر والخروج من ذلك المأزق

القيح . فتنبت فيه كل ما احتوته طبيعته الفذة من الخصائص
الخارقة . وأصبحت الجزيرة بفضل جهوده الجبارة في ظرف
أيام قلائل مرتبطة بشاطئ النهر الايمن والايسر على السواء
ارتباطا يجعل الجنود يعبرون من جانب الى جانب كأنهم
يسرون فوق اليابسة من غير أن يكون للماء الذى يجرى
تحت أقدامهم دخل فى حركاتهم .

وفى ليلة واحدة هى ليلة الرابع من شهر يوليه عبر نابليون
النهر بجيشه العظيم . وطلع على جيوش الارشيدوق شارل
مع فجر ذلك اليوم المشهود . ونشبت بين الفريقين معركة
« واجر ام » Wagram الشهيرة التى كانت بدورها ركنا من
أهم الاركان التى بنى عليها نابليون عظمتة الحربية . فقد دارت
رحاها يومين متواصلين لم ير الارشيدوق فى ختامهما بدا من
أن ينسحب بعد أن خلف فى الميدان ٢٤ ألف جندى مابين
قتيل وجريح غير اثنى عشر ألف أخرى وقعت كلها فى أسر
الفرنسيين .

وهكذا انتهت هذه الحرب أيضاً ولم تزد النساء إلا
أحقادا على نابليون . وكانت قد دخلتها لتسترد شرفها وكرامتها
تخرجت منها وقد ضيعت ما تبقى لها من شرف وكرامة ولم ير

الارشيدوق شارل بعد هذه الخيبة المتكررة إلا أن يعتزل الحياة العامة فنزل عن رئاسة المجلس العليا وآوى الى بيته يقضى فيه بقية أيام حياته الالمية . وكذلك سقطت الوزارة القائمة وجاءت وزارة غيرها لم تكن قد قطعت على نفسها تلك العهود الغليظة التى قطعتها للأمة الوزارة السابقة وذلك كي يتسنى لها الاقتراب من نابليون والتفاوض معه على شروط الصلح الجديد . فاستدعى مترنيخ Metternich وزير النمسا المفاوض فى باريس ليشكل الوزارة الجديدة . ولكنه رأى أن لا يبدأ المفاوضة إلا بعد أن ينظر ماذا سيكون من موقف حلفائه الانجليز فى اسبانيا . فان انتصارهم فى ذلك الميدان يكون من شأنه تقوية مركز المفاوض النمساوى ، وكان نابليون على عكسه يخشى كل تأخير فى عقد الصلح لأنه كان يوجس من تأثير البلاط الروسى على القيصر كما كان يوجس من تأثير دعاية الحلفاء على ملك بروسيا — ولكن لحسن حظه مضى الزمن الكافى والقيصر باق على ولائه له . وملك بروسيا متمسك بحياده أزاء هذا التحالف ، وأخيرا وردت أنباء اسبانيا وهى تعلن انتصار الجيوش الفرنسية فى معركة (تلافيرا) " Talavera " وارتداد سير أرثر ولسلي.

بجنوده الى البرتغال — وهناك ضاع آخر أمل للنمسا في عقد صلح مشرف فاستسلمت لنابليون . ووقعت في الرابع عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٠٩ معاهدة فينا وكانت بطبيعة الحال شر ما وقعت من المعاهدات مع نابليون . فأنها خسرت بها نحو خمسين ألف ميل مربع من أرضها ونحو أربعة ملايين من سكانها وانقطعت بعدها انقطاعا تاما عن البحر الابيض المتوسط وعن ألمانيا وبذلك قضى على وجودها السياسى ومركزها التجارى قضاء مبرما . فقد تقرر في شروط هذه المعاهدة أن تنزل النمسا : —

اولا — عن تريستا وكرواتيا وماجاورها من شواطىء بحر الادرياتيک لتتألف من كل ذلك « الولايات الاليرية » وتكون خاضعة رأساً لنابليون

ثانياً — عن نصيبها الذى كانت قد حصلت عليه من بولندا — لينضم الى « دوقية وارسو »

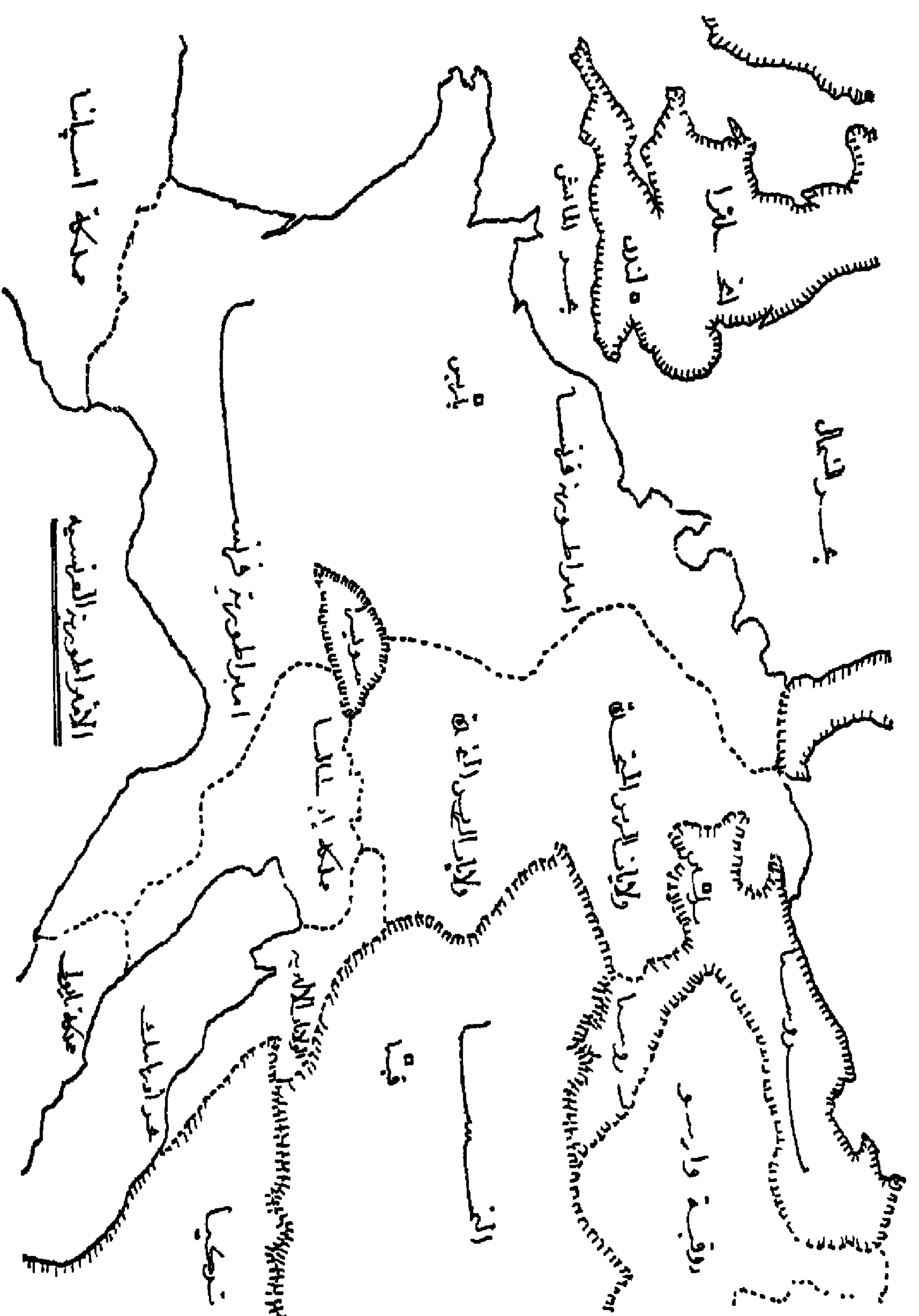
ثالثاً — عن سالزبرج وماجاورها ليستولى عليها ملك بافاريا حليف نابليون

وكانت النمسا قد أفلحت في إحداث ثورة في مقاطعة التيرول (التى ضمها معاهدة پرسبورج إلى ملك بافاريا) فقام

أهلها قومة رجل واحد تحت لواء زعيمهم البطل « أندرو هوفر Andrew Hofer » وأبلوا أحسن بلاء في هذه الحرب ولكن النمسا لم تملك بعد ما حل بها من الهزائم أن تدفع عنهم غضب نابليون فأسلتهم لانتقامه غنيمة باردة . فأعادهم الى حظيرة ملك بافاريا بعد أن نكل بزعمائهم وأعدم بطلهم هوفر رميا بالرصاص .

ولعل معاهدة فيينا تحدد النهاية التي وصلت اليها امبراطورية نابليون من حيث اتساعها وانتشارها فقد كانت تمتد دولته بعدها « من مصب نهر الألب شمالا الى مصب التيرول جنوبا وتضم بين جناحيها العريضين نحو ١٣٠ مقاطعة في ايطاليا وفرنسا وسويسرا ولوكسمبرج وبلجيكا وولايات الرين وبلاد ألمانيا الواقعة على بحر الشمال .

« وكان نابليون نفسه ملك إيطاليا ووسيط المحالفة السويسرية وحامى محالفة الرين التي كان ملوكها جميعا يدينون له بتيجاناتهم . وكان أخوه يوسف ملكا على اسبانيا وأخوه لويس ملكا على هولندا وأخوه جيروم ملكا على وستفاليا وصهره مورا ملكا على نابولي . وكان الملوك والقيصرة



بحر الشمال

جزر لندا

لندا

بحر المانش

باريس

إمبراطورية فرنسا

إمبراطورية فرنسا

الإمبراطورية البريطانية

مملكة إسبانيا

ولايان البحر المتوسط

ولايان البحر المتوسط

مملكة إسبانيا

البحر المتوسط

جزر

دوقية وارسو

نصحاء

مملكة إسبانيا

مملكة إسبانيا

حلفاؤه طوعا أو كرها لا ينازعه منهم في الملك والسلطان
منازع واستمرت الحال على ذلك مدة عامين (مايين ١٨٠٩ —
١٨١١) كان في أثنتهما يهيمن على كافة شئون أوروبا .

وقد كان هذا الملك الواسع سببا في إغرائه بأحداث
وارث من صلبه يرث عنه كل هذه العظمة . وأخذ منذ ذلك
اليوم يفكر تفكيرا جديا في طلاق جوزفين . وقد رأيناه
فعلا يفاوض الاسكندر في إرفرت على الزواج من أسرته .
ولكن أم القيصر ضنت بدماء بيت رومانوف العريقة أن
تتمزج بأسرة المسيو بوناپرت المحامي الكورسيكي فحول
نابليون وجهه شطر أسرة هابسبرج النمساوية وتولى مترنيخ
نفسه مهمة المفاوضة في أمر هذا الزواج وكان نجاحه فيه أول
نصر سياسي أحرزه في حياته العامة لأن نابليون لم يلق خيرا
من بعد هذا القران . إذ اشتبك بسببه في حرب مع روسيا
كانت فاتحة سقوطه . وأخذ بحمه بعدها في الافول .

الفصل الثاني

طلاق جوزفين

كنا قد أثبتنا في بعض الفصول السابقة نص الرسالة التالية التي بعث بها نابليون إلى جوزفين .

« إن رجلا لا تحببته ليس من حقه أن تكون سعادته أو شقاوته موضع اهتمامك . أما عن نفسي فقد جعلت غايتي من هذه الحياة أن أعيش لأحبك . فلا تهتمى بشئون رجل لا يستمد حياته إلا من حياتك . ولو أنني تقاضيت منك أن تحببني بقدر حبي لك إني إذن لفي ضلال مبین ! وهل أنا ان فعلت ذلك إلا كمن يتطلب أن تزن « الدتلا » مثل وزن الذهب ؟ وان الذنب لذنب إذا كانت الطبيعة لم تهين من الجاذبية ما أجذب به قوادك ! ولكن الذي استحقه من جوزفين إنما هو اعتبارها وتقديرها لأنى أحبتها هذا الحب العنيف الفريد ! وأنى فى الساعة التى أعرف فيها أنها لم تعد نحبنى سأطوى على هذا السهم الدامى جناحى وأرضى من هذه

الدنيا بأن أوفق الى تأدية خدمة نافعة لها في أية ناحية من
تواحي الحياة.....

هانا أعيد فتح كتابي لأقبلك ! آه — يا جوزفين !
يا جوزفين ! «

وذكرنا بعد ذلك أن أخبارا غير سارة وصلتته وهو في
في مصر عن سلوك زوجته جعلته يثور ويعلن في حدة وغضب
أنه سوف يطلقها بمجرد عودته من مصر الى باريس « طلاقاً
فاضحاً واضحاً لأنه لا يريد أن يكون اضحوكة العاطلين من
أهل باريس ! «

وذكرنا أيضاً أنه كتب الى أخيه يوسف على أثر هذه
الثورة فقال له :

« لقد ضاق صدري بالطبيعة البشرية . وأصبحت أحس
بالحاجة الى الانفراد والعزلة وسئمت مظاهر العظمة . وجف
نبع عواطفى . وأصبحت وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى
أعاف المجد وأراه فاتراً لا طعم له . لقد سلبتنى يد الدهر كل
أمل . فلم يبق لى إلا شخصى أحيا به حياة الآثرة والانانية
التامة المطلقة ! «

وبيننا بعد ذلك كيف أن لتماماً واحداً تم بينه وبين زوجته

كان كافيا للعودة به الى حظيرة نفوذها فتجدد حبه لها وتأكد عطفه عليها . وعاش معها على ذلك زمانا طويلا الى أن عين قنصلا أولا لمدة حياته . وعند ذلك اتجهت أفكاره اتجاها جديدا وهو الحصول على وارث يرث عنه ملك فرنسا خشية ما يقع بين زعمائها من النزاع اذا ما جاء أجله ولفظ نفسه الاخير وخشية أن تعود البلاد الى ما كانت فيه من الفظائع الداخلية والاضطرابات الخارجية . وقد قويت عنده هذه الافكار وازدادت في نفسه استقرارا عقب رفعه الى عرش الامبراطورية فقد أصبح « ولي العهد » حاجة من حاجات الدولة لا بد من تحصيلها . فتكاثر الناصحون حول نابليون وجلهم من أهله واخوته يشيرون عليه بالطلاق من جوزفين والتزوج بأحدى أميرات البيوت المالكة في أوروبا . وكان هو في أول أمره يصعد عن مشورتهم ولا يستمع لها لأنه كان يعلم أن لجوزفين ولدين من بوهارنيه زوجها الماضي وأنها لم تعقب منه نسلا مما قد يدل على أن العقم منه لا منها . ولكنه بعد صلته بالكوتس واليسكا وغيرها تحقق من أنه يستطيع انجاب « اولياء للعهد » إذا هو تزوج بغير جوزفين زواجا شرعيا رسميا . فبدأت تتخلخل عزيمته في التمسك بزوجته وبدأت تميل أذنه لمقالة من

حوله من أنصار الطلاق .

ولم تكن جوزفين غافلة عن شيء من هذه التطورات. بل أنها كانت ترقبها بمزيد العناية والاهتمام وتعمل جهدها على الاحتفاظ بنابليونها القديم لاسيما بعد أن بلغت ما بلغت من المنزلة السامية بين الفرنسيين بفضل اتبائها إليه واقتران اسمها باسمه ولم تدخر وسعا في التأثير على كل ما كانت تعلم أنه يدعو إلى فكرة الطلاق عند زوجها — وكان يوسف أخو نابليون أشد أهله اتصارا لهذه الفكرة . فكتبت إليه جوزفين يوما من الأيام :

« ان طلاق نابليون سيفسح الطريق لزواج آخر قد يثمر ولدا . فلا يبقى لك معه أمل في الصعود الى العرش ! »
على أن شيئا من هذا الاغواء وأمثاله لم يؤثر في دعوة يوسف أو غيره . وأخيراً بدأ نابليون يرى حيوية الفكرة بالنسبة لصالح فرنسا العام . وأخذت تتجلى له مزايا الاقتران بأحدى أميرات البيوت المالكة العتيقة وكيف أن هذا يكون سببا في انتاج « ولي عهد » تجرى فيه السماء الملكية العريقة . وبذلك يتوطد مركز الأسرة البونابرتية في الحكم وتنقطع حجة خصومه في الطعن على نشأته والتذرع بها لاسقاطه

وهدمه — وربما نشأت عن هذه المصاهرة مع روسيا مثلاً
أو مع النمسا محالفة سياسية يكون من شأنها أن تضع حداً
لهذه الحروب التي أغرقت أوروبا في الدماء ما يزيد على عشرة
اعوام — وهكذا تواترت هذه المغريات على خاطر نابليون
حتى ألغى نفسه في آخر الأمر يميل إلى دعوة يوسف وأمثاله
من كانوا يشيرون عليه بالطلاق . وانتهى إلى الاقتناع بوجوبه
فصحت عزمته عليه ولم يبق إلا الإفضاء بهذه العزيمة إلى
جوزفين لتستعد لها وتوطن نفسها عليها .

ورأى نابليون في بادئ الأمر أن يكل إلى أحد أصحابها
القيام بعمل التمهيد اللازم معها فقصد إلى الكونت لافاليت
وقال له :

« أنى لا أومل أن أرزق من جوزفين ولدا . على أنى لم
أبلغ بعد من العمر ما يحول دول حصولى على ولد . وإن
راحة فرنسا لتقتضى أن اتخذ لى زوجة أخرى . وأن لك من
المنزلة عندها ما يجعلك محل اجلالها واحترامها فهل لك أن
تعد فكرها لقبول الحالة الجديدة التى أوجبته المقادير ؟ »
ولكن الكونت لم تخف عليه دقة الموقف فاعتذر والتمس
من الامبراطور أن يسند هذه المهمة إلى غيره وعبثاً حاول

نابليون أن يظفر بمن يقبل حمل هذه الرسالة الى جوزفين فلم ير بداً من أن يتولى بنفسه ابلاغها هذا الخبر الاليم .

وتحدد اليوم الأخير من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ للأفضاء بهذا النبأ العظيم الى جوزفين . ونما علم ذلك اليها فتضعضت نفسها مقدما وتصدع كيائها وأخيرا حل ذلك اليوم بعد ان تم استعداد نابليون له . وكمل تأهب جوزفين . وعلى الرغم من ذلك كانت تظلل قصر فونتنبلو منذ الصباح كآبة قائمة . كأنما ألهم كل شيء فيه بالغزيرة أن ساعة ستنقض على أهله في المساء . فقضت جوزفين ساعات الصباح وحيدة في مخدعها تنتحب وتبكي . وقضاها نابليون فريدا في مكتبه يفكر ويتأمل . واجتمعا في آخر اليوم على مائدة العشاء . فلم تجر بينهما كلمة ولم تسر بينهما نظرة . وكانت الصحف ترفع كما توضع دون أن تمسسا يد واحد منهما . وأخيراً فرغ هذا الاستعراض الثقيل وانسحب الخدم وتقدم نابليون تعلوه صفرة الموت الى باب الغرفة فأقفله ثم خطا خطوات عسوية متلعشمة نحو جوزفين . وأمسك يدها بأطراف يده المتجمدة ووضعها على صدره وجسمه يختلج من رأسه الى قدمه ثم قال:

جوزفين ! يا عزيزتى جوزفين ! إنك تعلمين مبلغ حبي لك
وانى مدين لك بلحظات السعادة القصيرة التى تذوقتها فى حياتى
..... ان مصيرى يا جوزفين أقوى من إرادتى وان
أعز رغباتى لتطأطأىء رأسها أمام صالح فرنسا »

وكأنما كانت هذه الكلمات آخر ما تستطيع جوزفين
احتماله من آلام ذلك اليوم الموعود . وكأنما كانت تغالب
نفسها طول يومها لتبقى على صوابها حتى يتم تمثيل هذا الفصل
الآخر من تلك الرواية الشاقة فلم يكذب ينثر نابليون بين
يديها هذه الكلمات المبعثرة حتى خارث قواها وضاع صوابها
فانطرحت على الأرض فاقدة الرشده

وزاد ارتباك نابليون فأسرع الى الباب واستغاث بمن
كان حاضرا خارجه . فدحس الكونت دى يومون
« Comte de Beaumont » وأبصر الامبراطورة مطروحة على
الأرض فاحتملها بين يديه يعاونه نابليون وصعد بها الى
الطابق الخاص بها وهى تهذى بين يديهما قائلة :

« أبداً ! أبداً ! إنك لن تفعل هذا ! إنك لن ترضى أن
تقلتنى ! .. »

وطل نابليون يتردد على غرفتها طول الليل مستفسرا عن

صحتها . وكانت ابنتها هورتنس إلى جوارها تعنى بها — أما أوجين فقد استدعى من إيطاليا على عجل وألقت هورتنس رأسها بين ذراعيه وهي تروى له خاتمة أمهما المحزنة . فأسرع أوجين إلى مكتب الامبراطور يستفسر منه عن حقيقة نيته في الطلاق من أمه . فلم يقو نابليون على الإجابة واكتفى بأن أمسك بيد ذلك الشاب المخلص وضغط على كفه . ولكن أوجين تراجع قائلاً :

— إتنى يا مولاي في هذه الحالة لا يسعنى الا الانسحاب من خدمتكم !

فقال نابليون : — كيف ؟! أيرضى أوجين ولدى المتنبى بالتخلي عنى ؟

فأجابه : نعم يا مولاي ! إن ابن السيدة التى لم تعد امبراطورة لا يستطيع أن يبقى نائب ملك ! وسوف أتبع أمى وأعيش معها فى عزلتها وأن من حقها اليوم أن تجد العزاء الكامل فى ولديها !

فامتلات عينا نابليون بالدموع وقال :

— د إنك تعلم يا أوجين القوة القاهرة التى تملى على مثل هذا التصرف فهل بعد ذلك تصر على التخلي عنى . ولئن فعلت

فمن ذا الذى اتخذه ولدا من بعدك ليصون مصالحى ويحقق رغباتى ؟ ومن ذا الذى يشرف على « الطفل » عند غيابى . ولو أننى مت فمن ذا الذى يقوم مقام الوالد له ومن ذا الذى يتولى رعايته وتنشئته » .

على أن جوزفين نفسها أبت فى تلك المحنة التى كانت تعانيها إلا أن تنصح ولدها بالبقاء على عهد نابليون قائلة له : — إن الامبراطور يا ولدى هو ولى نعمتك . وهو لك أكثر من أهلك وأنتك لمدين له بكل شيء فمن الواجب عليك أن تطيعه فى كل شيء ! » .

• • •

وأخيرا حل اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر وهو اليوم الذى حدد لإعلان هذا الطلاق . وقدر « للبهو الأكبر » فى سراى التويلرى أن يشهد هذا المنظر الرائع . منظر نابليون وجوزفين وقد أمسك كل منهما فى يده بورقة سطرت عليها كلمات كان عليه أن يتلوها على رجال الدولة الذين دعوا ليكونوا شهودا على إعلان كل من الزوجين رضاه عن فراق الآخر .

وبدا تمثيل تلك الرواية المحزنة فقام نابليون وأدى دوره بما هو أهله من الثبات والهدوء ثم جاء دور جوزفين فوقفت

والورقة في يدها . وحاولت أن تقرأ ما فيها . ولكنها لما
كادت تلتقي نظرها على سطورها حتى انفجرت بالبكاء فناولتها
لجارها كي ينوب عنها في تلاوتها وألقت بنفسها في مقعدها
وقد غطت وجهها بمنديلها لتلتقي به سكب دموعها ...
وأقبل نابليون على جوزفين بعد الفراغ من تلاوة كتابها
فقبلها ثم أخذ بيدها وسار بها إلى مخدعها . وهناك تركها في
شبه غيبوبة بين أيدي ولديها .

وقضى نابليون تلك الليلة في قصر التويلري . ولما حانت
ساعة النوم أوى إلى فراشه — ذلك الفراش الذي أقصى عنه
زوجته العزيزة المحبوبة . وكان الجهد والأعياء قد أخذوا من
جسمه كل مأخذ فاستلقى على سريره خائر القوى شارد
الفكر — ولم تدم رقدته على هذه الحال طويلا فإنه أبصر
باب غرفته الخاص يفتح ويبدأ ويبدأ وقد بدت منه جوزفين .
فاستوى جالسا . وأقبلت جوزفين نحوه في خطوات سريعة
متعثرة . ولكنها ما قطعت نصف المسافة حتى وقفت فجأة
في مكانها كأنما يحول بينها وبين زوجها السابق حائل . وكأنما
أدركت أن لا حق لها الآن في الاقتراب من فراشه على أنها
ما عثمت أن اكتسحت خواطرها عاطفة واحدة قوية

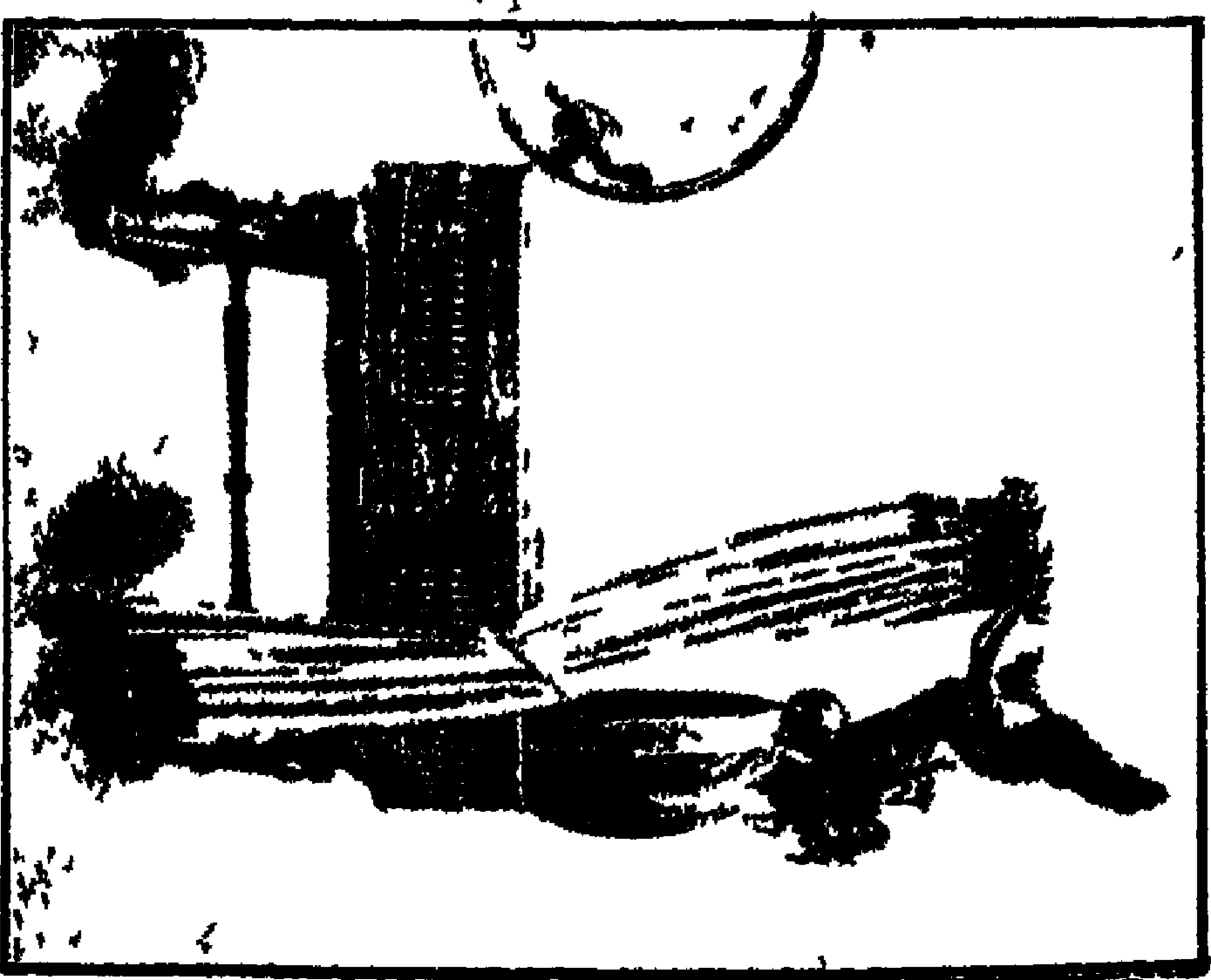
فاندفعت تحت تأثيرها من جديد وطرحت نفسها على السرير .
وطوقت رقبة نابليون بذراعيها وهي تهتف به : « زوجي !
يا زوجي ! » .

ولم يقو نابليون على مغالبة الموقف فامتزجت دموعه
بدموعها وهو يضمها آخر ضمة إلى صدره وظل الزوجان على
ذلك برهة طويلة ثم انسحبت جوزفين إلى مخدعها . ودخل
الخادم على سيده فألفاه مغمورا بأغطيته حتى لا تكاد تبدو
منه جراحة فأطفأ الأنوار وانصرف دون أن ينبس بكلمة .
وقد علم في صباح اليوم التالي من وجه نابليون الباهت وعينه
الفاترتين أية ليلة ألّية قضاها سيده تحت الغطاء !

على أن الصلة لم تنقطع بعد ذلك بين نابليون وجوزفين
— بل بقيت حية قوية حتى بعد زواجه الثاني من « ماري
لويز » ابنة امبراطور النمسا . بيد أن هذا الزواج — على الرغم
من توقع جوزفين له — كان سببا في القضاء على ما بقي فيها
من ذمّاء . ولم يدخر نابليون وسعا في العمل على راحة جوزفين
بعد الانفصال منها . فإنه كان دائم التفكير فيها ولم يترك سيلا
لتخفيف آلامها إلا سلكه . وعلى الرغم من غيرة زوجته



ملك روما
(النسر الصغير)



معهد ملك روما
ابن نابليون من ماري لويز

المجديدة من جوزفين غيرة جنونية فإنه لم يكن يبخل على زوجته الأولى بزيارات محتلسة يزيل بها وحشة نفسها ويدخل بها بصيصا من النور على قلبها المظلم . بل لقد تجاوز في ذلك كل حد حينما طلبت إليه جوزفين أن ترى مولوده الذى وضعته له ماري لويز . فاحتال على ذلك رغم احتياط زوجته ومبالغتها في التحرز من أن يقع هذا اللقاء .

أما حب جوزفين لنابليون فقد تجلى بصورة رائعة بعد هذا الانفصال وما تزال رسائلها إليه بعد الطلاق آية من الآيات التى تقع فى قرارة القلب لفرط ما أودع فيها من روح الوفاء والأخلاص . ولعل الذى أذكرى كل هذا الحب فى نفسها ورفعه إلى تلك المنزلة القدسية البالغة ذلك الزواج الجديد الذى أقدم عليه نابليون . فإنه أثار عواطفها وهز أوتار قلبها . وعلى قدر غيرة ماري لويز من جوزفين كان ميل جوزفين إليها وإلى ابنها « ملك روما » فإن الأولى لم تكن تفهم صلة زوجها بجوزفين بعد الطلاق إلا على أنها عنوان بقاء حبه لها واستمرار تعلقه بها . بينما كانت ترى الثانية فى بقاء هذه الصلة دليلا على أن هذا الزواج الثانى لم يكن إلا زواج ضرورة أوجبه الظروف السياسية ولم تكن ماري نفسها فى نظر

جوزفين إلا أداة لخدمة صالح فرنسا السياسى قبل أن تكون
سدنا لنابليون وموضعا لعطفه أوحبه وبلغ من رعاية نابليون
لجوزفين أنه عندما اقترب يوم زفافه إلى عروسه الجديدة .
أشفق عليها أن تبقى فى قصر المالميزون فتشهد من مظاهر
الابتهاج والسرور ما قد يؤلم نفسها ويجرح عواطفها فأشار
عليها بالانتقال إلى قصر آخر بعيد عن باريس . فقدرت له
جوزفين هذه العناية ونزلت على مشورته .

على أن جوزفين كانت فى الواقع تخفى أكثر مما تبدى
تساميا منها أن يشمت بها الشامتون . وكانت تتكلف ذلك
حتى لا تُنْغَصَ بأحزانها هناء نابليون . وظلت هذه المعركة
النفسية الدفينة تحتدم فى قلبها تحطم أركانه وتقوض بنيانه
أكثر من أربعة أعوام وهى لا تجد ما تمسك به نفسها أن
تفيض إلا ما يحبوها به نابليون من العطف ومظاهر الوفاء .
فلما قلب الدهر لبطلها ظهر المجن . وأدبرت عنه الدنيا بعد
إقبالها . وشاهدته يعتزل الملك ويودعها الوداع الأخير قبل
رحيله إلى جزيرة إلبا لم يبق لها من الأمل ما تحيا به . وانطفأ
سراج حياتها بعد سفر نابليون بنحو أربعة أسابيع .

وقد كان موتها نذيراً بأفول نجم نابليون كما كان زواجها

به فاتحة لأيام سعادته ومجده . فان نابليون وان كان قد أفلح في الفرار من إلبا بعد ذلك غير أنه لم يلبث بعد عودته منها الا ريثما يقضى عليه الحلفاء القضاء الأخير في ووترلو ، فاعتزل الملك للمرة الثانية وعول على الرحيل عن فرنسا وهو يعلم أن لا عودة له إليها بعد هذه المرة . وكانت محيت من ذهنه كل ذكريات ملكه ولم يبق فيه إلا شبح جوزفين . فوقف وسط قصره يتلفت حوله ويقول :

— « كل شيء هنا يهيج في نفسي آلام الذكرى . إن هذه الدار كانت أول ما ملكت . وقد اقتنيتها بكدي وجهدي . لقد كانت دار السعادة والهناء ! أين التي كانت نور هذا المكان وجوهرته . . . يا أسفا . . . لقد غلبني الدهر عليها . وقتلتها المصائب التي نزلت بي ! »

وبقي خيال جوزفين ماثلا أمام نابليون طول مدة نفيه الطويلة في جزيرة سنت هيلانة (١٨١٥ — ١٨٢١) حتى أنه لما اشتد عليه مرضه الأخير كثرت هواجسه عنها وتكرر ذكره لها . وقام ذات يوم قبيل وفاته بقليل ينادى رفيقه مونتلون « Comte Montholon » وهو في سكرات الموت قائلا له وهو يكاد يطير من الغبطة والسرور :

« لقد رأيت جوزفين ياموثلون ، فعانقتي ثم اختفت
فجأة حين أردت أن أعانقها — كانت جالسة على ذلك المقعد
وكأني رأيتها أمس مساء لم تتغير ، بل كانت كما هي شديدة
الميل الى . قالت لي أنا على وشك أن نجتمع ويرى بعضنا
بعضاً لن نفترق بعد ذلك — ولقد أكدت لي ذلك — أفلم
ترها أنت ياموثلون ؟ ! »

الباب الخامس : عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول — النظام القارى .

» الثانى — نهضة بروسيا .

» الثالث — « القرحة الاسبانية » .

» الرابع — انقلاب القيصر وأسبابه .

الباب الخامس

عوامل سقوط نابليون

الفصل الأول

النظام القارى

مهما تشعب تاريخ نابليون وتنوعت حوادثه فهو ما يزال قصة جهاد واحد طويل أساسه منازعة انجلترا والنمسا له فى شرعية سلطته على فرنسا .

فنازيون يقول انه لم يعتد على أحد ولم يغتصب السلطة من أحد ولكنها الظروف والحوادث دفعته دفعا الى ذلك المركز الذى يشغله وأنه قبله نزولا على إرادة الأمة الفرنسية التى دفعته اليه .

وانجلترا والنمسا تقولان أنهما لا تستطيعان قبول الحالة التى أوجدتها فرنسا الثائرة ولا تعترفان بالنظم التى أحدثتها فى داخل حدودها وعملت على نشرها فى أوروبا إضرارا

بمصلح الحكومات القائمة فيها . وأن مبدأ التوازن الدولى
يتعارض مع فتوح الثورة الفرنسية وخطّة التوسع التى يسير
عليها نابليون .

ولم يشأ أحد الفريقين أن يسلم بوجهة نظر الآخر . فلا
نابليون يقبل النزول عن شبر أرض واحد حصل عليه بحد
سيفه وبحق الفتح ولا خصومه يقبلون حكم هذا السيف فيهم
كلما شهره عليهم فكانوا لا يلبثون بعهد الهزيمة إلا ريثما
يتأهبون لقتال جديد — وهكذا تسلسلت بينهم تلك الحروب
المهلكة التى راح ضحيتها مئات الألوف .

ومن البديهي الذى لا نزاع فيه أن نابليون كان كارها
لمعظم تلك الحروب غير راغب فيها . وكانت كل أحلامه
أن يعيش فى فرنسا عيشة سلام وهدوء منصرفا الى تنفيذ
إصلاحاته التى بدت ثمراتها الأولى فى عهد القنصلية ولاغرو
أن تكون هذه ميوله فان مركزه كان كمرکز لاعب الورق
الذى ربح وعمرت جيوبه فهو ضنين بأن ينغمس فى اللعب
من جديد لكى يبقى له ما حصل عليه . ولكن هذا الحلم
الجميل لم يكن ليتحقق له على كل حال والنمسا عن يمينه وانجلترا
عن شماله ودويلات أوروبا الأخرى محيطة بامبراطوريته .

وكلها واقعة تحت تأثير الدعاية البريطانية الدائبة في وصفه بصفات الظلم والاستبداد . والوحشية . والبعد عن الانسانية . إلى آخر تلك السلسلة التي لم يكن لها عندهم من آخر .

وخيل لنابليون يوما من الأيام أنه وفق أخيرا إلى حل لهذه المشكلة المعقدة ، وذلك حينما فكر في الزواج النمساوي ليكسب به النمسا ، وفي النظام القاري ليقضى به على إنجلترا وقد كانت كل الدلائل بعد زواجه بباري لويز تبشر بنجاح فكرته فان النمسا أصبحت حقيقة من بين حلفائه وأنصاره في حين ان إنجلترا بدأت تحس وطأة النظام القاري على مصالحها بشكل جدى أليم . على أن نابليون في الواقع وهو يحاول تغطية مركزه في الغرب بهذه الوسائل قد كشف نفسه للروسيا في الشرق ، فقد كان زواجه من أسرة هابسبرج النمساوية طعنة أصابت كرامة بيت رومانوف الروسي الذي كان ما يزال سفراء نابليون يتفاوضون معه في خطبة أخت القيصر له ، كما أن نظامه القاري الذي فرضه على أوروبا ليقضى به على تجارة إنجلترا كان قاضيا على كثير من دول أوروبا وفي مقدمتها روسيا قبل أن يكون قاضيا على الانجليز أنفسهم وذلك بسبب ما أحدثه في تلك الدول من الضيق الاقتصادي

وارتفاع أسعار الحاجيات .

ولقد بدأت تفتر بسبب هذه العوامل تلك المودة التي نشأت بين القيصر ونابليون في «تلاست» واشتدت أواصرها في «إرفرت» وانهى الأمر بين الحليفتين بحرب طاحنة كانت بداية النهاية في تاريخ نابليون .

على أن عاملا سياسياً جديداً كان قد ظهر في أوروبا قبل ذلك وسرى في أطراف الامبراطورية الفرنسية . فالغم بنيانها على غفلة من نابليون . وما لبث أن نسفها نسفاً وأتى عليها من القواعد . ولم يكن ذلك العامل في الواقع إلا أثر آمن آثر النظام القارى أيضاً . ونعنى به ذلك «الروح القومى» الذى بدأ فى اسبانيا منذ فكر نابليون فى ضمها إلى امبراطوريته ليكفل بها ميدانا جديداً يساعده على إحكام تنفيذ نظامه القارى . فأذا به يفتح فيها على نفسه ميدانا جديداً تتلقى جيوشه فوق ساحته أول نكبة خدشت سمعته . وأطمعت فيه سائر دول أوروبا . وأغررتها بالسير على مثال اسبانيا لتبلغ منه ومن جنوده مثل ما بلغه الاسبانيون .

فأن شئت أن ترجع بعوامل سقوط نابليون إلى أصلها . فأنك لن تجد لها دائماً إلا أصلاً واحداً وهو ذلك النظام

القارى المشنوم : فهو الذى دفعه إلى التدخل فى شئون اسبانيا فكان سببا فى إثارة الروح القومىّ فيها . وهو الذى كان سببا فى الفتور الذى وقع بينه وبين القيصر وانتهى بالحملة الروسية . وهو الذى جمع حوله فى آخر الأمر دول أوروبا كلها فى حرب عامة كان لا بد لها أن تنتهى بما انتهت به من إسقاطه ونفيه .

الفصل الثاني

نهضة بروسيا

كانت بروسيا في مقدمة دول أوروبا التي انتفعت بالثورة
الاسبانية واتخذتها رائدا لها في الاستعداد لقتال نابليون
والتخلص من نفوذه الذي فرضه عليها منذ معاهدة تلس .
وقد تهيأ لها ذلك بفضل جماعة من كبار المصلحين أمثال ستاين
Stein وشارنهورست Scharnhorst وغيرهما ممن كانوا
أساس عظمتها وسر نجاحها في نهضتها .

فأما ستاين فكان رئيسا للوزارة البروسية وقد تأثر
بروح الملكة لويزا في حماسها ووطنيتها ولم يفته ما كان يشكوه
المجتمع البروسي من المساواة الأقطاعية حيث يتمتع
الأشراف بشتى الامتيازات . وينوء الفلاحون تحت مختلف
الاعباء والتكاليف . فرأى أن كل عمل لا يقوم أساسه على
إصلاح هذا المجتمع الضعيف إنما هو عمل مقضى عليه بالفشل
حتما . فلم يتردد في طرح فكرة المقاومة العسكرية جانبا ريثما

يتيسر له النهوض بهذا المجتمع أولا واعداد الأمة نفسها للوقوف في وجه نابليون .

وكان الشعب البروسي حقيقة وراء شعوب أوروبا كلها في نظمه الاجتماعية فأن الفلاحين فيه وهم جمهور الأمة كانوا ما يزالون تبعاً للأشراف في معيشتهم وكان هؤلاء يتوارثونهم في خدمة مصالحهم وفلاحة أرضهم أبناء عن آباء وكان الفلاح السعيد الذي قدر له أن يمتلك شيئاً من الأرض محروماً من حق التصرف في ملكه فبدأ ستاين سلسلة إصلاحاته بأن استصدر في ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ مرسوماً ملكياً بإلغاء تلك العلاقة العتيقة الوراثية التي كانت بين الفلاحين والأشراف وتحرير الملكية العقارية من جميع القيود القانونية التي كانت تحرم ملتزمها من حرية التصرف فيها .

وكان النظام الإداري في بروسيا نظاماً عتيقاً يجعل السلطة في يد المديرين الذين يتصرفون في أقاليمهم كيف يشاءون . فاستصدر ستاين في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ قانوناً لتنظيم الإدارة وتركيز سلطاتها في يد هيئة مركزية تحمل محل وزراء المقاطعات . ثم شرع يفكر في إنشاء مجالس للمديريات لتعويد البلاد على الحكم الذاتي واشتراك السواد الأعظم من الشعب

في الحياة العامة لعله بأن الشعب وحده سناد كل حركة قوية يراد بها الوصول إلى تحريره واسعاده .

أما الجيش فقد عهد ستاين أمر إصلاحه وتقويته إلى زميله شارنهورست وحدث أن أتتصر الأسباب في ذلك الوقت على جيوش نابليون . فود ستاين لو انتهز هذه الفرصة لينخلع عن بلاده نير (الظاغية) . ولكن عيون نابليون وارساده ما لبثوا أن وقفوا على نواياه وضبطوا أحد الخطابات السرية وأطلعوا الامبراطور عليه . فوقع ذلك من نفسه أسوأ وقع وأصر على عزل ستاين من الوزارة البروسية فوراً . فاعتزل الرجل مركزه وسافر إلى النمسا ثم رحل عنها إلى روسيا حيث دخل في خدمة القيصر . بيد أن نابليون لم يكتف بذلك بل فرض على البروسيين ضريبة فادحة مقدارها ١٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وطلب أن لا يزيد جيشهم العامل على ٤٢ ألفا . ولكن الشرارة التي أوقدها ستاين كانت قد دبت في روح الشعب وسرت في عروقه فظلت تتزايد وتنمو في الحلفاء بينما كان هو نفسه في بلاط القيصر يحاول إيقاد نار جديدة تلتهم ملك نابليون . وكانت جهوده في هذا المضمار من بين الأسباب التي باعدت بين القيصر ونابليون

وأدت الى وقوع الحرب الروسية الفرنسية التي كانت نذير انهيار الامبراطورية .

وكان الجيش البروسى يتألف نصفه من الجنود المرتزقة الذين تعوزهم تلك الروح المعنوية التي كانت سببا فى انتصار جيوش كجيوش الثورة الفرنسية على الرغم من سوء نظامها وضعف سلاحها . وقد تنبه شارنهورست إلى هذه الحقيقة فعمل على تسليح أبناء الأمة نفسها عوضا عن استئجار الأجانب للدفاع عنها . وقد كفل هذا الرجل لاسمه الخلود فى عالم البطولة بتلك الخطة التي انتهجها . واحتال بها على تكوين جيش ضخم على الرغم من معارضة مليكه وتحذير نابليون . وبيان ذلك أنه فى الوقت الذى تعهد فيه بأن لا يزيد الجيش البروسى على ٤٢,٠٠٠ كان يدمج فى كل فرقة عاملة نفراً معيناً من الأقليم التابعة له تلك الفرقة ليقضوا شهراً فى خدمة الفرقة يتعلمون سرا فى خلاله أهم التمرينات العسكرية . فإذا انتهت مدتهم حل محلهم غيرهم فى الشهر التالى وهكذا . فكانت الفرقة الواحدة التي لا يزيد عددها الرسمى على ٥٥٠ جندي تحت السلاح تستطيع بهذا النظام أن تضم إلى صفوفها فى بحر ثلاثة أعوام ما لا يقل عن ٢٥٠٠ جندي جديد ممن تلقوا

مبادئ التعليم العسكرى خلصة بين رجالها .
وكان هذا العدد الاضافى المستتر هو الذى مكن بروسيا
فى بداية سنة ١٨١٣ من مفاجأة نابليون بجيش لا يقل عن
٣٥٠,٠٠٠ مقاتل . وكان هذا الجيش بدوره عاملا من أهم
العوامل التى أدت إلى سقوط نابليون .

الفصل الثالث

القرحة الاسبانية

كانت الثورة الاسبانية الحلقة الاولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية التي قضت آخر الامر على الامبراطورية النابليونية القضاء الاخير . وقد رأينا في الفصل السابق كيف أن بروسيا كانت أول دول أوربا التي انتفعت بالمثل الاسباني . ولكن اسبانيا نفسها لم تكن قد آتت دورها بعد بإلقاء هذا المثل على الدول الأوربية فأنها ظلت في صراع متواصل مع جيوش نابليون ولم تنسحب من ميدان الجهاد لحظة واحدة حتى في سنتي ١٨١٠ و ١٨١١ اللتين كانت تتمتع فيهما كافة دول أوربا بسلم نسبي لا عهد لهم بمثلة منذ ظهر بينهم نابليون وانبرت انجلترا لهدمه .

وفي الواقع لم يكن أمام نابليون بعد موقعة واجرام (سنة ١٨٠٩) ما يشغل باله الا حرب اسبانيا . وكان الميدان الأوربي قد خلا من جميع المتاعب الا من هذه القرحة

الاسبانية ، التي ما فتئت تنخر في ظهره وتستنفد موارده .
وقد تضافرت عدة عناصر قوية لاذكاء حماسة الاسبانيين وتقوية
سواعدهم فان القسس الذين لم ينسوا ما فعله نابليون بالبابا كان
لهم أقوى نفوذ في نفسية الشعب الاسباني الكاثوليكي . فلم
يدخروا وسعاً في نشر الدعوة بين أفراده ضد نابليون بينما
كان الانجليز مستميتين في مناصرة الاسبانيين وامدادهم بالمال
والسلاح والرجال لعلمهم بأن الميدان الاسباني هو الميدان
الأوروبي الوحيد الذي بقي لهم لقتال نابليون بعد انسحاب
الفرنسا من الحرب .

وكان السير ارثر ولسلي قائد الجيوش الانجليزية مرابطاً
في البرتغال وقد اتخذها كقاعدة حرية له يغير منها على
جيوش نابليون في اسبانيا من حين إلى آخر حتى لا تثبت
لها في تلك البلاد قدم ولا ترتفع لها بين أهلها كلمة . بينما كان
الوطنيون من أهل اسبانيا قد نجحوا في إقامة حكومة مؤقتة
في الجنوب عند « قادس » يتحدون بقيامها حكومة يوسف
بونابرت .

في سنة ١٩٠٨ سار جيشان فرنسيان أحدهما تحت قيادة
(سولت) وكانت مهمته طرد الانجليز من البرتغال والآخر

تحت قيادة (فيكتور) وكانت غايته القضاء على الحكومة المؤقتة. ورحلتها في الجنوب. لكن ولسلي تمكن من رد سولت ثم توجه نحو فيكتور فالتقى به في تالافيرا وألحق بقوته خسائر فادحة وكان يستطيع أن يتابع انتصاراته لو أن الأسبانيين خفوا لمعوته وضموا جهودهم لجهوده. ولكنهم عجزوا عن تقديم أية مساعدة له. فاضطر إلى الارتداد مرة أخرى إلى وكره في البرتغال.

وفي سنة ١٨١٠ أخذ نابليون يعير هذا الميدان الأسباب شيئاً من اهتمامه فبعث إليه بالمائد (ماسينا) ليدخل البرتغال و«يلقى بالحامية الانجليزية في البحر». ووجه سولت نحو ثوار الجنوب لعله ينجح في أداء المهمة التي عجز عنها فيكتور في العام الماضي.

وكانت الأخبار الأولى التي وردت عن هذه الحملة (في سنة ١٨١١) مشجعة لنابليون فان ماسينا دخل على ولسلي في البرتغال والتحم به في معركة كان النصر فيها حليف صفوفه. لكنه لم يتمكن من تموين جيشه في البرتغال. لذلك ارتد إلى أسبانيا فبعه ولسلي إليها وهزمه بالقرب من «كيوداد رودريجو» كذلك تقدم نحو قادس وهزم سولت في بدايوز Badajoz

وعند ذلك رأى نابليون أن يوحد القيادة الفرنسية فجعل (مارمونت Marmont) قائداً عاماً للجيش المحاربة في اسبانيا والبرتغال . وبذلك قوى مركز الفرنسيين فارتد ولسلي أمامهم ملتجئاً إلى خط دفاعه الذي أقامه في البرتغال .

وفي سنة ١٨١٢ خرج ولسلي من مكنه مبكراً وهو ينوى تشتيت القوات الفرنسية فبدأ بوضع يده على أهم معقل البرتغال الشمالية ثم أسرع نحو الجنوب فاستولى على حصونها الجنوبية ثم انقض على مرمونت في مدينة (سلامنكا) فأوقع الهزيمة في صفوفه . وزحف بعد ذلك على مدريد ففر منها يوسف مرة أخرى وواصل ولسلي تقدمه شمالاً حتى بلغ مدينة « Burgos » برجوس . ولكن الفرنسيين صمدوا له هناك ثم ما لبثوا أن ردوه على أعقابهم وانتهت حملة ذلك العام بما كانت تنتهى به حملة كل عام . وهوارتداد ولسلي إلى خطوط دفاعه في البرتغال واستعداد الفريقين للقاء العام التالى .

وأنت ترى من هذا السجال كيف كانت هذه الحروب الاسبانية ماثراً للشغب وضیعة للأموال والرجال فى الوقت الذى كان نابليون فيه أحوج ما يكون الى الهدوء والتفرغ لتلك المشا كل الجديدة التى كان يخلقها له فى أوربا البلاط القيصرى على نحو ما سنفصله فى الصفحات التالية .

الفصل الرابع

نكول القيصر واسبابه

تكلّمنا في فصل سابق عن القيصر . وألمنا إلمامة قصيرة
بنفسيته وعقليته وقلنا إنه اكتسب قاب نابليون بصفاته . وأنه
كان موضع ثقته التامة منذ التقى به ولكن الأيام دارت
دورتها بين العاهلين العظمين ففرقت من مبولهما ما اتفق
وشعبت من مصالحهما ما اختلف . وأصبح القيصر يرى في
بعض تصرفات نابليون ما لا يرتاح هو إليه ولا يمكن أن
يوافق عليه .

تحريره من سجن

فمن ذلك مثلا تشدد نابليون في معاملة بروسيا بناء على
ما اكتشفه من تأمر حكومتها عليه أثناء غيابه في اسبانيا فان
ذلك لم يكن يرضاه القيصر . أو قل بعبارة أخرى أن القيصر
رجا نابليون أن يخفف من حدته على بروسيا حليفته القديمة

فلم يستطع نابليون اجابة طلبه لاعتبارات سياسية هامة لم يكن يستطيع معها أن يضحى بمصالح فرنسا العامة في سبيل ارضاء ميول القيصر الخاصة

ضم غاليسيا الى وارسو

ومن ذلك أيضاً تقرير نابليون ضم غاليسيا الى وارسو . فان القيصر رأى في هذا العمل تشجيعاً للآمال القومية في بولندا واحياء لتلك المملكة القديمة التي دأبت سياسة دولته بالاشتراك مع النمسا وبروسيا في القضاء عليها منذ نحو نصف قرن — ولقد طلب القيصر رسمياً هذه المرة الى نابليون أن يتعهد بعدم احياء هذه المملكة . وكان طبعياً أن يرفض نابليون مثل هذا الطلب الذي لا يتفق مع مكائنه في أوروبا بوصف كونه بطل الديمقراطية وزعم شعوبها وعدو الارستقراطية وغريم حكوماتها

خزائنه القيصر في سياسته الشرقية

ولقد عاد القيصر بعد ذلك يطالب الى نابليون أن يعترف له بحق الاستيلاء على مصبات نهر الطونة . وكان طبعياً أيضاً

أن لا يتورط نابليون في مثل هذا الاعتراف الذي يجلب عليه على الأقل غضب تركيا . وكان القيصر كذلك يطمح في الاستيلاء على الاستانة نفسها ولكنه رأى من نابليون ما جعله يعتقد أنه سوف يعترضه إذا هو هم ببسط يده نحوها فأضافها الى سجل أحقادها .

مسألة الزواج

وكان من وراء القيصر أمه وحزبها الرجعي الارستقراطي الذي كان يعيب على سليل أسرة رومانوف أن يمد يده لمصاهرة زعيم فرنسا — بلد الثورة التي حررت الفلاحين وهدمت الامتيازات وخرجت بالعبيد عن طاعة مواليهم — وقد استغل هذا الحزب توجه نابليون الى بلاط النمسا لخطبة إحدى اميراته بعد أن قصد سفراؤه بلاط القيصر في ذلك . واعتبروا تصرفه هذا ماسا بكرامة روسيا . فأوغروا صدر القيصر على صديقه القديم .

النظام القارى

وزاد الموقف حرجا ما جره النظام القارى على روسيا من النتائج الوخيمة . فإنه فضلا عما سببه في داخلها من المتاعب

وإغلاء المعيشة كان سببا في أن يستولى نابليون على بعض ولايات ألمانيا الشمالية ليضع يده على شواطئها ومن بينها مقاطعة أولدنبرج . وكان حاكم هذه المقاطعة صهر القيصر فاعتبر إسكندر هذا العمل اساءة موجهة الى شخصه بالذات .

الدعاية البريطانية

ولم تكن إنجلترا غافلة عن كل هذه العوامل التي أضعفت ما بين الحليفين من صلات الولاء والصداقة شيئا فشيئا . بل أنها كانت تعمل في الخفاء على أذكاء نار الخلاف والتهويل في تصوير أعمال نابليون الى أن تيقنت من سريان دعايتها الخطرة في عقل القيصر وعند ذلك برز له رجالها وعمالها يعرضون عليه كل ما في خزائن بلاط سانت جيمس من المال وكل ما تملكه بريطانيا من الأساطيل والجيش ليقوم القيصر بواجبه الدولي في الاشتراك مع بقية أوروبا للقضاء على نابليون وهكذا وضعت بريطانيا الدستورية يدها في يد روسيا القيصرية لتتمكن من هدم « امبراطور الجمهورية الفرنسية » ولقد كانت إنجلترا موفقة غاية التوفيق في سعيها فانها بوهي تكسب حليفا جديدا تضيفه الى عصبيتها كانت في الوقت

نفسه ترمى إلى تخفيف الضغط العنيف الذى بدأت تحسه جيوش اسبانيا وذلك بفتح ميدان آخر فى الشمال تتوزع بينه وبين ذلك الميدان الجنوبي جهود نابليون .

أما نابليون فقد أصبح يرى نفسه على أبواب حرب واسعة الفم توشك أن تلتهم ملكه ولم يكن يرغب فى المسير نحوها خطوة واحدة وهو يعلم أنه ان فعل فأنما يولى ظهره لاسبانيا والبرتغال ودول أوروبا الوسطى التى قد لا تتردد تحت تأثير الدعاية البريطانية أن تقوم فتقطع عليه خط رجعتة الى بلاده . ولذلك أثر أن يتقدم إلى انجلترا نفسها فيعرض عليها الصلح من جديد لعلها أنها سبب كل هذه المتاعب . فاقترح أن تعود أسرة براجانزا الى البرتغال . يسحب جنوده من اسبانيا . ويتخلى عنها هى وايطاليا .

وعلى الرغم من أن هذه المقترحات تتم عن نية نابليون فى العدول عن تنفيذ النظام القارى الا أن انجلترا لم تكن بسبيل التفاهم مع انسان أجمعت رأيها على تخصيص أهلها ومواردها لهدمه وإخلاء الطريق جملة واحدة من منافسته ولذلك رفضت مقترحاته فلم يبق أمام نابليون غير ذلك المركب الحشن — مركب الوماح والاسنة . بعد ان فشل سعيه فى الوصول الى التفاهم بكافة الطرق السلمية .

الباب السادس : التآلف الدولي السادس

الفصل الأول : الحرب الروسية

» الثاني : بروسيا تنتقض على نابليون

» الثالث : لوتزن وباوتزن

» الرابع : الهدنة المشئومة

» الخامس : حرب الأمم

» السادس : انهيار البناء

» السابع : الحلفاء في باريس

» الثامن : النزول عن العرش

» التاسع : وداع فوتتيلو

الباب السادس

التحالف الدولي السادس

الفصل الأول

الحرب الروسية

رفضت إنجلترا الصلح الذي عرضه عليها نابليون . فلم تبق إلا الحرب — الحرب الطاحنة الحاسمة التي تنبأ لها القيصر بأنها ستذهب بتاج أحد الغريمن ولم يبق أمام نابليون إلا أن يدعو إليه حلفاؤه لينصروه في تلك الظروف العصيبة التي هبت فيها ريح الأرستقراطية الأقطاعية تهدد الإصلاح والمصلحين وتنذر بهدم الأنظمة الشعبية الحديثة التي نشرها نابليون في وسط أوروبا . فاذا كان التخصيص قد غلب على هذه الحرب فعرفت في التاريخ باسم : « الحرب الروسية الفرنسية » ، فأن حقيقتها كانت غير ذلك . وكانت في الواقع جديرة باسم آخر أوسع وأعم من ذلك . إذ لم يكن الصراع فيها قائما بين

الجيش الروسية والجيش الفرنسية . ولكنه كان ناشبا بين الارستقراطية والديمقراطية . بين الملوك والشعوب . بين الاستبداد والحرية . بين القيصرية الروسية تناصرها الارستقراطية البريطانية وبين الشعب الفرنسى تؤيده شعوب أوروبا الوسطى — ايطاليا وألمانيا وولايات الرين وپولندا .

استعداد نابليون

وكان المتفق عليه أن يتم اللقاء بين نابليون وحلفائه فى مدينة درسدن عاصمة سكسونيا . فغادر فرنسافى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٨١٢ تصحبه الامبراطورة مارى لوىز . وبدأ يسير موكبه الحافل الفخم بين قرع أجراس الكنائس وعزف الموسيقىات . وفى وسط التصفيق والهتاف وتحت الاعلام وأقواس النصر الى أن بلغ درسدن حيث كان فى استقباله امبراطور النمسا وامبراطورتها وملك بروسيا وملوك ساكسونى وناپولى وبافاريا وورتمبرج وغيرهم وأقام نابليون فى درسدن نحو أسبوعين أتم فيها أهبطه للحرب وحشد فى خلالها من الجند والسلاح والذخيرة والخيول والمثونة ما لم يسبق لأوربا أن شهدت مثله . ولكنه

على الرغم من كل ذلك لم ير أن يبدأ عمله بالزحف على أعدائه
واكتساحهم بتلك القوى الهائلة التي اجتمعت له . وفضل أن
يبدأ كعادته بعرض الصلح على أعدائه . فبعث في هذه المرة
إلى القيصر رسولا هو الكونت ناربون Narbonne ليفاوضه
فيما قد يؤدي إلى حقن الدماء التي توشك أن تسيل . وتحقيق
السلام الذي يوشك أن يتصدع . ولكن الرسول حاول عبثا
أن يظفر بمقابلة القيصر أو أحد من وزرائه . فأنهم أصرروا
جميعا على عدم لقائه . فلما علم بذلك نابليون لم يملك أن صاح :
« لقد تنمر الهر . واستنسر البغاث ! وهكذا يسحب

القدر هؤلاء القوم على وجوههم لتحقيق كلمته عليهم » .
ثم أصدر أوامره للجيش أن تزحف وحداته على نهر
نيمن Niemen حيث حشد القيصر جيوشه . ثم أذاع النشرة
التالية على جنوده :

أيها الجنود :

نحن نبدأ اليوم الحرب البولندية الثانية . أما الحرب
الأولى فقد انتهت عند فريدلند وفي تلست . هناك اقسمت
الروسيا أن تحالف فرنسا محالفة دائمة وأن تحارب انجلترا .
وها هي اليوم تحنت في قسمها علنا . وكأني بالقدر يسوقها إلى

حتفها . فأن خاتمتها قد أذنت بالحلول . فهل حسبت أن الوهن قد تسرب إلينا أم حسبت أننا لم نعد بعد أبطال أوسترلنز ؟
أها تضعنا الآن بين منزلتين . فأما قبول العار وإما خوض ميدان القتال ! ولن يشك أحد لحظة واحدة فيما سنختار . فألى الأمام إذن أيها الشجعان ولنعبر حدود هذه الدولة المتخطرة ونقضى عليها في عقر دارها . »

وفي التاسع والعشرين من شهر مايو خرج نابليون من درسدن ثم ودع زوجته وأسرع الى مينا دانتزج . بينما كانت وحدات « الجيش الأعظم » تتحرك في كل مكان لتلتقي في أرض روسيا حسبما رسم لها نابليون . وكان تعداد ذلك الجيش ٤٢٠,٠٠٠ نفس . وهو عدد لا عهد لأوربا بمثله من قبل . وكان مقسما إلى ١٣ قسم على كل واحد منها ضابط من ضباط نابليون العظام الذين اشتهروا بحسن بلائهم في حروبه السابقة . فكان بينهم دافوت . وناي . وأوجين . وسان سير . وأوجيرو . ومورا . وكان يرافق هذا الجيش حرس نابليون الخاص وهو قوة فخمة منتقاة قوامها ٧٥,٠٠٠ من أقوى أبناء فرنسا وأحسنهم نظاما . وكانت هذه الحملة مزودة بنحو ١٨٧,٠٠٠ حصان و ١٣٦٢ مدفع وكلها أرقام هائلة يسجلها

التاريخ للبرة الأولى في صفحات الحروب الأوربية .
ولك أن تتصور بعد ذلك ما ينبغي من الجهود الجبارة
لتكوين مثل هذا الجيش العظيم في بلاد معادية . وفي عصر لم
يعرف وسائل النقل الحديثة من طائرات وسيارات . بل لم
يكن يعرف حتى السكة الحديدية . ولم يكن من الميسور أن
تسلك كل هذه الجموع طريقا واحدا . وإلا حل البلاء بالمقدمة
قبل أن تنتبه المؤخرة لما حدث . فكان من الضروري أن
تسير جموعها زرافات في جبهة واحدة ولكن على مسافات
متفاوتة تفصل بعضها عن بعض . فلما بلغوا نهر نيمن ألقى
نابليون عليه ثلاثة جسور في جهات مختلفة . وظلت جموع
« الجيش الأعظم » تتدفق فوقها من جانب إلى جانب نحو
٤٨ ساعة متواصلة . ومن ثم سار الجيش إلى « فلنا —
Vilna — فبلغها في ٢٨ يونيه سنة ١٨١٢ . وهناك قضى نابليون
نحو ثلاثة أسابيع يجمع شتات جيشه . ويهيئ له ما هو في حاجة
إليه من المؤن لا سيما في ذلك الفصل الذي يقل فيه العلف .
بحسبك أن تعلم أنه لم ينتصف شهر يوليو حتى كان نابليون
قد خسر ١٠,٠٠٠ حصان ماتت كلها جوعا . بينما اكتظت
مستشفياته بنحو ٢٥ ألف جندي سقطوا كلهم إعياء ولما يشتبك

بالعدو في معركة واحدة — بحسبك أن تعلم هذا لتدرك فداحة العبء الذي كان يحمله في تسير هذه الحملة على الروسيين .

أما القيصر فإنه رأى أن لا مجال لمواجهة نابليون وهو على رأس هذه القوة الهائلة . فأمر أن تنسحب جنوده أمامه على أن تدمر في طريقها كل ما يستطيع أن ينتفع به الفرنسيون . فكانت تهدم المنازل وتخرب القرى وتحرق الغلال وتحمل الأهالي على هجرة مساكنهم ومزارعهم حتى يسير الجيش الفرنسي في بلقع قفر لتفعل فيه الطبيعة ما لم يستطع فعله القيصر ورجاله .

على أن شيئا من ذلك لم يكن ليقف في طريق نابليون فإنه واصل زحفه بدقة يحار فيها المفكرون وبلغ من نظام جيوشه أنها بعد أن عبرت نهر نيمن وتفرقت جموعها سلك كل فريق منها طريقا يختلف عن طريق الآخر طولا ووعورة . وبدأت كل جماعة زحفها في موعد يختلف عن موعد الأخرى تبكيرا وتأخيرا . ومع ذلك اجتمعت كل هذه الوحدات على نهر « الدوينا » حيث قدر لها نابليون أن تلتقي بعد أن تقطع من رحلتها ٣٠٠ ميل . فأشرفت كلها على النهر

في يوم واحد . بل وفي ساعة واحدة من النهار !

تفريغ الروس :

وكان القيصر قد حشد قواه على نهر الدوينا . واستحكم خلفه فحسب نابليون أنه سوف يظفر أخيرا بعدوه الفرّار على ضفاف هذا النهر . ولهذا جمع جيشه هناك واستعد للفتك به . وظل سحابة نهاره يصدر أوامره وتعليماته وبقى هزيعا من الليل ينظم شئون الغد ويدرسها مع ضباطه . ثم دخل عند منتصف الليل إلى خيمته ليستجم نشاطه ويستعد للقاء الصباح

وعند الفجر هب مبكرا على عادته ثم ركب جواده وخرج إلى الميدان . ولكنه دهش إذ رأى أن الروسيين قد أدخلوه في ظلام الليل . وأنهم كانوا يجدون في الأفلات منه بينما كان يجد هو في التهيؤ للقائهم وعلى ذلك تابع زحفه عليهم وتابعوا هم الانسحاب أمامه وهم لا يترددون في إتلاف كل ما صادفهم في طريقهم حتى أشرفوا على مدينة سمولنسك .

مربي سمولنسك .

وللرة الثانية ظن نابليون أن سمولنسك ستشهد الموقعة الأولى بين جيوشه وجيوش الروسيين . ووقف على ربوة عالية تواجه المدينة . وعلى عينيـه منظاره يراقب به تجمع الجنود داخل المدينة وحول أسوارها فتملكته نشوة الفرح لقرب اشتباكه بغرمائه . وصاح في جذل واغتيـاط : « أخيراً ملكتهم ! » .

ودارت في هذه المرة فعلا معركة دامية استمرت سحابة يوم ١٧ اغسطس سنة ١٨١٢ ولم تهدأ ثائرتها كالعادة بنزول الليل على المتقاتلين . ولكن الليل لم يكـد ينتصف حتى ادلهم الجمر بدخان كثيف لم يلبث أن انكشف عن ألسنة عالية من اللهب الساطع . وفي الساعة الثانية صباحا تمكنت طلائع الفرنسيين من دخول المدينة المحترقة فوجدوها خاوية على عروشها إلا من هذه النار التي اضرمتها الروس فيها قبل مغادرتهم لها . وللرة الأولى أحس نابليون وجنوده بشيء من الخيبة في هذه الحرب العجيبة التي لا يكادون يجدون لهم فيها مغنا ما . فاذا وجدوه بعد الجهد أكلته النار منهم قبل أن

تمتد اليه أيديهم . !

وهكذا واصل زحفه تحف به كل ويلات الهزيمة ومتاعبها
وهو الظافر المنتصر والغازي والفاتح - وكانت المرحلة الثانية
مرحلة طويلة شاقة اذ لم يكن أمامه بعد سمولنسك الاموسكو .
وهي تبعد عن سمولنسك بنحو ٥٠٠ ميل وقد علم أن القيصر
ارتد اليها . فلم يجد بدا من الزحف عليها وهو يطمع في أن
يكون دخوله في هذه المدينة آخر مرحلة من مراحل هذه
الحرب المشؤومة التي كان يشاهد جيوشه تفنى في ميدانها الشاسع
الفسيح من الجوع والتعب لا من الطعن والضرب

أما القيصر فانه لم يلبث في موسكو الا ريثما أعطى تعليماته
بوجوب احراق المدينة اذا امتدت اليها يد نابليون ثم أسرع
الى سنت بطرسبرج حيث أمر بان تقام صلوات الشكر في كل
الكنائس على ذلك النصر المتوالى الذى تحرز به الجيوش
الروسية . وبلغ نابليون أمر هذه الصلوات فلم يتمالك أن صاح :
« واهاهؤلاء القوم ! انهم لا يكتفون بالكذب على الناس .
لكنهم يتوقعون بالكذب على الله ! »

جرب الروميا

موسكو
بجورينو

الروميا

سمولنسك

نهر موزينا

قلنا

نهر موزينا

الروميا

كوشنا

جورياتين

موقعة بورودونيو

وكأنما سئم الشعب الروسى سياسة التقهقر. وكأنما خشى أن تفضى هذه السياسة الى اخلاء موسكو امام العدو. واحراقها بين يديه كما حدث فى سمولنسك وكأنما أشفق على تراث الاجداد المركز فى تلك العاصمة القديمة أن تمتد اليه يد التدمير والتخريب. وأن يذهب طعمة للنهب واللبس. فناشد حكومته أن تقلع عن تلك السياسة. وأن تقف لتدفع العدو عن موسكو. وأن لا تمكنه من الوصول اليها. وقويت هذه الدعوة فى البلاد وكثر أنصارها حتى لم يجد القيصر بدامن عزل قواده دعاة الانسحاب والتقهر ليحل محلهم كوتوسوف Kutusow القائد الروسى الأشهر الذى عرف بحسن بلائه فى الميادين الاوربية ضد جنود نابليون. فاستحكم كوتوسوف عند قرية بورودونيو أقوى استحكام وجمع كل ما استطاع جمعه من الجنود والمدافع ليحول دون وصول الفرنسيين الى موسكو مهما كلفه ذلك من التضحيات. وأيقن نابليون بان يوم اللقاء الحق قد حان أخيرا. وأن شوقه الى الاشتباك باعدائه قد

أوشك أن ينطفىء في معركة حاسمة يصب فيها على الروس
جام حنقه لما لاقى بسبيهم من الخسائر والاهوال . فخرش بهم
جنوده في نشرة ملتبهة من نشراته المشهورة . ولم يبق بين
الجيشين الا ذلك الليل المظلم الذي أسبل عليها سدوله فقال
بينهما بضع ساعات أخرى

وكانت تلك الليلة ليلة باردة على غير المعتاد وكان المطر
يهطل فيها بغزارة وعنف . وبات نابليون ليلته يقظان لا
يغمض له جفن إذ كان يخشى أن تعاود العدو نزعته الى الفرار
فيقلت من قبضته من جديد . واحس بانقباض عجب يستولي
على نفسه كأنما وقع عليها شيء من ظل تلك السحابة القائمة التي
أوشكت أن تكشف نجمه الساطع . ومن عجائب المقادير أن
نابليون كان في تلك الفترة متعبا قضى أكثر من ليلة واحدة
وهو لا ينام لانه كان يشكو نوبة برد قاسية وسعال شديد
ووافته في تلك الليلة نفسها أنباء هزيمة جنوده في اسبانيا في
معركة (سلامنكا) وأنباء دخول ولسلي الى مدريد . وكذلك
حمل اليه الرسل في تلك الليلة أن روسيا قد عقدت صلحا مع
تركيا وأن جيشا روسيا قويا هو الآن في طريقه شمالا ليتصل
بجنود كوتوسوف وكأنما أراد القدر أن يتم سخريته في تلك

الليلة فيها لنابليون أن يستلم فيها أيضا خطابا من ماريا لويز
ومعه صورة كبيرة جميلة لصغيره العزيز «ملك روما» فغلبت
عاطفة الابوة على قلبه وخرج والصورة في يده ودعا اليه الضباط
والجنود ليشاهدوها ولكنه ما لبث أن قال لسكرتيه . خذها
بعيدا واحتفظ بها فإنه يشهد ميدان القتال قبل الأوان .

وأشرقت شمس اليوم التالى على نابليون وهو فوق جواده
ومن حوله قواده وأركان حربه . وكان على الرغم من شدة
ما يقاسى لا ينبس قط بما ينم عن آلامه واوجاعه حتى لا يتسرب
الوهن الى نفوس اجناده . واراد فى ذلك الصباح ان يكون على
عادته من الثقة والاستبشار ، فها هو أن رأى قرص الشمس
يرتفع أمامه فى الافق الشرقى حتى صاح فيمن معه :
« أنظروا ! تلك شمس اوسترلتز ! »

وسرت تلك الكلمات المتفائلة المشجعة سريان البرق فى كل
الصفوف فشددت من عزائم الجنود . وملأتهم ثقة بالنصر .
ونشبت تلك المعركة الخالدة الرهيبة التى عرف نابليون أن عليها
يتوقف مستقبله . وادرك الروس ان عليها يتوقف مصيرهم . وطل
ميزانها يترجح بين الفريقين طول النهار الى ان آذنت الشمس
بالأفول . وعند ذلك شوهد الروسيون يفرون تحت جناح

الظلام متقهقرين . وهكذا كتب النصر للفرنسيين . ولكنه لم يكن نصر من ذلك النوع الذي تهتز له القلوب فرحا وتستبشر به النفوس . فان ضحايا الفريقين كانت بالغة منتهى القسوة . إذ خسر الفرنسيون نحو ثلاثين ألف جندي بينما كانت خسائر الروس لا تقل عن خمسين ألف . وعلى الرغم مما قاسى نابليون على يد هؤلاء الروس فإنه لم ييخل على جرحاهم بما كان يحبو به الجرحى الفرنسيين انفسهم من العطف والاحسان وقد حدث اثناء مروره في الميدان بعد المعركة ان مر جواد احد ضباطه على قدم جريح روسى فصرخ الرجل يستغيث فما كان من نابليون الا ان التفت الى ضابطه ووجه اليه قارس اللوم على فعلته وحسب الضابط ان جنسية الجريح قد تكون عذرا مقبولا يشفع له عند الامبراطور فقال: ان الجريح ليس الا احد رجال الروس اعداءنا يامولاى فاجابه نابليون على الفور: « ليس بعد النصر اعداء »

موسكو :

أما كوتوسوف فانه تراجع الى موسكو بما بقي معه من الجند وهو يكتسح في تراجعه كل من صادفه من الالهائى

التعساء ليخلو مساكنهم أمام الفاتحين ومضى ينسف الجسور ويحرق القرى . ولا يبقى على شيء يستطيع الفرنسيون أن ينتفعوا به في أيوائهم أو تموينهم . وبينما كان هو يفعل ذلك خارج المدينة كان رستوبخن Rostopchin حاكما يعد المعدات داخل أسوارها لاحتراقها إذا ما دهمها الفرنسيون .

وفي ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ بدت تحت منظار نابليون للمرة الأولى قباب المدينة وأبراجها العالية فصاح فيمن معه . «هاكم يارفاقى مدينة القياصرة الشهيرة ؟» فأدركت رجاله نشوة طرب كتلك التي تدرك الجواد المكدود وهو يشرف على حظيرة بعد الشقة الطويلة والعمل الآليم . وطابت نفوسهم لقرب دخولهم تلك المدينة التي كانوا يعلمون أنها على الأقل ستكون آخر محطة في رحلتهم الطويلة الشاقة وتركوا لخيالهم العنان يصور لهم ما سوف يلقون فيها من نعيم الإقامة وطيب المأكل وأخذوا يتصايحون ويردد المتأخرون منهم هتاف المتقدمين «موسكو موسكو!» واقربوا من المدينة حتى باتوا على مرمى الهدف منها . ولكنهم فوجئوا بسكون مخيف ينبعث منها كسكون مدائن القبور . وجاء الرسل إلى نابليون ينبئونه بأن المدينة خالية خاوية على عروشها وقد هجرها كل سكانها

الاجماعه من المسجونين فتحت لهم أبواب السجن في آخر لحظة فهم في طرقاتها هائمون كأنهم أشباح الجن وأرواح الشياطين . وراجت إشاعة فحواها أن المدينة ستحترق في منتصف الليل . وأشفق نابليون في أول الأمر أن يواجه تلك المدينة المقفرة فلم يشأ أن يدخلها ونزل في إحدى ضواحيها وترك جنوده تضرب في أطرافها لعلها تجد ما يسد جوعها أو يطفىء ظمأها . وقضى ليلته قلقا لا يقر له قرار فكان لا يأوى إلى فراشه الا ليهب منه فزعا حائقا . فيقطع أرض الغرفة ذهابا وجيئة مرة أو مرتين ثم يعود إلى فراشه وهكذا إلى أن أصبح الصباح فأمر بأن ينتقل مقامه الى قصر الكرملين Kremlin مقر القياصرة العظام في قلب مدينة موسكو . وقضى سحابة النهار في الإشراف على راحة جنوده الذين نزلوا بعد طول المشقة افخم القصور .

وبرز من مخابىء المدينة نحو عشرين ألف روسي ما بين ذكور وإناث فاختلفوا بالفرنسيين . وكان « رستوبخين » قد ألغم الكرملين كما ألغم معظم القصور الأخرى التي كانت تموج الآن بالجنود الفرنسية ووكل إلى هؤلاء المخلفين أمر إشعال النار واحراق المدينة بعد أن قطع أنابيب الماء وأتلف

المساقى وأفسد آلات المطافىء ولم يدع وسيلة من وسائل
النجاة الا اعد العدة لأحباطها .

وانقضى ذلك النهار بسلام وخيم الليل وهبت فيه ريح
عاصفة قوية وكانت معظم ساكنى المدينة من الخشب وكان
المطر قد طال احتباسه . فكانت تلك الأخشاب جافة صالحة
للاشتعال كأنما كانت العناية السماوية هى التى تهى الظروف
للحريق .

مربى موسكو

وأوى نابليون تلك الليلة الى فراشه متأخرا متعباً . ولم
يكن يستطيع أحد بعد ذلك أن يدخل عليه . وعند منتصف الليل
صاح صائح فى المدينة « النار ! » — وشوهدت ألسنة النار
تندلع فى أغنى أحياء المدينة وساعدتها الريح على الانتشار
فى أحيائها الأخرى . وهب الجنود مذعورين من فراشهم
يحاولون اطفاء النار ولكن لم يكن لهم الى ذلك من سبيل
وغلبتهم عناصر الطبيعة الجبارة فلم يبق أمامهم الا الفرار أمام
اللب والانتقام من كل روسى يصادفونه فى الطريق

وفى الصباح قام نابليون وفوجىء بمنظر الحريق فملكته
لأول وهلة نوبة من الغضب والهيـاج وأخذ يقطع أرض

عثرته بخطوات عصبية سريعة وهو ينظر بين آونة وأخرى من النافذة إلى خلال ألسنة اللهب صائحا : « يا له من منظر مخيف ! كل هذه القصور تحترق ! ما أفضع عناد هؤلاء القوم ! »

وظلت النار تأكل المدينة طيلة اليوم ولا تبدلها من دافع حتى حل الليل . وكان نابليون قد وقف نشاطه وهمته على مكافحة الحريق . ولكن عند منتصف ليلة الثامن عشر من شهر سبتمبر شوهدت النار تندلع من قصر الكرملين نفسه . فوقف نابليون لا يريد أن يبرح القصر كأنما عز عليه أن يسلم إلى اللهب تلك الفريسة الغالية التي لم يحصل عليها إلا بعد أن ذاق هو ورجاله الأمرين . ولكن النار طوقت النوافذ وأكلت بعض الأبواب . وخرج الأمر من دور الشجاعة والثبات إلى دور المكابرة والمجازفة . ولم يبق بد من إخلاء القصر في طلب النجاة وكاد يكون التفكير في ذلك قد جاء متأخراً بعد فوات الأوان . إذ لم يجد نابليون عند ما وافق رجاله على الانسحاب طريقاً واحداً آمناً يسلكونه ليصل منه إلى ظاهر المدينة . وكان يشق طريقه أكثر من مرة وسط اللهب والدخان .

وبقيت النار ترعى المدينة بعد خروج نابليون منها يومين فلم تبق على شيء فيها . واستحالت أنخر قصورها وأُثمن كنوزها في وسط اللهب الى دخان ضائع وهباء منشور .

وعاد الجيش الفرنسى يبيت فى العراء بغير طعام . يصطلى فريق منه بحطام الأخشاب الثمينة التى كانت يوما من الأيام آية من آيات الفن . ويتقى البرد فريق آخر بمزق من الحرير الموشى بالذهب . ويأكل آخرون شواء لحوم الخيل الميتة فى صحاف من الفضة . ويموت غير هؤلاء وهؤلاء من الجوع والأرض مرصعة حولهم بأصناف الجواهر واللالىء الثمينة . على أن جناحا من الكرملين نجا من الحريق فعاد اليه نابليون وهو يريد أن يوهم الروسين أنه ينوى قضاء الشتاء فى موسكو ليستأنف الحرب معهم فى الربيع القادم . وظل ينتظر فى جناحه خمسة أسابيع طوال على أمل أن يقنع القيصر بالدخول معه فى مفاوضات للصلح ولكن من ضحى بموسكو لم يكن من المنظور أن يبقى على شيء بعدها فى سبيل الحصول على النصر الحاسم المبين . ولذلك فشلت كل جهود نابليون فى الاتفاق وكان ابطاؤه فى موسكو هذه الأسابيع الخمسة من مضاعفات النكبة التى حلت بجيشه فى هذه الحملة المشثومة .

وعند ما أصدر أمره بالعودة الى بولندا لقضاء الشتاء فيها كانت العواصف الثلجية قد جاء موسمها . واستحالت برارى روسيا وقفارها الى سهل قطبي واحد تغطى صفحته الثلوج .

انسحاب

وبدا الجيش ينسحب من موسكو فى التاسع عشر من شهر اكتوبر ليقطع طريقا طوله ٧٥٠ ميلا وليس به إلا محطتين اثنتين (منسك وسمولنسك Minsk & Smolensk) يستطيع أن يتزود فيهما بشيء من المدد والذخيرة وكان لم يبق لنابليون من « جيشه الأعظم » (وهو نحو ٥٠٠,٠٠٠) الا ١٢٠,٠٠٠ جندى . ورأى الروس أن واجبهم لم ينته بتراجع جيوش العدو عن بلادهم ويبتوا نيتهم على أن يشيعوا الفرنسيين فى انسحابهم كما استدرجوه فى هجومهم بحيث يقضون على كل من تخلف منهم فى الطريق دون أن يتعرضوا للاشتباك معهم فى معركة نظامية يكون الفوز فيها على الأرجح لنابليون وهكذا بدأت سلسلة تلك النكبات التى لم يرو التاريخ لها مثلا . إذ تعاونت الطبيعة مع فرسان القوزاق على قص أجنحة هذه القوة المنكودة التى أصبح نابليون لا يطمع فى أكثر من أن ينجو بأنقاضها من فتك الروسين !

الثلوج :

وجد نابليون في سيره حتى، يتعاضى قسوة الشتاء الداهم ما استطاع . وقطع في العشرة الايام الاولى نحو ثلثمائة ميل ولكن شهر نوفمبر كان قد حل وحلت معه رياحه انصرصر العاتية وأمطاره الثلجية المهلكة وكان النذير الاول في مساء ٥ نوفمبر سنة ١٨١٢ حيث تلبد الجو بالسحب الدكناء واشتد هبوب الريح الشمالية بقسوة لا يعرفها أهل الجنوب . وعند منتصف الليل تفتحت أبواب السماء فوق معسكر الفرنسيين عن وابل من البرد والصقيع أخذت تحته النيران وانطلقت المصاييح وتشتت الجنود تحت تأثير العاصفة وهاموا على وجوههم يلتمسون ما يحتمون فيه فلا يجدون غير الثلوج . الثلوج التي تغوص فيها أقدامهم . . . والثلوج التي تتجمد تحتها أطرافهم والثلوج التي تعشى بها أبصارهم . . .

واخيراً تنفس الصبح . ولكن ألوقا بمن عانوا مرارة الزوبعة لم يتنفسوا معه . بل ظلوا حيث دهمتهم العاصفة لا تتم عن اماكنهم الا كومات عالية من الثلج كان يعرفها الأحياء أنها قباب الطبيعة أقامتها في خلال الليل فوق الأموات .

ولم تطلع شمس ذلك اليوم على الفرنسيين . ولكن طلعت عليهم فصائل كثيرة من القوزاق المتوحشين الذين كانوا يتنافسون وعقبان الجو في التمثيل بكل جريح وطريح من الفرنسيين الذين تخلفوا عن اخوانهم في المسير . وسرعان ما انقضت ساعات النهار القصيرة ودخل الليل الطويل على الفرنسيين من جديد بويلاته وفجائعه . وجددت العاصفة حملاتها على جموعهم فكانوا ينشدون المعونة في جذع شجرة مبتل يحاولون اشعاله ليصطلوا أو في جلد حصان ميت ينزعونه عن جثته ليلتفعوا به . وكان الجنود في يأسهم وبؤسهم يبقرون بطون الخيل السليمة ليفوزوا بشربة من دمها الساخن يدقون به أجسامهم المتجمدة ويشغلون به معداتهم الخاوية .

وكرت عليهم أيام عدة وهم على هذه الحال من التعاسة والشقاء حتى اقتربوا من مدينة سمولنسك حيث كان نابليون قد ترك حامية قوية وأمر بأعداد ذخيرة وافرة . ولكنه ما أشرف على هذه المدينة حتى وافاه البريد من فرنسا وهو يحمل اليه أنباء مزعجة كانت تكفى وحدها لزعة نفسه وهد عزيمته . إذ قرأ فيه أن الجنرال (ماليه — Malet) أحد قواد باريس قد استغل الظروف القاسية التي كان يعانيها هو وجيشه

في وسط روسيا فروج اشاعة هناك مؤداها أنه قد قتل وأن جيشه قد قتي معظمه وأسر باقيه ونادى بنفسه حاكما على فرنسا ودعا الناس إلى الاعتراف بحكومته . فكان وقع هذه الاخبار أشد ايلاما في نفس نابليون من كل ما لاقى من الولايات في تلك الحملة المشثومة إذ رأى بنيسان امبراطوريته ينهار لمجرد إشاعة فاسدة بعد أن ضحى براحته وبصحته وبزوجته في سبيل تقويته وتدعيمه . ومنذ تلك اللحظة عول على الاسراع في العودة الى باريس قبل أن يتفاقم الضرر ويشتد الخطر . ولكنه عز عليه أن يترك الجيش قبل أن يستخلصه من أيدي أولئك الروس العنيدين الذين أدركوا حرج مركز خصومهم وعزموا على أن يكفروا بأهلاكهم عما خربوا وأحرقوا من مدائنهم العامرة الزاخرة .

الماريشال ناي :

وكان نابليون يسير في مقدمة الجيش يشق له الطريق . ويسير الماريشال ناي في مؤخرته يحميه من غارات القوزاق . وقد لاقى هذا البطل المغوار في سبيل ذلك من العقبات والصعاب ما لم يكن يستطيع مواجهته غيره من بقية

قواد الجيش الفرنسى . فقد كان يبضع مئات من الجنود الراجلين الذين لا يملكون غير البنادق يدافع عشرات الآلاف من الروسين المزودين بالخيول والمدافع وكانت له فى ذلك مواقف تكفى لتشريف جيش بأكملة على أن الفضل فيها كلها لا يرجع الا لشخصه وحمته وشجاعته النادرة وكان من آثار اعتراف نابليون بحسن خدماته أن أطلق عليه لقب « اشجع الشجعان »

وكان الجيش قد بلغ الآن فى انسحابه آخر مرحلة من مراحل الأمل فى النجاة إذ كان قد تخلى عن معظم مدفعيته فى الطريق لقلة الدواب التى تجرها ولوعورة السير بها فوق الثلوج . وكان يسير فى بلاد معادية بغير ذخيرة ولا زاد اللهم الا ما يحصله كل جندى لنفسه على قدر جهده واجتهاده واصبح ذلك الجيش المنظم المنسق يسير شراذم شراذم كما تسير قطعان الأوابد فى فلولاتها بغير ضابط وعلى غير هدى

نای ينسحب بفلول الجيش الاعظم من الروسا



نابليون والقوزاق :

ولقد حدث لنابليون ذات يوم وهو يسير في وسط جماعة من ضباطه أن اتبه على صوت صائح يصيح : « الى الورا . القوزاق أمامكم ! » فالتفت فإذا هو منقطع عن بقية الجيش هو ومن معه . وإذا بفصيلة من القوزاق لا يبعدون عنهم أكثر من أربعين خطوة . فثبت نابليون في مكانه وخيل له عناده وكبرياؤه أن لا يفر أمام هؤلاء القوزاق . ولكن ياوره تقدم إليه وأخذ بزمام جواده قائلا :

— « لا بد لك أن تطيع ! »

وكانت محنة الامة تلك التي وقف فيها نابليون يستمع إلى هذه الكلمات للمرة الأولى من فم غير قه ! ولكنه على الرغم من كل ما كان يحيط به من الأخطار ظل في مكانه ولم يطمع نداء ذلك الياور الأمين بل استل سيفه ووقف يحيط به ضباطه شاهري السيوف واقترب القوزاق وهم يجهلون من يهاجمون . وتكاثر الضباط حول الامبراطور يدافعون عنه حتى وصلت طلائع الحرس فتولت الدفاع وتراجع أمام ظهورها جماعة القوزاق .

ولكنها كانت ساعة رهيبة لم ينسها نابليون فقد رأى الموت فيها ماتلا بين يديه . وعرف بعدها أن الحكومة الروسية قد نشرت بين القوزاق صورته وأوصافه حتى إذا ظفر به جماعة منهم عرفوه ولم يتركوه يفلت من أيديهم . فلم ير بداً من أن يحتاط للظروف وأمر أن يعد له طبيب جرعة سامة يلجأ إليها عند الضرورة . ففعل الطبيب وكان نابليون بعد ذلك اليوم يحمل هذه الجرعة في علاقة من الحرير الأسود مشدودة الى خيط يحيط بعنقه حتى إذا دهمه العدو ابتلع ما فيها ولم يمكنهم من نفسه وهو على قيد الحياة .

موقعة البريزينا :

ولقد يطول بنا الحديث إذا نحن أتينا على وصف كل ما وقع لهذه الحملة المنكودة في طريق عودتها . فعن نكتني بما ذكرنا من أخبارها ليكون حاضرا في ذهن القارئ يتصور وقوع مثله في كل ميل من الأميال المائتين الباقية لها حتى تخرج من أرض روسيا . ولكننا مهما تجاوزنا عن ذكر التفاصيل فلا بد لنا من الوقوف قليلا عند نهر البريزينا Beresina نشهد الفرنسيين وقد اعترضهم هذا النهر بعد أن

سبقهم الى ضفته الأخرى كوتوسوف وجيشه الجرار ونستمع
إلى قواد نابليون وهم يشيرون عليه أن ينجو بشخصه حيث
لا أمل البتة في عبور النهر بقواهم المهزولة الجائعة العارية .
وتلك جنود كوتوسوف لا يحصى لها عدد في الشاطئ المقابل
لهم تتربص بعدتها وذخائرها في انتظار أية محاولة من الفرنسيين
للعبور كي تكتسحهم بقذائفها وتلقى بهم في جوف النهر .
ولقد تطوع في تلك الساعة الرهيبة بعض الضباط
البولنديين ليققادوا الأمبراطور في مسالك خفية يعرفونها في
تلك الجهات ليخرجوا به سالما من أرض الروسيا . ولكنه
رفض كل اقتراح من هذا القبيل وأبى إلا أن يشاطر جنوده
كل ما يصيبهم في تلك المحنة التي يجتازونها .
ولجأ نابليون في ذلك الظرف العصيب إلى مواهبه الخارقة
فقام على جانب النهر بمناورات أوهمت العدو أنه يحاول اجتياز
النهر في مكان خاص فما هو أن رأي العدو قد انخدع بحركاته
حتى أسرع بجنوده فعبروا النهر في مكان آخر ولكن الروس
لم يلبثوا أن تبينوا خطأهم وارتدوا إلى الفرنسيين سراعا
فأدركوهم وهم ما يزالون يتسللون فوق جسرين سقيمين أقامهما
لهم من بقى معهم من المهندسين . وكان عدد المقاتلين من

جنود نابليون لا يتجاوزون عشرين ألفا يقابلهم أكثر من
مائة ألف روسي . فليس أعجب بعد ذلك من أن يسمع
الإنسان أن الماريشال ناي يفجأ هذه القوة الهائلة بثمانية
آلاف جندي فرنسي يقتحم بهم صفوفها ويستولي في طريقه
على ستة آلاف أسير !

على أن خسائر الفرنسيين في تلك الموقعة كانت أليمة
قادحة وعلى الرغم من عدم الوقوف حتى اليوم على حقيقة
عدد الضحايا الذين زهقت أرواحهم فيها فإن جانباً من هذه
الخسائر أمكن تقديره وضبطه عند ما حل فصل الربيع وذابت
ثلوج النهر وطففت فوق مياهه اثنتا عشرة ألف جثة فرنسية !
ولم يكد يجتاز نابليون هذه العقبة الأخيرة بمن بقي معه
من جيشه ويرى أنه أصبح على حدود بولندا الشرقية حتى
أسرع في العودة إلى باريس تاركاً رئاسة الجيش من بعده
لمورا ملك ناپولي . وكانت قد وصلت إمدادات إلى الفرنسيين
رفعت عددهم إلى ثمانين ألف جندي غير أن البرد كان قد
اشتد وازداد هوله حتى أصبحت درجته ٦٠ تحت الصفر
بميزان فهرنهايت . ولذلك لم يعبر منهم نهر النيمن أكثر
من ثلاثين ألفاً أما الباقون من « فرقة الحرس » الضخمة

الفخمة فلم يكونوا يزيدون على ثلثائة .
وكان « ناي » آخر من عبر النهر . وآخر من ترك الأرض
الروسية من « الجيش الأعظم » . ففي ذات يوم كان الجنرال
دوماس يجلس في بيت طبيب فرنسي على شاطئ النهر من
جانب ألمانيا عند ما دخل عليه رجل ملتحف بعباءة واسعة له
لحية طويلة كثة ووجه نحيل كادت تختفي ملامحه تحت دخان
البارود الأسود الذي يغطيه . فألقى نفسه على مقعد قبالة
الجنرال وهو يقول :

— « ها أنا أخيرا قد وصلت ! .. ولكن ما بالك يا جنرال
دوماس . ألسنت تعرفني ؟ » .

فخدق الجنرال فيه برهة وهو يعجب في نفسه لأسر هذا
الطارق الجريء الذي يقتحم البيوت على أصحابها بغير إذن
ثم قال :

— « بلى ! فمن أنت ؟ » .

قال — أنا « مؤخرة الجيش الأعظم » — أنا الماريشال
ناي . أطلقت آخر رصاصة معي وأنا على جسر كونو ثم
ألقيت بالبندقية الأخيرة في النهر وحضرت إلى هنا كما تراه
سعيًا على الأقدام . وأنا أسير بين الأحرار والغابات ! »

الفصل الثاني

بروسيا تنتقض على نابليون

يأتى بعض أقزام المؤرخين إلا أن يتحذلقوا وهم يتصدون
للكتابة عن نابليون فبعد أن يتفضل الواحد منهم بالاعتراف
له بالنبوغ فى الشئون الحرية يعود فيتناول على مسند هذا
البلط العظيم مستدركا بقوله : « أما فى الشئون السياسية
والاقتصادية وغيرها فانه كان وراء غيره ممن جرى معه فى
قلبك الميادين »

مع أن سياسة نابليون الاقتصادية كادت تكشف بنجاحها
سياسته الحرية . وليس أصدق حكما فى مثل هذه الأحوال
من الأرقام . فبحسبك أن تعلم أن هذه الحروب المدمرة التى
أثارتها عليه أوربا قد كادت تذهب بما فى خزائنها وتغلق
أسواقها وهى الدول المتحالفة المتكاثفة التى تتمتع بنعمة
التعاون وتنعم بشمرة الائتلاف . فى حين أن نابليون قد أنفق
وحده وفى وسط كل هذه الحروب أكثر من ١٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠

مفرنك على تحسين حال فرنسا ما بين تشييد القصور الفخمة وإقامة الاستحكامات المنيعة وبناء الجسور وتمهيد الطرق وشق الترعر وغير ذلك من وسائل الإصلاح التي كانت موضع الإعجاب عند الجميع . ومثار الدهشة في نظر من يحسنون تقدير الأمور حتى لقد ختم الكونت موليه Conte Molé (وزير مالية فرنسا) بعض تقاريراته بهذه الكلمات الحية التالية التي تصور لك عظمة نابليون في الشئون الاقتصادية أصدق تصوير .

« لو أن رجلا من عصر المديشى أو عصر لويس الرابع عشر قدر له أن يعود إلى هذه الدنيا فبهرته رؤية كل هذه الأعاجيب فتسائل كم جيل من أجيال السلام وكم عصر من العصور الذهبية لا يد أن تكون قد تعاقبت على هذه البلاد لتتعم في ختامها بكل هذه الثمرات لما كان الجواب إلا أنها اثنتا عشرة سنة من سنى الحرب المتواصلة وهمة رجل واحد ! »

والواقع ان هية نابليون وحكمته وحسن إدارته كانت تغطي دائما على ما كانت تجره تلك الحروب على فرنسا من الويلات حتى أنه بعد عودته من روسيا خائبا خاسرا كان يتلقى من مظاهر الثقة به والولاء له ما لم يكن يلقاه إلا الفاتح المنتصر الذي عاد من بلاد الأعداء مثقلا بالغنائم والأسلاب

وكانت البلاد المندرجة تحت جناحي أمبراطوريته الواسعة تتنافس في الأعراب عن تعلقها بشخصه والتفافها حول لوائه. وترى في ذلك أداء منها لبعض الدّين الذي تحس بفضل نابليون عليها فيه . ونجن نورد هنا الخطاب الذي تلقاه الامبراطور من ميلان عقب عودته من روسيا ليكون بين يدي القارىء نموذجاً يطالع فيه صورة من عواطف تلك الدول التي تولى إنشائها وتكوينها فعرفت له هذا الجميل .

« إن مملكتنا يا صاحب الجلالة ليست إلا صنع أيديكم . فهي مدينة لكم بقوانينها . وبمفاخرها . وبرفاهتها . وبطرقها . وبزراعتها . وبرفع شأن فنونها . والحياة الهادئة التي تنعم بها . وأن أهل إيطاليا ليعلمون في وجه العالم أجمع أنه مامن تضحية إلا وهم على استعداد لبذلها في سبيل تمكينكم من اتمام عملكم العظيم الذي ندبتكم العناية للقيام به . وأن الظروف غير العادية لتقتضى التضحيات غير العادية أيضاً وسوف لا تقف جهودنا في التضحية عند حد . فأتم يا صاحب الجلالة في حاجة الى السلاح والجنود والمال والبقاء على العهد والثبات على المبدأ . ونحن نضع كل ما نملك تحت أقدام جلالتيكم ! » .

ولكن هذا الروح الذي كان يثيره حسن صنع نابليون

في بلاد أوربا كان يقابله روح آخر يثيره ذهب انجلترا ووعيد
الحلفاء . فقد كان لانجلترا مندوبون في أوربا كل مهمتهم نشر
الدعاية ضد نابليون بكافة الطرق المشروع منها وغير المشروع
فكانت تتساقط النشرات المسممة بالأكاذيب والمفتريات
ضد نابليون على رموس الناس في كل مكان كأوراق الخريف
وأسرفت انجلترا في حسن الثقة بأقوالها حتى أنها كانت تساوم
في شراء أمم بأسرها بعد أن رأت أن عملية شراء الأفراد عملية
بطيئة لا نحقق في كثير من الأحوال غاياتها . ومرتنيخ نفسه
رئيس الوزارة النمساوية يعترف بأن انجلترا كانت تدفع
للروسيا ١٧٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنكا وتعرض في الوقت نفسه
٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ على النمسا لتغير خطتها مع فرنسا . فلما أحجمت
النمسا عن الاشتراك في هذا الحلف الجديد الذي كان بلاط سانت
جيمس يحاول جمعه ضد نابليون ولت انجلترا وجهها شطر
بروسيا تدفعها دفعا وتثيرها إثارة وتذكرها بما كان بين نابليون
وبينها في الماضي القريب . وتحي في أذهان أهلها صنوف
المهانة التي أنزلها بهم نابليون عندما احتل عاصمة بلادهم
بجيوشه وأثقل كواهلهم بغراماته . واضطهد زعماءهم وتحكم
في مصائرهم . وكان الشعب البروسي من جهة أخرى قد تهيأ

لمثل هذه الدعاية أحسن تهيو على يد ستاين وشارنهورست
كما بينا ذلك في الفصل الثاني من الباب الخامس . وكان ستاين
من جهة ثالثة في بلاط^(١) القيصر يثيره على غريمه الكورسيكى
ويستعديه عليه . فاجتمعت كل هذه العوامل على فردريك ولیم
ملك بروسيا المسلم الوديع الذى كان يناصر نابليون يرجو
رحمته ويخشى عذابه . فلم يحد معها بدا من مسابقة التیار
والتمشى مع ميول الشعب الساخط الذى ينادى بأخذ الثأر
فتورط فى عقد « معاهدة كالیش » مع قيصر روسيا (٢٨
فبراير سنة ١٨١٣) حيث تعهد القيصر بتقديم ١٥٠,٠٠٠
جندى روسى لمعاونة الجيش البروسى فى الأجهاز على سلطان
نابليون فى أوربا .

وفرحت انجلترا فرحا عظيما لما صادفته من النجاح فى
سلخ أحد أنصار نابليون عن دائرة نفوذه . . . وأبت إلا أن
تعزز نصرها هذا بنصر جديد فبعثت بأساطيلها إلى شواطئ
الدانمرك تهددها بالتدمير فى ظرف ٤٨ ساعة إذا لم « تتطوع »

١ يذكر القارىء أن ستاين عادر بروسيا عندما غضب عليه نابليون
ودخل فى خدمة القيصر وكادت له البد الطولى فى تدبير كل ما حل بناپليون
فى الحملة الروسية من المكبات .

بالدخول في هذا التحالف الجديد .

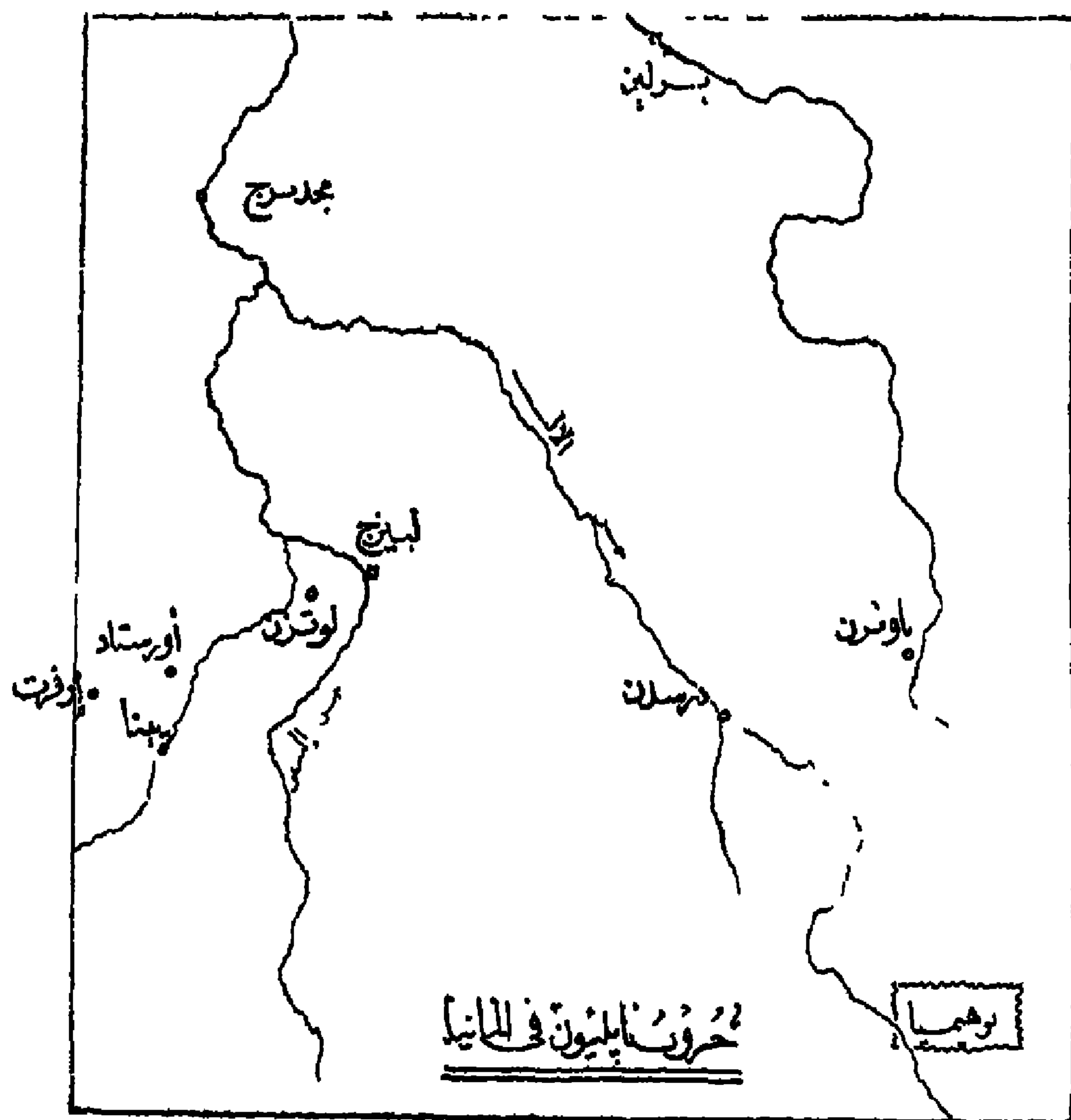
وبينما كانت إنجلترا تقوم بهذا الدور لكسب حليف جديد كان زعماء هذا التحالف الآخرون يعقدون مؤتمرا في مدينة برسلاو يعلنون فيه أن كل أمير من أمراء ألمانيا لا ينضم إلى التحالف لن يكون جزاؤه منهم بعد النصر إلا فقدان تاجه وخسران ملكه . وكان ملك سكسونيا أخلص نصراء نابليون فلم يسعه أزاء هذا التهديد إلا أن يسبق الحوادث فخرج من درسدن عاصمة بلاده حتى لا يقع في يد هؤلاء الأبطال الأفاذا الذين يخرجون الملوك من بلادهم باسم نصرة الحرية ومحاربة الطغیان .

الفصل الثالث

لوتزن وباوتزن

« Lutzen & Bautzen »

لم تقنع انجلترا باثارة بروسيا وألمانيا . ولا بمعاونة روسيا والدانمرك في هذه التعبئة الجديدة التي كانت تقوم بها للقضاء على نابليون قبل أن يفيق من أثر تلك النكبات التي حلت به في الحملة الروسية ورأت أن تجعل تعبثها هذه المرة عامة جامعة لتضرب بها الضربة الحاسمة القاضية . فلم تهيب أن تقتحم الباب على رجاله أنفسهم لتشيرهم عليه وتسلخهم عنه وتضمهم الى صفوفها . ويعجب الانسان أى عجب حين يراها تنجح في الاتصال بمثل مورا « Murat » ملك نابولي وصهر نابليون الذى تزوج بأخته كارولين . وأصبح بفضل هذا الزواج صاحب عرش وصاحب جلالة . ولقد كان نابليون يرجو مورا وأمثاله من الأصهار والأنصار لمثل هذا اليوم العصيب الذى خانه فيه الحظ وتكاثر عليه الأعداء فاذا هو يراهم يتخلون عنه واحداً فى أثر واحد واذا هو يرى نفسه فى ساعة الضيق بين عدو محارب . وحليف خائن هارب .



كان من بين قواد نابليون الذين رفعهم في عهد الامبراطورية الى درجة المارشالية قائد اسمه برنادوت Bernadotte . وكان برنادوت هذا من رجال الثورة وأنصارها . وقد تزوج بالمدموازيل « دزيريه كلارى » أخت زوجة يوسف بوناپرت التى كان يحسده على زواجها بنابليون فى زمانه الأول . ولكن برنادوت كان رجلا واسع الأطماع حقوداً فلم يرقه ما صادفه نابليون من النجاح العظيم . وكان يجهر ببعض عواطفه العدائية لنابليون غير أن الامبراطور كان يداريه اكراما لخاطر أخيه الطيب يوسف وبقيت الحال بينهما على ذلك الى أن كانت سنة ١٨١٠ حيث توفى ولى عهد السويد واتفق أهل هذه البلاد على أن يحاملوا نابليون ويكسبوا عطفه بترشيح برنادوت عدل أخيه ليكون ولى عهد لهم . وقد أبت على نابليون طيبة قلبه الا أن يسمح لبرنادوت بتقلد هذا الشرف لعل حزازته تشفى اذ يرى نفسه ملكا هو الآخر فلا يعود يحقد على نابليون . ولقد أوشك برنادوت أن يسافر هو وأهله الى بلاد السويد ليتولى الملك فيها وهو خاوى الوفاض لا يملك ما يمسك عليه كرامته لولا أن تدارك نابليون الأمر بحكمته وأريحته فدفع له من ماله الخاص مليونى فرنك حتى يدخل

على شعبه الجديد مرفوع الرأس موفور الكرامة .
وتطورت الحوادث بعد ذلك وعاد نابليون من روسيا
تلك العودة المشثومة . واستأنفت انجلترا جهادها في سبيل
القضاء على غريمها القديم فاتهزت هذه الفرصة لكسب برنادوت
وضمه الى التحالف الذى تجمعه . ففي ليلة راقصة أقامت مدام
دى ستايل بيرلين تم الاتفاق بين الطرفين وتعهد برنادوت
بأن ينضم الى جانب الحلفاء في حربهم القادمة ضد بلاده
الاولى وقائده القديم .

أما نابليون فانه وقف ثابتاً في وسط هذه العاصفة المدمرة
التي كانت تتجمع تحت عينيه . وقد تمكن بقوة عزيمته وحسن
تديره من جمع جيش جديد قوامه نحو ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل .
ولكن جلهم من الغلمان حديثي السن الذين لم يكن قد حل
مورعد تجنيدهم بعد . ولم تكن حداثة سن هؤلاء الجنود هي
كل ما يعيب هذه الحملة . فان قواتها كلها كادت تكون من
المشاة بغير مدفعية ولا فرسان . اذ لم يبق لنابليون بعد الحرب
الروسية شيء من مدفعيته الفخمة التي كانت عماد حركاته .
وكذلك كانت قد فنيت خيوله في سهوب روسيا ولم يستطع
جمع غيرها . وكانت هذه الحملة الجديدة أشبه الأشياء بحملته

الايطالية الأولى التى سار فيها على رأس جنود حفاة عراة
لا خيل معهم ولا ذخائر. ولعله لم يفته هذا التشابه بين الحملتين
حين وقف يتأمل حال هذه الحملة وقصور أدواتها ثم هز
رأسه قائلاً :

« لا بأس ! فلنقم بأمر هذه الحملة على طريقة الجنرال بوناپرت »
« Je Ferai cette campagne en Général Bonaparte! »

ولم تكن قد انقضت بعد أربعة شهور على عودة نابليون
من روسيا حين خرج فى الساعة الرابعة من صباح ١٥ مارس
سنة ١٨١٣ من قصره بسان كلو ليرأس جيشه الذى أعده
للقاء الحلفاء فى ألمانيا. وكان كولنكور Caulaincourt
رفيقه فى هذه الرحلة المبكرة. فما كادت تسير بهما العربة
قليلاً حتى انفجر نابليون يثث شكواه وآلامه الى رفيقه
المخلص معرباً عما يخالج نفسه من الحسرة والآسى على فراقه
لزوجته وولده وحرمانه من التمتع بهما على النحو الذى يتمتع
به أحقر فرد من أفراد رعيته بأسرته .

— « انى لأحسد أقل رجل فى امبراطوريتى على عيشه
فانه فى مثل سنى يكون قد وفى ديونه نحو وطنه ويستطيع
بعد ذلك أن يقيم فى كسر بيته متمتعاً بصحبة زوجته وأولاده.. »

أما أنا فإن واجبي يدفعني إلى ميادين القتال ويرمى بي في
غمرات الحروب . تلك هي قسمتي في الحياة ! »

وواصل نابليون سيره حتى بلغ مدينة إرفرت في الخامس
والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨١٣ حيث تولى قيادة الجيش
وما كاد يتقدم به قليلا حتى دهمتهم جيوش الحلفاء عند
مدينة لوتزن Lutzen فحملت بمدافعها وخيولها على غلبانه
الراجلين فزقتهم وشتت شملهم وكادت تقضى هذه المباغثة
على الجيش الفرنسي لولا اقدام نابليون وضربه المثل الأعلى
لجنوده بتعريض نفسه لأشد المخاطر . وظهوره أمامهم في
مقدمة الصفوف مستهدفاً ليران العدو مما أعاد إلى جنوده
ثقتهم بأنفسهم فثبتوا نحو ثمانى ساعات طوال تحت تهطال
قذائف الحلفاء . وأخيراً ألقى نابليون بحرسه الامبراطورى
على كتائب الحلفاء المتعبة فتراجعت أمامه وتبعها الحرس بكل
ما كان مزوداً به من مدفعية قليلة واستمر يتعقبها هزيعاً من
الليل حتى تم انتصاره عليها . أما نابليون فإنه لفرط تعبته
طول ذلك النهار كان قد استلقى في ميدان القتال وأغفى
اغفاءة قصيرة فلما أيقظوه من نومه ليبلغوه خبر انتصار رجاله
على الحلفاء غلب عليه السرور فابتسم لمحدثه قائلاً :

— « لقد صدق فيّ المثل السائر — أن الخير يأتي لصاحبه . وهو نائم ! »

وجاء انتصار لوتزن في وقته بالنسبة لنابليون فان الحلفاء كانوا قد أكثروا من الكلام عن فشله وأقول نجمه وأسرفوا في اتهامه بالضعف وعدم القدرة على مواجهة دولة واحدة من دول أوروبا بله هذا التحالف الجرار . فلما تم له هذا النصر حسنت الحال المعنوية بين جنوده على قدر ما ساءت بين جنود الحلفاء . فظل يتقدم نحو مدينة درسدن وظلموا هم يتقهقرون أمامه حتى دخلها بعد أن أجلوا عنها وإلى جانبه ملك ساكسوني فكان ذلك يوم مشهود في تاريخ تلك البلاد .

وأقام نابليون في درسدن أسبوعاً ثم تابع زحفه فالتقى مرة أخرى بجيوش الحلفاء عند مدينة باوتزن Bautzen واشتبك معهم في معركة عنيفة كتب له النصر فيها أيضاً ولكنه كان نصراً فاتراً مريراً . فأما فتوره فلأن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتعقبوا العدو بعد انهزامه لنقص فرسانهم ولذلك لم يكن حاسماً مبيناً كما كان في أولم وأوسترلتز أو في يينا وأورستادت . وأما مرارته فلأن خسائر الفرنسيين المتصرين كانت في الواقع أكثر من خسائر الحلفاء المهزومين .

الفصل الرابع

الهدنة المشثومة

زادت معركة باوتزن في ارتباك الحلفاء ورأوا أن الدائرة
توشك أن تدور عليهم كعادتها . وكان الروسيون والبروسيون
ينتظرون وصول إمدادات عظيمة اليهم ولكنهم كانوا يعلمون
أنه لا بد أن تمر بضعة أسابيع قبل أن تصلهم هذه الامدادات.
ففكروا في طلب الهدنة من نابليون .

وكانت النمسا في مركز يجعل كلا من الفريقين المتحاربين
يطمع في معوتتها فنابليون يرى في امبراطورها أنه صهره
الذى تهمة سلامة دولته ورجحان كفته . بينما الحلفاء يرون
في بلاد النمسا ضحية من الضحايا التى فتك بها نابليون وبنى
فوق أنقاضها امبراطوريته . والى يههما التخلص منه والقضاء
عليه إن كانت تطمع في استعادة شيء من عزها الضائع
وكرامتها المهينة .

ولم يكن يخفى شيء من ذلك على مترنخ داهية النمسا
العظيم فرأى أن يستخدم هذه الظروف لصالح بلاده وأن
يساوم الفريقين فن دفع أكثر من صاحبه فهو حليفه

ومناصره^١ وأحس نابليون بمثل ما أحس به الحلفاء من الحاجة الى الامدادات وجمع الصفوف . فلما جاءت الرسل في طلب الهدنة وافقهم عليها وشرع يفاوض النمسا في الانضمام اليه فالتقى به مترنيخ وعرض عليه أن يحارب الى جانبه اذا هو قبل أن يرد لمبارديا والولايات الايريه وأن ينزل عن هولندا وپولندا ومعقل نهر الالب والرين وأن ينزل كذلك عن لقب « حامى ولايات الرين » . فثار عليه نابليون ثورة عاصفة ختمها بأن صاح في وجهه :

— « ترى كم دفعت لك انجلترا لتعلن على هذه الحرب؟ »
على أن نابليون مال بث أن تبين أن فرنسا نفسها تميل الى قبول هذه الشروط حتى لقد نصح له تاليران وكامباسيريس وفوشيه وغيرهم من وزرائه بأن لامندوحة له عن التسليم بهذه المطالب وإلا كان الخطر جسيما بانضمام النمسا الى الحلفاء . فكان هذا الخور من جانب رجاله أشد إيلا ما في نفسه من اجترأ غرمائه على التغالى فيما يطلبون .

وكانت قد وصلت في هذه الفترة تلك الامدادات التي

(١) عرض الحلفاء على مترنيخ أن يطلقوا يد النمسا في ايطاليا وألمانيا

تفعل بهما كيف تشاء في نظير انضمامها الى التحالف

كان يترقيها الحلفاء . وأدرك نابليون أن الهدنة قد أوشك أن ينتهى أجلها وأن مركزه يزداد سوءاً كل يوم فلم ير آخر الأمر بدأ من النزول على إرادة مترنيخ فى كثير مما طلب . وعرض عليه قبوله لمعظم شروطه .

ولكن موقف الحلفاء فى ذلك الوقت كان قد تغير تغيراً تاماً . إذ وردت الأنباء من اسبانيا بأن السير أرثر ولسلى قد انتصر على الجيوش الفرنسية انتصاراً حاسماً فى فتوريا Vittoria وأنه كان إذ ذاك سائراً فى طريقه نحو حدود فرنسا الجنوبية . فلم يتردد الحلفاء فى طلب قطع المفاوضات وإعلان انتهاء الهدنة واستئناف القتال .

ولقد اعترف نابليون فيما بعد بأن موافقته على هذه الهدنة كانت أشأم غلطة ارتكبها فى حياته فأنها كانت سبباً فى تقوية مركز أعدائه بشكل لم يسبق له مثيل حتى أصبح من المحقق لسكل ذى بصيرة عند ما استؤنفت الحرب أن نابليون فى محاولته الوقوف فى وجهها لم يكن يحاول غير المستحيل .

الفصل الخامس

حرب الامم

النكبات تترى

رفضت النمسا قبول التسوية التي عرضها عليها نابليون في سبيل الحصول على معاونتها ضد أعدائه وقررت الانضمام بمائتي ألف جندي إلى هؤلاء الأعداء فارتفع بذلك تعداد الجيوش المتحالفة إلى أكثر من نصف مليون مقاتل . ولم يكن يملك نابليون للقاء هؤلاء غير مابقى له من أولئك الشبان الأحداث الذين خاض بهم معركة لوتزن وباوتزن .

وكان الحلفاء قد سعوا إلى ضم برنادوت اليهم ونجحوا في ذلك كما سبق لنا البيان في الفصل الثاني من هذا الباب — وكانوا كذلك بناء على مشورة بزنادوت قد استدعوا مورو من منفاه في أمريكا ليقف إلى جانب شريكه في مقاتلة مواطنيه فلبى الرجل دعوتهم غير مستنكف ولا متردد لعله يتمكن أيضاً من الانتقام لنفسه من نابليون .

وفي تلك اللحظة الرهيبة التي كان يعلق فيها نابليون الآمال
الكبار على كل رجل من رجاله فر الجنرال جوميني، الفرنسي
Jomini الى صفوف الأعداء يحمل اليهم من المعلومات ما كان
يعرفه عن خطط الإمبراطور .

ولقد تولى كولنكورابلاغ خبر كل هذه النكبات إلى
الإمبراطور وهو يروى في مذكراته كيف تمت هذه المقابلة
التاريخية . واليك ما يقول :

« سألتني الإمبراطور هل أعلنت النمسا الحرب رسمياً علينا ؟
قلت — اعتقد يا مولاي أنها انضمت للروسيا وبروسيا
فأجاني بحدة — ذلك قد يكون رأيك ولكن إذن لم
يصبح بعد حقيقة واقعة !

قلت — بل هو حقيقة واقعة يا مولاي . ولجلالتم أن
تأكدوا أنني لا أبنى رأيي في مثل هذه الموضوعات الخطيرة
على مجرد أوهام !

قال — علام إذن بنيت رأيك ؟

قلت — لقد دخل بلوخر البروسي مقاطعة سيليسيا
واستولى على برسلاو قبل انتهاء الهدنة بيومين .

قال — ذلك أمر خطير حقيقة فهل أنت متأكد مما تقول ؟

قلت — لقد تناقشت يامولاى مع مترنيخ فى هذا الأمر
مناقشة هامة قبل قيامى من پراج . وقد علمت أيضاً أن الجنرال
جومينى قد فر من معسكرنا وهو الآن مع القيصر اسكندر .
فصاح نابليون : جومينى ؟ ذلك الرجل الذى غمرته
بأحسانى ! يا للنخائن ! يهجر معسكره فى ليلة المعركة ! ويحمل
الى الأعداء أخبار قوائنا وأوصاف حركاتنا ! ذلك ما لا يصدق
العقل ! » .

وقد كان هياج الإمبراطور عظيماً وهو يقول هذه
الكلمات حتى أنى أمسكت فلم أتم ما كنت أريد أن أقول .
ولكنه ما لبث أن صاح بى قائلاً :

— أهذا كل ما عندك ؟ تكلم يا كوانكور ! أخبرنى بكل
شئ ! يجب أن أعرف كل شئ ! .

فقلت — إن دائرة التحالف قد اتسعت يامولاى — فقد
انضمت اليها أيضاً السويد !

فأجابنى — ما ذا تقول ؟ برنادوت ! برنادوت يحمل
السلاح فى وجه فرنسا ؟ حقاً هذا هو جزاء سنهار !

قلت — ولم يكتف برنادوت بأشهار سيفه فى وجه وطنه
ولكنه سعى فى ضم أبناء فرنسا الخارجين عليها إلى صفوف

الأعداء كأنه أحس أنه لا يستطيع أن يتلقى بمفرده لعنات
مواطنيه .

قال — ماذا تعنى ؟

قلت — لقد انضم الجنرال مورو إلى معسكر الحلفاء !
فصاح — مورو فى معسكر الحلفاء ؟ هذا لا يمكن ! لست
أستطيع تصور هذا يا كولنكور ! أبدا . هذا كلام لا يحتمل
الصدق ! وكيف عرفت أنت كل ذلك ؟ ،

ويستطرد كولنكور على هذا النحو يسرد هذا الحوار
العجيب الذى دار بينه وبين الإمبراطور مبيناً عن الظروف التى
سار فيها نابليون على رأس شبانه الأحداث للقاء ما يربو عن
نصف مليون من جنود أوروبا المدرين .

ومروره — آه نصر كبير

على أن الخطة التى رسمها برنادوت ومورو للحلفاء بناء على
نصائح جوميني ومعلوماته كانت على الرغم من كل ذلك
مهاجمة قواد نابليون وتحاشى الاشتباك معه هو شخصياً .
حتى تفنى قوته شيئاً فشيئاً دون التصدى لمواجهته والتعرض
لأخطاره .

وفطن نابليون إلى ما اعتزمه الحلفاء فعدل عن خطة الدفاع التي كان ينوي انتهاجها على غير عادته وقرر أن يكون جيشه البادىء بالهجوم .

فانقض هو والماريشال ناي على بلوخر في برسلاو . فما كاد هذا يعلم بقدومه حتى ولى الأدميرال هو وجيشه العظيم تطبيقاً للبدأ الذى وضعه الحلفاء وهو تحاشى الاشتباك مع نابليون . ولكن خروج نابليون من درسدن لمهاجمة بلوخر أطمع بقية جيوش الحلفاء فى الاستيلاء عليها لأفساد خططه التى دبرها على أساس جعل هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية . فزحف عليها شوارتزنبرج Schwarzenberg من الجنوب على رأس جيش جرار قوامه مائتا ألف مقاتل فى حين لم يكن بالمدينة غير ثلاثين ألف فرنسى . فأرسل قائد هذه الحامية الضعيفة يستنجد بنابليون لعله يستطيع إدراكه قبل أن يصل إليه شوارتزنبرج وجنوده .

وفى صباح ٢٦ أغسطس سنة ١٨١٣ بدأت طلائع جيوش الحلفاء تطلق نيرانها على المدينة . فوقع أهلها فى حالة يأس شديد وطلبوا إلى قائد الحامية أن يحقن دماءهم بطلب التسليم . ولكنه كجندى لم يكن يستطيع أن يستمع إلى توسلاتهم وبقى

على رأس قوته يتلقى نار العدو حتى انتصف النهار . وعند ذلك سمع في الجهة الشمالية من المدينة صياح يشق أطباق الجو . وهتاف حار بحياة الأمبراطور . فكان ذلك ايذاناً بوصول نابليون . ودبت الشجاعة والطمأنينة في قلوب الأهالي وملك الفرح عقول الجند حتى تعذر على الضباط حفظ النظام بينهم إذ تدفقوا جميعاً نحو مبعث ذلك الهتاف ليلاقوا قائدهم الأعلى فما أن وقع بصرهم عليه حتى أخذوا يتصايحون :
— « هاهو ! هاهو ! انه هنا ! »

والتفوا حوله وانقلب فزع الناس واضطرابهم إلى فرح وصخب وتصفيق وهتاف كأنه لم يكن بينهم وبين الدمار المحقق إلا بضع ساعات .

أما نابليون فانه أسرع إلى أسوار المدينة الجنوبية يعاين منها موقع الأعداء وكان قد خرج وحده غير مصحوب إلا بتابع واحد حتى لا يستلفت أنظار العدو إلى نفسه . فلم يسر غير بعيد حتى أصابت تابعه هذا رصاصة أردته قتيلاً . فقفل راجعاً وعول على مهاجمة جيش شوارتزنبرج في الحال . وكانت بقية جيشه قد وصلت في ذلك الوقت إلى المدينة متعبة بمجهوده بعد أن قطعت نحو ٩٠ ميلاً في نحو سبعين ساعة . ولكنهم

ما كادوا يدخلون المدينة ويقفون على حقيقة الموقف فيها حتى أبوا أن يضيعوا دقيقة واحدة يتزود فيها الجائع بما يسد رمقه ويتناول فيها الصادى ما يطفىء ظمأه . وأسرعوا يلبون نداء قائدهم لدرء الخطر قبل أن يستفحل ويضيع الأمل فى النجاة

وطال تبادل النيران فى ذلك اليوم العصيب بين الفريقين وأخيراً أطلق نابليون ثلاثة من قواده الأبحاد على العدو فاقحموا صفوفه وأوقعوا فيها الرعب والفرع . وكان شوارتزبرج فى تلك الساعة على ربوة عالية يشرف منها على ميدان القتال وإلى جانبه اسكندر قيصر روسيا وفردريك وليم ملك بروسيا . وكانوا يحسبون جميعاً أن نابليون ما زال مشغولاً بمطاردة بلوخر فى سيليسيا فما هو أن رأوا تلك الهجوم العنيفة التى قام بها الفرنسيون حتى صاح شوارتزبرج قائلاً :

— « ان الامبراطور لابد أن يكون فى درسدن . نخير ما نستطيع أن نفعله الآن هو أن نلم شملنا ونجمع صفوفنا . » وكان الجو عاصفاً والسماء ممطرة ولم يكن نابليون قد برح سرج جواده منذ طلعة النهار . فتمكن المطر منه حتى الملى

قيصه . وأخيراً أقبل الليل فبدأ العدو يسترد المواقع التي أجلى عنها أثناء النهار . وجمع جنود نابليون يلتمسون قسطهم من الراحة بعد كل هذا العناء . أما نابليون فإنه بقي الى ما بعد منتصف الليل يعد العدة للغد ويطوف بأنحاء المدينة حتى ينصره رجاله ويرون أنه لا يتركهم في ذلك القر والعراء ليتقلب هو في الفراش الدافئ والمضجع الوثير .

واستؤنف القتال في فجر اليوم التالى بعد أن تعززت قوى الفريقين بما استطاعا جمعه خلال الليل من الامدادات واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وحدث بطريق المصادفة أن وقف نابليون وسط جماعة من الفرسان تتسلق مرتفعات الأرض قبالة بقصد الاستطلاع فأراد تفريقهم فبعث الى رئيس البطارية رسولا يقول له :

Jetez une douzaine de boulets à la fois, dans ce groupe là, peut être il y a quelques petits généraux.

« صوبوا بضع طلقات مرة واحدة على تلك الجماعة لعل فيها

بعض القواد الصغار ! »

وتشاء المصادفة أن يكون مورو وسط تلك الجماعة وأن تصيبه احدى تلك الطلقات في ساقه فيكون ذلك سبباً في

بترهما بعملية جراحية تزهق روحه بعدها يومين فيحرم من التمتع بشمرة حياته !

على أن هذه المعركة انتهت بارتداد الحلفاء عن أسوار درسدن وتقهقرهم نحو بوهيميا بعد أن خسروا نحو ٣٠ ألف أسير وأكثر من عشرة آلاف ما بين قتل وجريح . ولكن هذا النصر كان آخر نصر عظيم أحرزه نابليون في حياته إذ انعكست الآية بعد ذلك معه فتكاثر عليه أعداؤه وتخلي عنه أنصاره . وفر من معسكره كثير من رجاله . فلم تكن انتصاراته الفاترة التي أحرزها بعد ذلك إلا بمثابة الخدوش التي يحدتها النمر الصريع فيمن يحاول الدنو منه وهو في حشجة الموت . ولقد ظهرت على نابليون أيضاً عقب « درسدن » مباشرة أعراض ذلك المرض الشديد الذي ظل يتتابه ويفت في عضده حتى انتهى آخر الأمر بهلاكه . وقد كنا ذكرنا في بدء الكلام عن واقعة درسدن أن نابليون أجهد نفسه أياماً في محاولة العودة الى تلك المدينة قبل وصول الحلفاء اليها ثم في أثناء الواقعة التي دارت رحاها يومين طويلين لم يكد يذوق في خلالها طعم الراحة على الرغم من تأثره بالبرد والمطر . وكان من جراء ذلك كله أن اتتأبته نوبة برد حادة مصحوبة

بمغص ألبم وقىء عنيف حتى خيل إليه أن بعض أعدائه لابد أن يكون قد توصل الى دس السم له فى شىء من طعامه . ولقد كانت هذه النوبة نفسها ذات أثر عظيم فيما استجد بعدها من الحوادث فانها لم تمكنه من مطاردة أعدائه بعد ارتدادهم عن درسدن وكان ذلك سبباً فى استعادة قواهم بسرعة واستعدادهم للقاءه مرة أخرى فى ليزج . ولو أنه تعقبهم كما كان يفعل فى كل حروبه السابقة وحطم رأسهم بعد أن قطع ذنبهم لما قامت لهم قائمة ولتغير وجه هذه الصفحات الحزينة التى ينتهى بها تاريخ نابليون .

ليزج — المذبذبة الرهيبة :

ولكنه اضطر بسبب مرضه الى أن يوزع الجيش على قواده وأن يطلق كل قائد منهم فى أثر جيش من جيوش الأعداء بغية القضاء على تحالفهم « بالمفرق » ما دام قائد « الجملة » مريضاً لا يقوى على النهوض . غير أن الحظ السيء لازم هؤلاء القواد فى كل مكان فانتصر بلوخر (البروسى) على مكدونالد (الفرنسى) فى الشمال واضطر فندام Vandame فى الجنوب الى تسليم كل قوته للنمساويين بينما انهزم الماريشال

ناى هزيمة منكرة أمام القائد ييلوف (الروسى) وهو يحاول الهجوم على برلين .

عند ذلك تشجع الحلفاء واقترح عليهم برنادوت أن يقوموا بهجوم عام يسير هو فى طبيعته ليطوق نابليون ويقطع عليه خط الرجعة إلى فرنسا — وعند ذلك أيضاً تنبه نابليون الى خطورة هذه الحركة ولم يجد علاجاً لدفعها إلا أن يندفع مرة واحدة هو وكل من معه نحو الشمال لاحتلال كل البلاد الكبيرة التى يكون الحلفاء قد أدخلوها وهم يحاولون الالتفاف حول جيشه فيصبح فرضاً عليهم أن يرتدوا للدفاع عن مدنها ومعقلهم .

ولكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ هذه الخطة المسددة حتى علم بأن حليفه ملك بافاريا قد تخلى عنه وانضم للحلفاء . وأن ملك وورتمبرج أيضاً قد حذا حذوه . وأن جيشاً جراراً من جيوش الحلفاء يزحف نحو الحدود الفرنسية . وأن خمسمائة ألف جندى آخر يطبقون على مدينة درسدن .

فأما هو فلم تزده هذه الصدمات إلا تنبهاً ونشاطاً وقوة عزم وأما قواده — الذين رفع بعضهم ييده من الصفوف وبلغ بهم قمة المجد — فقد سئم معظمهم هذا القتال المتواصل

وودوا لو تفاهموا مع دول أوربا على أى أساس صالح للتسوية حتى يعودوا إلى قصورهم وبلادهم وقيموا بين زوجاتهم وأولادهم ويتمتعوا بشمرة نضالهم وجهادهم . وكان مسلكهم فى هذا الظرف العصيب أشق على نفس نابليون من مسلك أعدائه المكشوفين حتى لقد بقى على اثر فرارهم يومين كاملين وهو فى حالة عصبية ألوية وعذاب نفسانى شديد ، وأراد كولينكور أن يخفف من ألم مولاه بالتماس العذر للقواد فيما فعلوا . فقال :

— « ان كلام القواد يامولاي لا يمكن أن يحمل الا على أنه اقتراحات . والرأى الأعلى فيها لكم ! »
فكان جواب نابليون الحاضر :

— « ما أظنك تتوهم ذلك يا كولينكور . وسوف يكون لهذا الأمر عواقبه المخيفة المدمرة فان اليوم الذى تقوم فيه الحرب ، بمهمة التفكير هو اليوم الذى تفر السلطة فيه من الصولجان ! »

واضطر نابليون ازاء تخاذل قواده الى العدول عن خطته والرجوع الى « ليزج » ليقف فيها لأعدائه وقفته اليائسة الأخيرة فقد كان جيشه حوالى مائة ألف يتناقص عددهم

يوماً بعد يوم بينما كانت قوة الحلفاء ٣٥٠ ألفاً تصلهم
الامدادات من كل صوب في كل يوم .

وفي الساعة التاسعة من صباح ١٦ أكتوبر سنة ١٩١٣
بدأت معركة ليزج الشهيرة التي لم تكن في الواقع الا مذبحة
رهية يظفر فيها جيش كبير بجيش صغير وتكون كل مهمته
أن يجهز عليه .

ومما زاد الطين بلة في هذه الظروف القاسية ان عاودت
نابليون في ليلة السابع عشر من هذا الشهر — أى بعد ابتداء
المعركة بيوم واحد — أعراض ذلك الداء القاتل الذي أصيب
به في معدته فبينما هو في خيمته يتحدث الى جلسائه عن شئون
الغد وما سوف يأتيهم به إذ جاءته النوبة فامتقع لونه وتقلت
أنفاسه وتقلص وجهه وارتدى فوق مقعد في طرف المسكان
وقد وضع يده على معدته قائلاً :

« أشعر بألم شديد . إن جسمي بنهار ولكن روحي لم
يعتورها الضعف ! » .

فأسرع اليه كولنكور قائلاً :

— « سأبعث في طلب الطبيب يامولاى ! » .

فأجابه نابليون على الفور :

— كلا ! كلا ! أريد أن لا تفعل . إن خيمة الملك شفاقة .
كالزجاج لا تحجب ما وراءها فيجب على أن أبقى على قدمي حتى .
يبقى كل انسان في مركزه ..

وأمسك بيد كولنكور وضغط عليها بلطف ثم رفع بصره
اليه قائلاً :

— سأخذ في التحسين حالا يا كولنكور فلا تدع أحداً
يدخل علينا الآن !

وفي الغد كان نابليون مرة أخرى على ظهر جواده
يشرف على قوته الضئيلة وقد أحاط بها العدو من ثلاث جهات
ثم مالبت أن جاءه من يبلغه أن برنادوت أغرى السكسونيين
الذين كانوا في خدمته على أن يتخلوا عنه أيضاً وينضموا
بمدافعهم وذخيرتهم الى الحلفاء . فبهت نابليون في سرجه لهذا
الخبر . ووقف جامداً كأنه تمثال من الحجر الأصم . ثم رفع
بصره الى السماء كأنما يريد أن يحتج لديها على هذه الخيانة
الشنيعه ولم تنفرج شفتاه إلا عن كلمة واحدة أودعها كل ما
كان يحس به من مرارة وألم وهي : « يا للعار ! »

وعلى الرغم من كل ذلك فقد وقف الفرنسيون يناضلون
طول اليوم . ويدفعون عن مراكزهم تلك الجموع الجاررة

التي كانت تكرر عليهم بقضها وقضيضها . ثم لا تلبث أن تتحطم
على حرايبهم العنيدة . فترتد لتستأنف الهجوم عليهم من جديد
وفي اليوم التالي بلغت خسائر الفرنسيين ستين ألفا . فلم
يبق إلا التقهقر والانسحاب . وقد بدأ هذا الانسحاب في
الساعة الرابعة من مساء يوم ١٩ أكتوبر وظل سحابة الليل في
غفلة من الحلفاء . ولم يكن بالمدينة غير جسر واحد يستطيع
أن يعبر به الفرنسيون نهر Elster الواقع في غرب المدينة .
فتدافعوا فوقه ولكنه نسف قبل أن تدركه بقية الجيش .
وظل منهم نحو ٢٥ ألف تحت رحمة أعدائهم الذين كانوا قد
دخلوا الى المدينة مع طلوع شمس اليوم التالي . ولا حاجة بنا
الى الافاضة في وصف ما حل بهؤلاء التعساء فقد تنوعت
ميتاتهم في ذلك اليوم العصيب ولم ينج منهم الا قليل .

الفصل السادس

انهيار البناء

تتابعت الحوادث سراعا بعد معركة ليزج . وهطلت سماء
المحن مدرارا فوق راس نابليون . فاذا هو يرى بنيان امبراطوريته
الفخم يتداعى أمام ناظريه كأنه أشباح الأحلام تزاحمت
ساعة في رأس مهموم لم يلبث أن يفيق .

وكان سر نكبته في تلك الساعة الرهيبة سلسلة من الخيانات
لم يكن يتوقعها أشد الناس يقظة وأكثرهم حذرا . فقد تخلى
عنه حلفاؤه المخلصون . وخذلته فرنسا نفسها وطنه المحبوب .
وأنكره أصهاره وأقاربه بل أنكره إخوته وأخواته الذين
رضعوا معه من ثدى واحد . وربطتهم وإياه روابط النشأة والدم
فأما حلفاؤه فقد بادروا إلى الانضواء تحت لواء أعدائه
ليجاروا التيار الجديد سالكين في ذلك مسلك بافاريا
وورتمبرج لاسيما بعد أن شاهدوا بأعينهم مصير ملك سكسونيا
التعس (حليف نابليون المخلص) الذي أدركه الحلفاء في ليزج

فأسروه وبعثوا به سجيناً إلى برلين . وبذلك أفلتت من قبضة
الامبراطور دفعة واحدة كل المانيا وإيطاليا فضلاً عن ضياع
اسبانيا التي استولى عليها الانجليز . وهولندا التي أعلن أهلها
ولاءهم لأسرة أورانج التي منها ملوكهم القدماء .

وأما فرنسا فقد شاهدت زهرة شبابها تقنى بين يدي
نابليون ولا تكاد تدرك من ذلك إلا أنه هو الذى يخرج
بينها صفوفاً إلى ميادين القتال ثم لا يلبث أن يعود من غيرهم
ليجمع صفوفاً أخرى . وقد كان ذلك محتملاً عندها فى أول
الأمر حين كانت تراه يعود اليها مثقل الوطاب بالغنائم
والأسلاب . أما الآن وليس يسير فى ركابه غير البؤس
والهزائم فهي لا ترى إلا أن تتخذله وتقعده عن معونته .
وتصدق فيه قول خصومه من أنه رجل سفاح مريض بداء
العظمة الجوفاء . مصاب بآفة التعطش الى الدماء .

على أن المحنة الحقة التي فقت فى عضد نابليون وكانت
أشدّ وقعاً فى نفسه من وقع كل هذه المحن هي فرار إخوته منه
وهم عدته التي كان يدخرها مثل هذا اليوم العبوس . فأخوه
لويس كان أول من خرج عليه . أما جيروم ملك وستفاليا
فأنه هجر مملكته وشعبه ليخلى السيل بينهما وبين الحلفاء . كما

أن يوسف رفض أن يتولى القيادة العسكرية في مدينة باريس حين عرضها عليه نابليون في هذه المحنة الأخيرة . أما لوسيان فكان قد ضاع منذ زمان بعيد كل عمار بينه وبين أخيه (١) . هذا من جهة إخوته . أما من جهة أخواته فأن كارولين — زوجة مورا (ملك نابولي) كانت أهم عامل في إغراء زوجها بالانضمام الى جانب الحلفاء لعل ذلك يكون شفيعا لها عندهم فيقيان على عرش نابولي اذا ما دارت الدائرة على نابليون . واما إلزا Elisa فأنها كانت ترى مع « فوشيه » أن الحل الوحيد الذى ينقذ فرنسا من هذه الأزمة التى وقعت فيها هو « أن يموت الإمبراطور » !

وهكذا وقف نابليون وحده فى وسط هذه الملمات لا يجد إلى جانبه من بين أهله من يستند ظهره أو يشد أزره اللهم إلا أمه الطيبة ليتيشيا التى حاولت عبثا أن تجمع أبناءها حول أخيهم العظيم والتى لم تكن تملك له بعد اليوم إلا دمة أسي تدرفها بين يديه .

(١) كان لوسيان قد تزوج بسيدة من عامة الناس وأراد نابليون أن يعينه ملكا كما عين بقية إخوته . يوسف ولويس وجيروم . فطلب إليه أن يطلق زوجته حتى يصعد الى المرش وإلى جانبه أميرة من أميرات أوروبا ولكن لوسيان رفض كل ما عرض عليه نابليون مضجعا بذلك فى سبيل الاحتفاظ بزوجه وأولاده .

الفصل السابع

الحلفاء في باريس

يخال القارىء أن نابليون بعد معركة ليپزج وبعد كل هذه النكبات التى تبعتها سوف يتلقى ضربات الحلفاء فوق رأسه واحدة بعد واحدة ويظل يتقهقر أمامهم من بلد الى بلد حتى يلتجئ آخر الأمر الى باريس فيتحصن فيها ثم يقتحمها الحلفاء عليه فيأسرونه ويعثون به الى منفاه . فهذا على ما يظهر هو منطق الحوادث المعقول .

ولكن الذى حدث فعلا كان من العجيب يناقض ما يقتضيه هذا المنطق على خط مستقيم . فأن نابليون ظل ينتصر فى تقهقره من بلد الى بلد واستمر يكيل الضربات للحلفاء وجيوشهم حتى دخلوا أمامه باريس . فاعتزل الملك بعد ذلك ثم تفاهم مع خصومه على أن يبرح فرنسا ويستعيز عن ملكه فيها بجزيرة إلبا المتواضعة ليقضى فيها أيامه الباقية .

أما تفصيل ذلك فهو أن نابليون خرج من ليپزج ليلة

التاسع عشر من شهر أغسطس متجها نحو إرفرت ولكن الجيوش الألمانية أصرت على اللحاق به وقطع خط الرجوع عليه ونجح الجنرال Wrede النمساوي فعلا في الوقوف له عند قرية (هاناو) معترضا طريقه بنحو خمسين ألف جندي . وأكثر من مائة مدفع . عند ذلك رأى نابليون نفسه محصورا بين خصومه من الأمام ومن الخلف . فلم ير إلا أن يلقي ريد وجنوده ليزيحهم عن طريقه ويتابع سيره الى فرنسا . وقد جاء هذا اللقاء في الواقع آية من روائع آيات نابليون الحرية فإنه جمع رجاله واستجم قوته ثم كر على خصومه فاقتحمهم ومر بجيشه فوق أجسامهم وخلفهم في الميدان فلولا أشلاء وواصل سيره حتى بلغ مدينة ماينز على نهر الرين .

ولقد كان الحلفاء حتى هذه اللحظة على اتفاق تام إذ لم يكونوا يفكرون إلا في التغلب على نابليون وكسر جيوشه . ولكنهم بعد أن رأوا آخر جندي فرنسي يعبر حدود الرين القرية . انقسموا فيما بينهم . فمنهم من رأى الاكتفاء بذلك وعدم مطاردة الفرنسيين داخل حدودهم لأن هذا سيكون حافزا لهم على استئناف القتال بياس واستبسال . ثم أنه سوف يبرر عمل نابليون إذا هو طلب إعداد جيش جديد . وفي هذا

أيضا من الخطر مافيه . وعلى ذلك اقترح هذا الفريق — وعلى رأسهم مترنيخ — أن يعرض على نابليون الصلح على أساس الحدود الطبيعية لفرنسا . (وهى من الشرق نهر الرين . ومن الجنوب جبال البرانس . ومن الشمال والغرب بحر المانش وخليج بسكاي) أما الفريق الآخر — وكان على رأسه بلوخر البروسى — فأن الأحقاد التى كانت تغلى فى صدره حالت دون الاستماع إلى هذه الدعوة ورأى فى تلك الظروف فرصة سانحة للقضاء على خصمه الجبار العنيد فأصر على أن يتابع خصمه فى سيره داخل الحدود الفرنسية وأن يواصل زحفه حتى باريس نفسها ليملى إرادته فيها على ذلك الجبار العنيد .

وأخيراً انتصر أهل هذا رأى . واضطر أصحاب الرأى الأول الى سحب اقتراحهم على الرغم من أن نابليون كان قد بعث اليهم رسوله ليبلغهم قبوله الصلح على هذا الأساس . وتقدم بلوخر من الشرق وإلى جانبه النمساويون بينما كان ولنجتون يزحف من الجنوب . وجيوش برنادوت توالى سيرها لتدخل فرنسا من جهة الشمال .

وقد بلغ تعداد جيوش الحلفاء بانضمام هذه العناصر بعضها الى بعض نحو ٣٠٠ ألف مقاتل . على أن الألمان ما كادوا

يتقدمون قليلا في داخل الحدود الفرنسية حتى دهمهم
الامبراطور في أربع مواقع وفتك بهم فتكا ذريعا وذلك في
في أربعة ايام متتالية .

أزاء ذلك لم ير بلوخر بدا من الارتداد نحو الشمال كي
يتصل برنادوت لعله إذا أضاف قوته إلى جيوشه يتعزز
مركزه وتثبت أقدامه في اللقاء التالي . ولكنه لسوء حظه
ما كاد يضم إمدادات برنادوت إلى صفوفه حتى أصيب بمرض
أقعه عن العمل وحرمه وقتاً ما ثمرة جهوده .

وهكذا بقي نابليون ستة أسابيع طوال يدافع الحلفاء فيها
عن باريس بحفنة من الجنود يثب بهم ههنا وههنا ويرد بهم
سيلا جارفا من جنود الأعداء إلى أن وهنت في آخر الأمر
قواه . وكان ولنجتون في تلك اللحظة يزحف من مدينة
تولوز في جنوب فرنسا قاصدا إلى باريز بينما كان بقية الحلفاء
في الشمال قد وقفوا لنابليون وقفة الذئب الجائع العنيد أمام
فريسته المحتضرة الشائرة — يخشاها وفي نفس الوقت يطمع
في اغتيالها .

على أن نابليون لم ير أن يستسلم حتى في هذه الساعة
الآخيرة التي لم يبق فيها بارقة من أمل في النجاة . وعزم على أن

يترك الحلفاء يهاجمون باريس كيف يشاءون ويلتف هو حولهم ليأخذهم من خلفهم . وكانت باريس في ذلك العهد عاصمة الإمبراطورية النابليونية الواسعة التي كانت تتزايد أطرافها مع كل مطلع شمس . فلم يلتفت أحد الى أمر تحصينها ولذلك أقبل الحلفاء عليها حين أقبلوا وليس يتولى الدفاع عنها إلا القائدان مارمون ومورتيه Marmont & Mortier ومع كل واحد منهما بضعة آلاف جندي . فجد نابليون في أثر الحلفاء وكاد ينجح في خطته لولا أن قيض الله لها من نقل تفصيلاتها إلى أعدائه وأوقفهم على سرها فأفسدها عليه .

وعلى الرغم من كل ذلك تقدم نابليون بالخمسين ألف الذين بقوا معه . وكان ذلك موضع الدهشة والقلق في نظر من يحيط به من القواد . فلم يتمالك أحدهم أن نبهه إلى تفوق الحلفاء عليه في العدد بشكل لا يدع مجالا لهذا القتال العقيم . فما كان من نابليون إلا أن صاح فيه :

— « ما ذا تقول ؟ إن معي ٥٠ ألفا وباضاقتي اليهم نصبح

مائة وخمسين ألف ! فهل هذا قليل ؟ » .

وجد نابليون في طريقه لا يلوى على شيء . ولا يشغله

إلا خاطر واحد وهو كيف يمكن الحصول على جيش جديد

في هذه الضائقة التي خذله فيها رفاقه ولم يكد يبقى معه منهم
أحد . وأخيرا صاح هاتفا بنفسه :

« سأجند الفلاحين ! فهم الطبقة المخلصة الوحيدة التي
تتبعني الى حيث أسير . »

وضاعف سرعته عند ما لاح له هذا الخاطر لعله يصل
الى باريس قبل الحلفاء فيقبض فيها على زمام الحكم من جديد
ولكنه لم يسر غير بعيد حتى لقي جماعة من الجند على
رأسهم ضابط صغير . فتقدم الضابط نحو الامبراطور
وأبلغه أنه مكلف من قبل الجنرال مورتيه بالعمل على إيواء
الجنود المتقهقرين . فحقق فيه نابليون تحديقة طويلة لعله
يستشف بها معنى كلامه ثم قال مستعسرا :

الجنود المتقهقرين ؟ وأين إذن الامبراطورة ؟ وأين
الملك يوسف ؟ .

— سافرت جلالتها أمس الى بلو Blois هي وملك روما
أما الملك يوسف فقد غادر باريس اليوم .

— ومارمون ؟ .

— لا أدري يامولاى ! .

عند ذلك أدرك نابليون أن باريس في خطر محقق .

فتجمع العرق قطرات كبيرة على جبهته في انفعال عميق ثم لم يلبث أن صاح :

— « إلى الأمام ! إن الحرس الوطنى والشعب سيقفان إلى جانبي . ومتى احتوتنى أسوار باريس فأنى لن أخرج منها إلا على محفة النصر أو على عربة الموتى ! » .

ولكنه لم يكد يقترب من باريس ويشرف على نهر السين الذى يشق المدينة إلى نصفين حتى رأى أنواراً تتلألأ فوق صفحته ولمح أضواء تتضئض على شاطئه المقابل . فتمعنهما جيداً فإذا هى مصاييح معسكر الحلفاء وقد رابطوا فى قلب المدينة وأخذ جنودهم يحيون الليل بالهتاف والغناء وأنغام الأناشيد .

فوقف برهة يرسل نظراته الملتبهة فى ظلمات ذلك الليل ثم انكفاً قائلاً :

— لنركب إذن إلى فوتنبلو Fontainbleau !

الفصل الثامن

النزول عن العرش

أشرق فجر يوم اول ابريل سنة ١٨١٤ على فارسين محزونين ظلمتهما الكتابة وأثقلت قلبهما الهموم يسير أحدهما نحو باريس ويسير الآخر نحو فونتبلو . فأما فارس باريس فكان كولنكور وزير خارجية نابليون . ورسوله الى القيصر بعث به اليه لعله يستطيع إقناعه بوجوب الاحتفاظ بعرش فرنسا لنابليون والاكتفاء باملاء شروط الصلح التي ترضى أوروبا وأما فارس فونتبلو فكان نابليون نفسه قصد إلى قصره فيها ليكون قريباً من جنوده الذين تراجعوا عن باريس ولينتظر ريثما يأتيه الرسول بما يستقر عليه رأى الحلفاء في امره .

وقد استطاع كولنكور ان يصل الى باريس وان يتصل بالقيصر . بل لقد استطاع ان يكسب القيصر إلى صف مولاه على الرغم من كل ما كان بينهما . ولكن القيصر لم يخف عن كولنكور ما كان الحلفاء يضمرونه لنابليون فكاشفه بعزمه

على إعادة البربون . بل لقد كاشفه ايضاً بما كان يضمرة الغلاة منهم له إذ كانوا يعتزمون القبض عليه اولاً ثم نفيه الى اقصى الارض . غير انه وعد بأنه سيعترض هذه الفكرة ما امكنه الاعتراض . وطلب اليه ان يعجل في العودة الى فوتنبلو ليقنع نابليون بالنزول عن العرش لولده ملك روما لعله يستطيع بذلك ان يحصل من الحلفاء على قبول هذا التنازل والاكتفاء به فسأل كولنكور :

— ولكن ما ذا سيكون مصير الامبراطور نفسه في هذه الحالة ؟ فأجابه القيصر :

« اطمئن فأنت تعرفنى تمام المعرفة . ولن اسمح بتقرير اى امر فيه مساس بالامبراطور . فأسرع الى فوتنبلو وعد الى بهذا التنازل » !

وعاد كولنكور والاسف يأكل فؤاده على ان سوء حظه جعل من نصيبه ان يقوم هو بهذا الواجب الخطير . واجب مطالبة نابليون بالنزول عن العرش . على ان كل ما كان يعانيه كولنكور بهذا السبب من الآلام النفسية القاسية لم يشفع له عند نابليون حينما وقف منه على فحوى رسالته فانفجر فيه كما كان دأبه ان يفعل حين يهتاج فما كان من

كولنكور ايضاً إلا ان صاح به :

« أنت يامولاي لا تعرف الرحمة فأن الصدمة التي يحسها قلبك الآن قد فطرت قلبي قبل أن تصل الى فؤادك . ولقد قضيت ثمانية وأربعين ساعة اتلوى تحت وقعها قبل أن أتقدم اليك ! »

فانهزم نابليون أمام هذه الكلمات ولكنه عاد يهدد بجنوده ومدافعه ويتكلم عن الزحف على باريس والانتصار على الحلفاء واثارة خواطر الشعب عليهم وطردهم من بلاده وكان يطمع في مؤازرة مجلس الشيوخ له اذا ما خذلته بقية هيئات الحكومة لانه كان أطوع اداة في يده طوال السنين الماضية كما كان عليه اعتماده في كافة ما أحدثه من التشريعات الاستثنائية والانقلابات . غير أن رئاسة هذا المجلس كانت قد آلت أخيراً الى « تاليران » داهية فرنسا الذي أقصاه نابليون من مركزه في وزارة الخارجية لما آنس فيه من الاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأى . فكان ذلك سبباً في نكبة جديدة نكب بها نابليون في هذا الطرف الدقيق اذ استطاع تاليران أن يحمل المجلس على تقرير خلع الامبراطور . واقامة حكومة مؤقتة بدل حكومته ريثما يتم الصلح مع الحلفاء .

فلما فوجئ نابليون بهذا القرار عول على رد كيده هؤلاء المتخاذلين في محورهم فقام باستعراض جنوده الباقين . وعقد اجتماعاً عاماً في فونتنبلو من سراتها وكبار القواد فيها ليضعوا من القرارات ما ينسخ أثر قرارات مجلس الشيوخ من أذهان الشعب يد أن القرار الوحيد الذي قبل هؤلاء الناس أن يعلنوه هو أن كل شيء قد ضاع وأنه لم تبق أدنى فائدة في المقاومة .

عند ذلك سقط في يد نابليون وانسحب الى غرفته وقضى بضع ساعات اليمه وهو يقلب وجوه الرأي وياتمس الهداية في هذه الظلمات التي أطبقت حواليه فلم ير بدا من الأخذ بنصيحة القيصر ولذلك أرسل يسندعى كولنكور وسامه نص هذا التنازل :

(انه لما كان الحلفاء قد اعلنوا أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة في سبيل عودة السلم الى أوروبا فأن الامبراطور نابليون يعلن استعدادة للنزول عن العرش وترك فرنسا ومفارقة الحياة نفسها نزولاً على حكم القسم العظيم الذي أقسمه للعمل على ما فيه صالح الوطن . وذلك من غير مساس بحقوق

ولده ووصاية الامبراطورة عليه والاحتفاظ بقوانين
الامبراطورية)

صدر عن سرانيا بفونتنبلو في ٦ ابريل سنة ١٨١٤

* * *

على أن كأس النحاس التي أبت المقادير إلا أن يكرعها نابليون حتى الثمالة كانت لا تزال فيها بقية . فان القائد مارمونت الذي كان لا يزال على رأس أكبر قوة فرنسية سليمة والذي كان يطمع نابليون في جيشه حين كان يتكلم عن مهاجمة باريس وطرده الحلفاء منها جاء في هذه اللحظة الرهيبة وانضم بجنوده الى الحلفاء أنفسهم . فانقطع كل أمل لنابليون في النجاة . ولم يفت الحلفاء تقدير هذا العامل الجديد وهم يتفاوضون فقضوا أن لا بد من نزول نابليون نزولاً مطلقاً لا قيد فيه ولا شرط ولم يكن لهذا من معنى إلا التصميم على إعادة البربون إلى فرنسا .

فعاد نابليون في بادئ الأمر الى هياجه وثورته . وعاد يهدد بأنه يستطيع أن يشير كل فرنسا على هؤلاء الذين جاءوا ينكرون على الفرنسيين حقهم في اختيار مليكهم والذين يريدون اكرامهم على قبول ملك خلع الشعب أسرته وبلغ

من سخطه على أفرادها أن قطع رأس آخر واحد منهم كان يلى شثونه وألقاه للغوغاء .

وكان ما يزال حول نابليون فى ذلك الوقت جماعة من القواد المخلصين الذين لم تفتنهم دعوة الحلفاء ولم يميلوا اليهم مع المائلين . فدعاهم نابليون اليه ثم قال لهم :

— « لقد قدمت للحلفاء إقرار نزولى عن العرش . ولكنهم اليوم يطالبونى بإقرار نزول أسرتى كلها . أنهم يريدوننى أن أخاع زوجتى وولدى وكل من ينتمى الى دى . فهل تسمحون بذلك . ان لى من القوة ما يمكننى من اختراق الصفوف التى تحيط بى . انى أستطيع أن أصل الى أطراف فرنسا وأثيرها كلها . انى أستطيع أن أزحف على ايطاليا وأقيم بكم هناك امبراطورية أخرى . فاذا طلبت اليكم ان تتبعونى أفلا تفعلون ! »

على ان احداً من اولئك القواد لم يفتح الله عليه بكلمة يقولها ردا على هذه الدعوة الحارة وتشجيعاً لتلك الروح النبيلة التى قادتهم عشرين عاما فى ميادين العزة والمجد بل بقى الجميع فى برود مطبق يقربون عيونهم ولا يحركون لسانهم . ولم يستطع كولنكور اخفاء عواطفه ازاء هذا الجود

العجيب . فهم بالانصراف من الغرفة . ولكن نابليون أدرك
مغزى حركته فاستوقفه ثم جلس فجأة إلى مكتبه في الغرفة
وخط عليه هذه الكلمات السريعة الملعثة التي يرى القارى
صورتها على الصفحة المقابلة والتي ضمنها نزوله المطلق عن
عرش فرنسا

ثم سلسها إلى كولنكور وبعد ذلك حول نظره إلى جماعة
القواد قائلا :

— « أيها السادة ! أريد أن أكون وحدي ! »

فلما خرجوا من حضرته نظر برهة إلى كولنكور ثم قال :

— « ان هؤلاء الناس لا قلب لهم ولا ضمير . انى لم

تهزمنى الحوادث بقدر ما هزمتنى أناية هؤلاء الرفاق ونكرانهم
للجميل . والآن قد انتهى كل شيء . فدعنى يا صديقى وانصرف
أنت أيضا ؟ »

الفصل التاسع

وداع فونتبيلو

كان يوم اعتزال نابليون الملك يوماً عظيماً في تاريخ الملكية فان ملوك أوروبا بعد أن حاربوا رجال الثورة ٢٢ عاماً تمكنوا في آخر الأمر من دخول باريس . ورد لويس الثامن عشر الى عرشه الذي استحقه بحكم مولده والذي استوى عليه نابليون حيناً من الدهر بإرادة الشعب .

وفي ١١ ابريل سنة ١٨١٤ انتهى هؤلاء الملوك من مفاوضاتهم ومناقشاتهم وفرغوا من وضع المعاهدة في صيغتها الأخيرة فتقرر في نظير قبول نابليون النزول عن عرش فرنسا بلا قيد ولا شرط :

(١) أن يستبقى الامبراطور نابليون والامبراطورة ماري لويز لقيهما

(٢) ان تستبقى ام نابليون وأخوته وأخواته ألقابهم كأمرء واميرات في اسرة بونابرت

٣) ان يمنح نابليون مُلكَ جزيرة إلبا وان تدفع له الخزانة الفرنسية فوق ذلك مرتبا سنوياً قدره مليونان ونصف مليون من الفرنكات

٤) وتمنح الامبراطورة دوقية پارما وولایتين آخرين تنتقل ملكيتها جميعا الى ملك روما بعد وفاتها .

٥) رتبت مرتبات اخرى لأمرأء الأسرة كلهم وخصصت مقاطعات في فرنسا لتقوم ايراداتها بسداد هذه النفقات .

٦) خول لنابليون الحق في ان يستصحب معه الى مملكته الجديدة حرسا قوامه ٤٠٠ رجل ممن يقبلون التطوع لمرافقته والسفر معه .

وأرسلت هذه الشروط الى نابليون ليصادق عليها في ظرف يومين ويقول بعض المؤرخين ان نابليون ضاقت به الدنيا في بحر هذين اليومين حتى انه فكر في الانتحار وروون في ذلك روايات يعزونها بالشواهد ويقول بعضهم : « انه بلغت به خيبة الأمل الى حد عقد معه النية على امر حاسم فنام تلك الليلة قبل الساعة التي اعتادها وترك باب الغرفة مفتوحا قليلا . وقد نام الخادم « هوپر » على عتبة ونام « كونستان » في غرفة مجاورة . فلما اتصف الليل نادى

الخدام وطلب اليه أن يشعل النار ثم أمره بالانصراف ..
فذهب هوبر ولكنه لم ينم لريية في نفسه بل أخذ يراقب
مولاه من شق الباب فرآه يمشى طولا وعرضا ثم يجلس
ويكتب على ورق ثم يمزق الورق ويلقيه في النار وبعد حين
رأى الامبراطور يتناول مسحوقاً من إحدى حقائبه ويذيه
في الماء ويتجرعه فخاف وأسرع فأخبر كونستان وعاد معه
ودخلا بلا استئذان على مولاها فوجداه في حالة تهيج شديد
وسرعان ما انتشر الخبر في القصر أن الامبراطور قد شرب
السم فأنيرت الغرف وقطع سكوت ذلك الليل وقع أقدام
الخدم جيئة وذهاباً . وأقبل الطبيب إيفان Evan ومعه
كبار الضباط فوجدوا الامبراطور شاخص العينين جامد
النظر . أما هو فالتفت الى إيفان وابتدره بهذه الكلمات .

— إيه إيفان ! لقد أعطيتني سما لا يفعل !

فاضطرب إيفان وخاف أن يفهم من ذلك أنه أراد
تسميمه . فترك الغرفة ونزل السلم مسرعاً وذهب الى
الاسطبل فامتطى جواداً . وانطلق به الى باريس !

ويقول آخرون أنه تأثر كثيراً من خيانة زملائه له وزاد
تأثيره عند ما عرضت عليه شروط الحلفاء . فاضلّت الدنيا

فى عينيه وأراد أن يسم نفسه فتناول علاقة السم التى كانت فى عنقه منذ سنوات ولكن الطبيب ما لبث أن جاء مسرعا عند ظهور أعراض السم عليه فأنقذه ولما أفاق قال لكونكور: « لم يشأ الله أن أموت ... وليس فقدى للعرش هو الذى جعل حياتى لا تطلق فأن أعمالى الحرية تكفى لمجدى . أتدرى ما حمله على النفس أثقل من تقلبات الحظوظ . أتدرى أى شىء يفطر القلب . . . ذلك هو دناءة الناس وقضاة جحودهم . . . وهذا الذى جعلنى أكره الحياة وأنقر منها . . . ألا إنما الموت راحة ! »

هذا ما يقول بعض المؤرخين عن محاولة نابليون الانتحار تحت تأثير هذه الصدمة الأخيرة . والواقع الذى لا شك فيه أنه كان فى حالة ذهول عميق على رغم أعصابه وما اشتهر عنها من الصلابة . والمتانة . والقوة . والسلامة . وقد جعله هذا الذهول فى شبه غيبوبة حتى لقد كان يرسل فى طلب أحد الناس . فاذا أتى لبث نصف ساعة دون أن يوجه إليه الخطاب وذكر خادمه الخاص أنه كان ساعة لبسه وزينته صامتا لا ينبس ببنت شفه . فاذا عرض عليه أن يشرب الدواء كعادته فى مثل ذلك الوقت لم يكن يجيب بل لم يكن يظهر على ملامحه

أنه سمع كلام الخادم . وكان كل يوم يزداد حزنا وميلا الى الوحدة . وكانت الرسائل التي ترد عليه من باريس تسبب له هياجا خاصا حتى انه أنشب يوما اظافره في فخذه وأسال الدم منه دون ان ينتبه .

وليس يبعد ان يكون نابليون قد فكر حقاً في الانتحار وهو يعاني آلام هذه المحنة المنكرة وقديما قيل :

يقضى على المرء في ايام محنته : حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن
على ان بعض المعجبين به يصرون على نفي هذا الخبر
ويؤكدون انه بقى على عادته ينفر من فكرة الانتحار حتى
في هذا الوقت العصيب وينسبون اليه انه قال في هذا المقام :
« إن من الناس من ينتحر لأسباب غرامية فيالها من حماقة !
وان منهم من لا يستطيع العيش إذا لحقه العار . فياله من ضعف !
أما من كان في الناس ملكا ثم فقد عرشه وخسر تاجه وظل
يحمل عبء الحياة وهو عرضة لشماتة نظرائه وطعن زملائه .
فتلك هي الشجاعة الحققة وذلك هو الخلق العظيم ! »

* * *

ووقع نابليون المعاهدة في موعدها . وتحدد ظهر يوم
٢٠ ابريل للسفر إلى إلبا . فلما حل ذلك اليوم ودنت ساعة

الرحيل . اصطف جنود الحرس الامبراطورى فى فناء قصر
هو تنبلو ليرفعوا تحيتهم الأخيرة الى مولاهم قبل سفره الى
منفاه . واجتمع أهل الجهات القريبة كلهم ليشاركوا فى هذا
المشهد الرهيب . . .

وأخيراً خرج نابليون من غرفته وأخذ سمته نحو سلم
القصر فلم ينزل منه بضع درجات حتى لمحت عينيه صفوف
الحرس وقد اصطفوا لاستقباله الاستقبال الأخير . فوجم
لمرآهم وثبت فى مكانه فوق السلم برهة كأنما خاتته قواه ولكنه
تشدد وجال يبصره فى تلك الصفوف وفى جموع الناس الذين
احتشدوا من ورائهم خارج القصر ثم استأنف المسير وعند
ذلك قرعت الطبول ونفخت الأبواق تحية بسلامه
الامبراطورى ولكنه أشار إليها بيده إشارة السكوت .
فتعلقت الأنفاس وثبتت فوق شخصه الضئيل انظار المجتمعين
وإذ ذاك تقدم اليهم وقال بصوت ثابت النبرات واضح المخارج:
« ايها القواد الأبطال . ويارجال الحرس الصناديد .
أودعكم الوداع الأخير ! لقد انقضى عشرون عاماً لم أركم
فيها الا فى طريق المجد والشرف ولقد ظللت فى أيام محنتنا
الأخيرة كما كنتم دائماً فى أيام اقبالنا الأولى من الشجاعة

والشهامة والولاء . وما كنا لنخسر قضبتنا ومعنا أمثالكم .
ولكننا خشينا أن ينتهى بنا ذلك الى حرب أهلية تذهب
بسعادة فرنسا ورفاهتها فلم تتردد فى توضحية مصالحنا أملا فى
الاحتفاظ بصالح الوطن . والآن أفارقكم أيها الاصدقاء
ونصيحى الأخيرة لكم أن تكونوا مخلصين للمليككم الجديد
الذى قلبته فرنسا فالوداع يا أبنائى ولكم كنت
أودأن أضمكم جميعاً الى صدرى ولكنى اعانقكم فى شخص
قائدكم هذا :

وتقدم قائد الحرس نحو الامبراطور فطوفه بذراعيه
وأجهش بالبكاء فسرت فى صفوف الحرس من خلقه عدوى
تأثره وعلا ضجيج الجنود وزاد فى ألم الموقف أن دعا
نابليون بحامل العلم قائلاً .

— « هات هذا العلم حتى أفبله ! » فقدم اليه الرجل بالعلم
وعلى رأسه النسـر — وهو الرمز المجيد الذى اختاره نابليون
لجنوده — فقبله نابليون فى فمه الفضى ثم ضم العلم الى صدره قائلاً :
— « أيها النسـر العزيز ! لتدُم الى الابد هزة هذه العناقـة
الأخيرة فى قلب كل جندى من جنودى المخلصين . . الوداع
مرة أخرى يارفاقى . . . الوداع ! »

وداع الجنـد في فونـتبـلو



الكتاب المختار

المستقى

الباب الأول : إلبا

د الثاني : حكومة الأيام المائة

د الثالث : سنت هيلانة

الباب الاول : إلبا

الفصل الأول - ملك إلبا

» الثاني - البربون في فرنسا

» الثالث - عودة نابليون الى فرنسا

الباب الأول

إلى

الفصل الأول

ملك إلى

خرج نابليون من قصر فونتنبلو قاصداً ميناء فريجو Frejus ليجر منها الى مملكته الجديدة . وكان يصحبه في رحلته بعض أعوانه. وأربعة من مندوبي الدول المتحالفة لحراسته في الطريق ولكنه ما كاد يغادر رجاله في القصر ويشق طريقه وسط الجماهير حتى أحس إحساساً عملياً بأنه انتقل من حال الى حال ذلك لأن شعور الناس نحوه كان قد بدأ يتحول تحت تأثير الدعاية القاسية التي كان يبثها الحلفاء ضده وتحت تأثير النكبات المتتالية التي من شأنها أبد الدهر أن تصرف الناس عن صاحب البأساء .

والناس من يلق خيراً أقاتلون له ما يشتهى ولأم المخطيء الهبل
فلم تكذب تبحر عربته تلك المقاطعات الشمالية في فرنسا
حتى رأى من مظاهر العداء ما كان انكى لنفسه وأدى لفؤاده
من كل ما أصابه من الصدمات اذ اجتمع الغوغاء حول عربته
وأخذوا يسبون ويلقبونه بالغول الكورسيكى وبالجانر
الغشوم . واندفع بعضهم الى المركبة قتشبت بدواليها . أما
الجبنةاء من القوم فكانوا لا يجسرون على الاقتراب منها
واكتفوا برجمها من بعيد

وكانت تتزايد شدة الناس عليه كلما أوغل الموكب في
طريقه . وذلك لسيادة الروح الملكية منذ القدم على أهل
الولايات الجنوبية . ويروى أن المرحلة الأخيرة من هذا
السفر كانت من الخطر بحيث خشيت حاشية الأمبراطور
عليه من الموت . فألح رجاله عليه بوجوب التنكر في زى
خادم ليتمكن من قطع بقية الطريق بسلام . ويزيد الرواة
على ما تقدم أنه نزل على إرادتهم ولبس ملابس أحد الخدم
الذين كانوا يسرون أمامه ثم أخذ يعدو أمام المركبة !
ومهما يكن من أمر هذه الرحلة وما صادفه فيها نابليون
فأنه نجا منها على كل حال ووصل سالماً الى Frejus - ذلك

الشجر الذى لقيه باسماء عند عودته من مصر فأسلبه الى منصب
القنصلية ثم الى عرش الامبراطورية . والذى قدر له أن
يعود اليوم فيلفضله الى إلبا شهيد نبوغه وكفايته وطريد تلك
الامة التى لم تبلغ من المجد فى كل تاريخها مثل ما بلغته على
يديه .

وفى ليلة التاسع عشر من شهر ابريل أقفلت به المركب
البريطانية - « the Undaunted » وكانت قد أعدت لنقله
مركب فرنسية ولكنه رفض أن يسافر عليها تحت علم البربون
، وما يحذر ذكره انه لم تمض عليه ساعات على ظهر تلك المركب
البريطانية حتى كان قد قن ركابها بلطف حديثه واستولى على
البايهم بجاذبيته بل ان البحارة أنفسهم الذين كانوا يتلقون
من حكومتهم كل القبائح الواجبة فى حق نابليون ما لبثوا أن
غيروا رأيهم فيه فأنسوا اليه وأحبوه وأصبح من المألوف أن
يميل أحدهم على صاحبه فيقول له :

“Bony” is a good fellow, after all !

أما جزيرة إلبا فلم تكن تبعد عن فرنسا أكثر من مائتى
ميل . وقد وصلها نابليون بعد رحلة خفيفة استغرقت نحو خمسة
أيام فاستقبلته حامية بورتو فراجو Porto Ferriajo عاصمة

ملكه الجديد باطلاق مائة مدفع تحية لقدمه . على أنه لم يتورط .
بتلك التحية الملكية ووقف يشرف على نقل (عفشه) الى الرصيف
ويشارك بنفسه أحياناً في انجاز تلك العملية كأنه سائح بسيط .
وما كاد يفرغ من ذلك حتى أمر بجواده فامتطى صهوته .
ومضى يعاين « امبراطوريته الجديدة » . فلم يسر غير بعيد حتى
وجد نفسه فوق ربوة عالية تشرف على أطراف الجزيرة كلها .
ولم تكن تزيد على ١٦ ميل طولاً في عرض تراوح بين ميلين .
و ١٢ ميلاً . أما عدد السكان فكان ١٣ ألف نسمة . فوقف
نابليون برهة يقلب عينيه في أطرافها ثم ما لبث أن قال باسماء :
« الواقع ان امبراطوريتي هذه يغلب عليها الصغرا »
ولم يمض على نزول نابليون في إلبا يومان حتى كان قد زار
كل مكان فيها وحتى كان قد رسم مشروعاته الكثيرة لأصلاحاتها
ورفع مستوى المعيشة فيها فبعد أن درس معادنها . وملاحاتها .
وكرومها . وعاباتها . وموانئها . وحاميتها بدأ يشق الطرق فيها
ويحفر القنوات . ثم أنشأ فيها مستوصفاً لعلاج المرضى وأخذ
يعمل في تنمية موارد الثروة فيها بتحسين حال الملاحات ومصايد
الأسماك . وكان بجوار إلبا جزيرة أخرى صغيرة مهجورة لا
حياة فيها كان يأوى اليها قرصان البحر . فقرر نابليون أن

يرسل اليها جماعة من رجاله ليستولوا عليها ويحصنوها في وجه أولئك القرصان . ثم ابتسم لرفاقه قائلاً :

« سوف تقول أوروبا أنى بدأت سلسلة فتوحاتى من

جديد ! »

وبدأ يستشعر نابليون شيئاً من اللذة في مقامه الجديد .
وعول على أن يشغل وقته بكتابة مذكراته — « واعطاء صورة
واضحة عن نفسه للعالم الذى لم ير منه قط الا صورة جانبيه
(Profile) » — كما كان يقول .

على أنه كان في الواقع أبعد الناس عن أن يحقق مثل هذه
الغاية . فان حركته الدائمة لم تكن تترك له سبيلاً الى
الجلوس والكتابة . اذ كان يخرج كل يوم قبل الفجر على
ظهر جواده . ويسير في انحاء الجزيرة محترقاً سهولها وحزونها
مستطلعاً مخابئها وخوافيها حتى ضج منه المندوب الانجليزى
القائم بمراقبته وكثيراً ما تململ شاكيًا من أن « نابليون لا يجد
لذة الا في إنهاك قوى من يرافقه . »

اما الامبراطور فكان كل نشاطه منصباً على تحسين حال
الجزيرة كما أسلفنا . فانقلبت بعد حلوله فيها كقفير النحل تعج
بالحركة عجا ولم تكن تسمع فيها بعد ذلك اليوم الا قرع المطارق

بين هدم وبناء . وقد صدرت أوامره الى كل جانب بتطهير البيوت
والشكنات وتنظيف الطرق والشوارع والزام السكان بوضع
الاقذار في آنية خاصة تفرغ في الليل . ومعاقبة من يطرح من
بيته شيئاً في الشارع . ومنع كل غريب من دخول الجزيرة
قبل أن يكشف عليه طبيباً للتحقق من سلامة جسمه من
الامراض . وأمر بتجفيف المستنقعات وتنقية مياه الشرب
وتشييد أحواض كبيرة يخزن فيها الماء لأيام الحاجة . فانتعشت
الجزيرة بعد الموات وازدهرت فيها الحياة وذاق السكان
للمرة الاولى طعم العيش الرغيد (١) .

وفي صيف ذلك العام (يونيه سنة ١٨١٤) سافرت الى
إلبا والدة نابليون تصحبها اخته پولين Pauline وقد ملأت
الغبطة قلب ليتشيا لما رأت ولدها يعيش هادئاً هائثاً في تلك
الجزيرة الوادعة وشعرت بالسعادة الحقيقية لاطمئنانها عليه
في هذا الوسط البعيد عن مخاطر الحروب والمؤامرات .
وكان نابليون ينتظر وصول زوجته ماري لويز أيضاً
«ولده» ملك روما « من يوم الى يوم ولم يكن يهيج خواطره
في عزلة الهادئة الا شوقه اليهما وقلقه عليهما . وقد كتب عدة

(١) كتاب « حول سيرر الامبراطور » لمؤامه الدكتور كابانيس

رسائل الى زوجه يستقدمها فيها ويتوسل اليها أن لا يحرمه من ذلك الهناء الذى لم يعد يطمع فى اكثر منه . ولكنه فى الوقت الذى كان يبكى فيه أمام صورة ولده شوقاً وحنيناً كانت زوجه ترمى بنفسها فى أحضان ضابط نمسوى أعور هو الكونت نيپرغ Neipperg وتنسى بين يديه زوجيتها لنابليون وامومتها لملك روما - وواجبها كأمبراطورة وسليمة بيت من أكبر بيوتات اوربا الملكية هو بيت هابسبورج .

ويأتى القدر الساخر إلا ان يسوق الكونتس واليسكا فى هذه الظروف لزيارة نابليون فى منفاه . فاستصحبت ولدها (وقد بلغ الرابعة من عمره) . وسافرت اليه وهى ترجو ان تقضى بقية ايامها معه . ولكنه لم يستطع استبقائها طويلاً الى جانبه وهو ينتظر قدوم زوجته الشرعية بين كل صباح ومساء . فرحلت عنه بعد يومين اثنين لم يفارقها نابليون فى خلالها ليلاً ولا نهاراً . وكان هذا آخر لقاء بين الرفيقين .

الفصل الثاني

البريون في فرنسا

لما قرر الحلفاء ابعاد نابليون عن فرنسا لم يكن ذلك تحقيقاً لرغبة الشعب — الذى كان معظمه ما يزال يحب نابليون ويحنو إليه — ولكنه كان تحقيقاً لرغبة ملوك أوروبا الذين كانوا يحاربون الديموقراطية في شخص نابليون ويطاردونه ليطردوا من أذهان العامة مبدأ سيادة الأمة وأنها هي مصدر السلطات فليس غريباً بعد ذلك أن يسمع الانسان برواج تلك الصورة الكاريكاتورية الشهيرة التي انتشرت في فرنسا عقب سفر نابليون والتي لم يكن يخلو منها بيت هناك — تلك الصورة التي تمثل سراي التويلرى وقد خرج منها نسر نخم يحلق في الفضاء بجناحيه العريضين بينما يتسلل إلى أبوابها قطيع من الخنازير البرية . (إشارة إلى دخول البريون وخروج نابليون) .

ولقد ذكرنا أن نابليون حين سافر إلى إلبا كان قد نفذ يده من شئون فرنسا كلها . وعقد النية على أن يحيا حياة جديدة

لا صلة بينها وبين فرنسا الا ما كان قد اعتزم تدوينه من المذكرات فكانت الفرصة واسعة أمام لويس الثامن عشر ليثبت أصول عرشه على قواعد جديدة تكون أكفل لبقائه من تلك التي كان يقوم عليها عرش أخيه لويس السادس عشر . ولم يكن الملك الجديد يعوزه الناصحون في هذا الشأن . فقد تقدم إليه القيصر غداة عودته إلى باريس مبيناً له عن روح العصر الحاضر في فرنسا . واختلافها عن روح العصر القديم ونبيهه إلى ما استجد من المبادئ والأفكار في المجتمع الفرنسي ثم نصح له بأن يقلع عن التمسك بنظرية الحق الالهي في الحكم التي مؤداها أن الملوك قوامون على رعاياهم من قبل الله وأشار عليه أن يطلب إلى مجلس الشيوخ أن يصدر قراراً بتوليته العرش خلفاً لنابليون ليكون بذلك أقرب إلى قلوب العامة وعقولها فأن ارتقاء العرش الآن باسم الأمة أدنى إلى الاحتفاظ به من ارتقاؤه باسم أية قوة أخرى . ولكن لويس لم يجد ما يرد به على هذا النصح الحكيم إلا أن يسب الأمة ومجلس الشيوخ . والمبادئ الحديثة وأن يجيب صاحبه بكل أنفة واستكبار قائلاً : — « وأي حق لمجلس الشيوخ — الذي لم يعد أن يكون أداة وشريكاً لذلك الغاصب المجنون — أي حق له في تاج فرنسا

ليتصرف فيه كيف يشاء ؟ هل هذا التاج ملك للمجلس الشيوخ ؟
وهل لو كان التاج ملكا للمجلس كان يرضى بوضعه على رأس
فرد من اسرة البربون ؟ انى اوكد لك انه لم يكن يفعل اولى لكنى
استحققت هذا التاج عن اخى وعن ابن اخى اللذين قتلوا فى
سبيله . وان اوربا حين اعادتى الى العرش لم تكن تعيد شخصاً
بعينه او اسرة بعينها ولكنها كانت تعيد فكرة وتقر مبدأ .
وانت نفسك — يا صاحب الجلالة — بأى حق تحكم فوق
اولئك الملايين الذين جاءوا بنا هنا واعادوني الى عرشى تحت
إمرتك ؟

فلم ير القيصر ازاء هذه الثورة إلا ان يترك الرجل يسير
فى سبيله ويقول لنفسه : « انى قد بلغت اللهم فاشهد »
وكان اول ما تقدم به لويس الثامن عشر الى الشعب الفرنسى
ان سن له دستوراً جديداً . ولكنه اعلن هذا الدستور على
انه منحة منه الى الشعب . فكانت تلك اول صدمة لعقول
الفرنسيين الذين ظلوا ٢٥ عاماً يقولون ان الامة هى التى تمنح
رئيسها حقوق الرياسة وانها هى التى تأذنه بالاشتراك معها
فى الحكم .

على ان لويس ما لبث ان ندم حتى على هذا الدستور .

وعادت فتملكته نزعة آبائه واجداده وتكاثرت حوله العناصر الرجعية من المهاجرين الساخطين والملكيين المتطرفين حتى اضطر في النهاية إلى العدول عن اعتداله النسبي وإلى الأخذ بأساليب انصاره العنيفة التي كان من شأنها القضاء على كل ما تشتم منه رائحة امبراطورية نابليون . ولم تمض شهور الا وقد عادت الى فرنسا كل مساوى العهد الماضى . فاستولى المهاجرون الذين عادوا مع الملك على كل مرافق الدولة الرئيسية وحرّم ذلك على عامة الفرنسيين واعيدت الى الأشراف امتيازاتهم فكانوا يتمتعون بإيراد الدولة ولا يقومون بشيء من تكاليفها . واهمل انصار العهد الامبراطورى فى اول الأمر . ثم ابعدهوا عن وظائفهم واحداً بعد واحد . وحل محلهم شبان من الأشراف لافضل لهم الا كرم المحتد ورفعة النسب . وسرحت الحكومة الجديدة فرق الحرس الوطنى واحلت محلها فرقاً جديدة من المرتزقة السويسريين . وسقط علم الثورة المثلث الألوان وارتفع مكانه العلم الأبيض الملكى والغيت قوانين الامبراطورية واستبدلت بها قوانين جديدة جعل تاريخ اول واحد فيها «العام التاسع عشر من حكم ملك فرنسا لويس الثامن عشر» ولم يكن لكل هذا من معنى إلا انكار وجود الامبراطورية

أصلاً . واعتبار عهدها حلاً من الأحلام . وانتشر الجواسيس
يترصدون رجال الدولة البائدة . ويوقعون بهم حتى أصبح
الناس ينكبون في أموالهم وأعمالهم بسبب انتمائهم الى هذه
الدولة ونشأتهم في عهدها الغابر

وكان من الطبيعي أن لا يستسلم الشعب الفرنسي لكل
هذه المظالم التي ثار من أجلها ثورته الأولى . وزاد في سخطه
على هذه الحكومة الجديدة أن رآها تتخلى للحلفاء عن عشرات
المعاقل والحصون التي كانت لا تزال في يد الفرنسيين وعن
شيء كثير من الذخيرة والسلاح ثم عن بلجيكا نفسها وعن
كل ما كانت فرنسا قد ربحته منذ أيام الثورة الأولى . وكان
من الطبيعي أيضاً أن يعود الحنين إلى نابليون فيحل في تلك
القلوب التي كانت في أيامه الأخيرة قد بدأت تتذمر من
دكتاتوريته . وكان من أهم العوامل التي أدت الى هذا الانقلاب
انتشار جنود نابليون الذين سرحتهم الحكومة في أنحاء فرنسا
وتنويهم بمحاسن العهد الماضي وتنديدهم بمساوى العصر
الحاضر . مما جعل الناس يترحمون على نابليون وإيامه ويتمنون
لوهيات لهم العناية نابليوناً آخر ينقذهم من هذا الذي ألم بهم
كما أنقذهم من مساوى العهد الأول ناپوليونهم القديم .

اما نابليون نفسه فقد كان كما اسلفنا يعيش هادئاً هائماً
في جزيرة إلبا منصرفاً الى مهامها وشئونها . ولكن اخبار الاستياء
الذى عم الفرنسيين من حكومة البربون ما لبثت ان تسربت
إليه . فلم يعرفها في اول الامر جانباً عظيماً من اهتمامه . . ولكنها
اخذت تتزايد . واصبحت تصله تلك الاخبار مصحوبة بحنين
الناس الى عهده وحكومته فبدأ يلقي باله الى فرنسا ومصائر
الأمور فيها . ثم قطعت عنه حكومة فرنسا مرتباته التى قررت
له معاهدة فوتنبلو فزاد ذلك فى سخطه عليها . ثم مالبث ان
علم بأن الحلفاء قد دب الخلاف فيما بينهم بسبب تضارب
مطامعهم وتصادم صواالحهم الشخصية . وأن بعضهم قد اقترح
تلافاً لخطر الموقف استبعاد نابليون من إلبا الى سنت هيلانة
لتكون أوربا فى مأمن منه لاسيما بعد ما تبين من اتجاه ميول
العامة فى معظم الدول الأوروبية اليه .

وكانت پولين Pauline أخت نابليون قد تمكنت من
القيام بسياسة قصيرة فى أوربا اتصلت فيها بكثير من الأقطاب .
ثم عادت تؤكد لأختها صحة كل ما كان يصله من التقارير
السرية عن توتر الحالة فى فرنسا وتأهب الشعب للانقلاب على
حكومته اذا ما عاد اليهم مليكهم وزعيمهم القديم .

فلم ير نابليون اذاء كل هذه الظروف الا أن يخرج من عزله ليقوم بعمل حاسم قبل أن يدهمه الحلفاء على الأقل. بمثل هذا الاقتراح الخطير الذي أرادوا به اسقاطه مرة أخرى واخراجه من ملكه الجديد.

الفصل الثالث

عودة نابليون إلى فرنسا

في السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨١٥ أولت Pauline اخت نابليون ولية فاخرة في إلبا دعت بها ضباط الحرس الإمبراطوري وهيئة اعيان الجزيرة . وحضر نابليون هذه الولية وظل المدعوون في قصف وهو الى ساعة متأخرة من الليل .

وحوالى منتصف الليل انسحب نابليون ودعا اليه قائديه Bertrand ودرويه Drouet . فلما اختلى بهما قال لهما : — « سرحل عن هذه الجزيرة غداً . فأريد ان تحجز السفن التي في المينا كلها ولا ينبغي ان يسمح لمركب واحدة بمغادرة المينا قبل ان نغيب في جوف البحر . ولست احب ان يقف احد غيركما على هذا البيان ! » .

فانصرف الضابطان من حضرته وقضيا بقية ساعات الليل في تنفيذ هذه التعليمات .

وفي الليلة التالية جلس نابليون كعادته يلعب الورق مع بعض رفاقه ثم ما لبث ان وقف فجأة ثم خرج الى حديقة المنزل ينشد العزلة ولكن امه لحقت به تحت شجرة تين هناك وقد رابها منه شيء من القلق الخفيف لم يكن يخفى على مثل عينها اليقظة — فتردد نابليون في الكلام اولا ولكنه ما لبث ان قال :

— « اجل يجب ان اخبرك ولا اخفى عنك . . . ولكن احذر من افشاء ما اقول لك الى كائن من كان . . . ولا الى پولين اختى نفسها ! » — وبعد ان حلق فيها برهة قال لها بلهجة حازمة كما لو كان يوجه الحديث الى بعض ضباطه :
— ليكن في علمك انى سأرحل الليلة !
— ترحل الى اى مكان ؟

— الى باريس ! . . . ولكنى اطلب رأيك قبل كل شيء وكان خبر الرحيل صدمة قاسية لقلب امه التى كانت قد بدأت تشعر بنعيم الحياة فى ظل هذا العيش الهادى الآمين . ولكنها كانت فى الوقت نفسه تعلم بفطنتها انها لن تفلح فى ثنى ولدها عما اعتزم — فتجردت من عواطف امومتها لحظة وتقدمت اليه قائلة :

— « دعنى أنسى أذن أتى أمك . ولقد شاءت الأقدار
أن لا تموت مسموماً . وقضت أن لا تفيض روحك وأنت
فى هذه العزلة التى لا تتفق مع همتك . وأبت إلا أن تموت
وسيفك مشهور فى يمينك . فأسال الله الذى كتب لك السلامة
فى ماضيك أن يحوطك بحمايته فى حاضرک ا ،

وفى فجر اليوم التالى خرج نابليون فى الف من رجاله
المخلصين فركبوا البحر . واخذت الريح تزجى سفنهم نحو
الشواطىء الفرنسية حتى غابت عن انظارهم جزيرة إلبا . وعند
ذلك برز نابليون لجنوده الذين كانوا حتى هذه اللحظة
لا يعلمون من امر رحلتهم شيئاً . فلما قال لهم ان وجهتهم
فرنسا وانهم قاصدون الى باريس أدركتهم نشوة أذهلتهم عن
خطورة الغاية التى يسعون اليها . وأخذوا يصيحون « لتحيا
فرنسا وليحيا الإمبراطور ! » ثم ما لبثوا ان انقلبوا الى
سلاحهم يصقلونه والى ملابسهم يصلحونها حتى لا تراهم
فرنسا بعد غيبة عشرة شهور إلا فى أتم زينة وأبهى منظر .
ولقد صادف نابليون من التوفيق فى هذه الرحلة مثل
ما صادف فى رحلته وهو عائد من مصر . فاقد أبصرت به

البارجة Zephyr (وهي احدى السفن الحربية الفرنسية) في
اليوم التالى من رحلته . وكان ذلك عند الغروب . فأتجهت
نحو أسطوله الضئيل ولما اقتربت من سفينته وأصبحت على
مرمى الصوت منها وقف ربانها على ظهرها وبوقه في يده
— كماهى العادة فى البحار — فتبادل مع ربان مركب نابليون بضع
كلمات ثم سأله : « وكيف حال الامبراطور ؟ »

فاختطف نابليون البوق من يد ربانه وصاح فيه :

« على غاية ما يرام ! »

ثم استأنفت كل سفينة سيرها بين جرجرة الأمواج
وقهقهة الأقدار !

وكان نابليون قد أعد منشورات كثيرة ليوزعها على اهل
فرنسا . فما هو ان نزل إلى الشاطئ في أول مارس سنة ١٨١٥
حتى بدأ بتوزيع هذه المنشورات داعياً الأمة الى القيام لنصرته
مهيباً بالجنود ان ياتفوا حوله ويجتمعوا تحت لوائه —
« ليطير النسر الامبراطورى من قبة الى قبة حتى يحط على
ابراج تتردام فى باريس ! »

وكانت اول بقعة من ارض فرنسا وطئتها أقدام نابليون
وجنوده عند « خليج جوان » — وهو نفس المكان الذى

نزل فيه عند عودته من مصر فخرج اليهم جماعة من الفلاحين
يستطلعون أمرهم . وهم ما يزالون يجهلون حقيقة حالهم . وكان
من بين هؤلاء رجل سبقت له الخدمة تحت قيادة نابليون .
فما هو أن وقعت عينه عليه حتى صمم على الالتحاق بفرقته .
فنظر نابليون الى رفاقه باسماء وهو يقول :

— « هذه يارفاقي أول دفعة على الحساب من المدد الذي
توقعنا الحصول عليه من فرنسا . »

وواصل نابليون سيره بعد ذلك وهو ينتقل من بلد الى
بلد فلا يزيده ذلك إلا قوة على قوة وتأيدا فوق تأيد حتى
بلغ مدينة جرينوبل وهناك وقفت امامه أول قوة استطاعت
أن تحشد لها الحكومة لتعترض بها طريقه . وكان الموقف
دقيقا . وخشى أنصار نابليون أن تتبدد أوهامهم في إمكان
الوصول بسلام الى باريس . ولكن نابليون ظل يتقدم نحو
صفوف الحكومة حتى اقترب منها . ثم أوقف جنوده القلائل
وانطلق هو على ظهر جواده حتى أصبح على بعد خطوات منها .
وكان اذ ذاك يلبس قبعته العريضة وبذلته الرمادية التي لم يكن
يجهلها أحد من أهل فرنسا . فنزل عن جواده وسار الخطوات
الباقية على قدميه . ثم كشف عن صدره قائلا : « أيها الجنود ! إن

كان بينكم من يريد قتل امبراطوره فهذا صدرى مفتوح له ،
وكانت جرأة عجيبة أذهلت الجنود عن واجبهم الذى سيرتهم
الحكومة من أجله . فنكس أحدهم بندقيته فتبعه ثان وثالث
ثم ما لبث أن وقف الجميع أمامه مشدوهين . وصلاح صائح
من جانب رجال نابليون قائلاً :

— « ليحي الامبراطور ! »

فكأنما فك الطلسم الذى ختم على أفواه القوم فاندفعوا
يضعجون بهتاف بشق اطباق الفضاء — « ليحي الامبراطور »
— وأحاطوا بنابليون يقبلون يديه ورجليه ويعانقونه .
وانعكست الآلة على البريون وتعززت قوة الامبراطور بمن
انضم اليه فى ذلك اليوم من جند الحكومة . فوالى زحفه
يتقدمه طالعه السعيد . ويعززه هذا الروح الحى الشديد .

أما لويس الثامن عشر فقد تحاذل عندما بلغت طلائع هذه
الأخبار المزعجة ولم ير أمامه إلا شقيقه الكونت دارتوا
Comte d'Artois فوكل اليه أمر الدفاع عن المملكة والوقوف
فى وجه نابليون ولكنه فكر أيضاً فى الماريشال ناى الذى أفسم
بين الولاء حديثاً للحكومة وللجديدة والذى لا يقل فى كفايته
وتشهرته ومكاته بين رجال الجيش عن نابليون فاستدعاه



العودة من جزيرة إلبا

وافضى اليه بثقته التى لا حد لها واستودعه آماله وملكه قائلاً :

« إني لا أعتد في هذه الضائقة إلا عليك ؟ »

وكأنما صادفت هذه الكلمات الوتر الحساس من نفس الماريشال فألهته عن حقيقة الموقف وأنسته مقدار تعلق الشعب بنابليون وسخطه على الحكومة . وجعلته يندفع مؤكداً للملك وثوقه من النصر وأنه « سيضع نابليون في قفص من حديد يجره به الى باريس ! »

وسافر ناي فعلاً وهو على هذا الرأي . ولكنه ما لبث أن تبين الحقيقة وخاب أمله في النجاح إذ رأى روح التمرد والعصيان سائدة على الجنود الذين باتوا يحنون الى اميراطورهم العظيم . ورأى نابليون يثير الحماسة أينما سار وتلهب طلعه النفوس حيثما حل . وما هو إلا أن يلوح للجماهير يده أو أن يخاطبهم بكلمة من الكلمات التى يعرف كيف يتخيرها حتى تنطلق الألسنة هاتفة باسمه والأكف مصفقة له والأقدام جارية فى ركابه . وهو يتنقل بأتباعه من بلد الى بلد فى سرعة لم تبق فى نفوس الملكيين على أمل . وزاد فى حرج موقفه ما وصل الى علمه بعد ذلك مباشرة من أن مدينة ليون استسلمت لنابليون من غير قتال وأن الكونت دارتوا انسحب بغير

مقاومة وأن جزءاً كبيراً من جيشه هجر المعسكر لينضم الى جيش الامبراطور وراجت في نفس الوقت اشاعة مؤداها أن الملك قد هرب من باريس ناجياً بنفسه هو ومن لحق به من أعضاء البيت المالک .

وكان رسل نابليون يسبقونه الى المدن فينبثون فيها مروجين له . داعين الى الالتفاف حوله . فوجد بعضهم على تاي وهو في هذا الموقف العجيب الذي وضعته فيه الظروف . واصله رسالة كان يحملها اليه من الجنرال برتران . فقرأ فيها ناي :

« إن المقاومة جهد ضائع فخير لك أن لا تحاول المستحيل . وان الامبراطور قد غادر جزيرة البا باتفاقه مع حكومتى النمسا وانجلترا . وأن هاتين الحكومتين رضيتا أن يعود الى عرشه بعد أن وضعتا وایاه تسوية شاملة لجميع أنواع الخلاف التي كانت تجر الى الحروب والى تعكير صفو السلام فلا مجال الاذن للخوف من أن يعود الامبراطور فيجر فرنسا وراءه الى حروب لا نهاية لها . وأن الملك مورا صهر نابليون يسير في طليعة جيش كبير يشد به أزر الجيش الامبراطورى . فمن المعبث اذن أن تعتمد الى مقاومة مقضى عليها بالفشل . بل ان

من الأجرام أن نسوق فرنسا الى حرب أهلية لا تسيل فيها
غير دماء الفرنسيين . »

وأحدثت الرسالة أثرها في نفس ناى فلم يعد يرهق نفسه
بتلك الاعتبارات التى كان يريد أن يتقيد بها لاسيما بعد أن
رأى لويس الثامن عشر نفسه يبادر بالفرار هو وأهله مع
أن بينه وبين نابليون مسيرة يومين كاملين .

وسار الماريشال بنفسه الى بلدة أوكسير حيث التقى
بنابليون فلما دخل عليه لاقاه بالعناق كأن عهد الملكية لم
يفصل حيناً من الدهر بين الرجلين أو كأن عودة الملكية
الى فرنسا - كما يقول بعض الكتاب - كانت فوسا فتح ثم
أقفل ولم يترتب عليه شيء .

ولم يبق بعد انضمام ناى الى نابليون الا مواكب
الاستقبال، وحفلات الترحيب . التى كان يتبارى الشعب في
اقامتها لزعيمة المحبوب وأخيراً أشرف الأمبراطور على
باريس فخرج للقاءه الباريسيون وحملوه على أكتافهم وذهبوا
به الى قصر التويلرى فدخله نابليون دخول من غاب عن بيته
أياماً في رحلة قصيرة ثم لم يلبث أن عاد اليه من جديد .

وليس أفكه في هذا المقام من تتبع عبارات الصحف

وهي تروى انباء عودة نابليون الى باريس . ونحن نورد هنا
كلمات مقتبسة منها ليرى القارى فيها سرعة التطور الذى
كانت تتأثر به الأذهان فى ذلك الحين :

— فر « الشيطان » من معقله وغادر منفاه

— نزل اليوم « الذئب الكورسيكى » فى مدينة كان

« Cannes » . . .

— شوهد « النمر أخيراً فى كاب « Cap » . وقد سيرت
الجيش للقاءه وسوف ينتهى الى أتعس ما تنتهى اليه حياة
قطاع الطرق ورواد الجبال

— تملن « الوحش » من الوصول الى جرينوبل بفضل
خيانة الجنود . . .

— مر « الطاغية » بمدينة ليون والرعب سائد على الجميع . . .
— تقدم « الغاصب » حتى لم يبق بينه وبين العاصمة الا
ستين ساعة

— يسير « بوناپرت » بخطوات ماردة ولكنه لم يدخل
باريس

— سيكون « نابليون » غداً على أبواب المدينة

— وصل حضرة « صاحب الجلالة » إلى فونتنبلو ؟

الباب الثاني

حكومة الايام المائة

١٩ مارس — ٢٢ يونيه سنة ١٨١٥

الفصل الأول : تغير نابليون

» الثاني : ووترلو

» الثالث : نابليون بعد الهزيمة

الفصل الأول

تغير نابليون

لما دخل الحلفاء باريس في شهر مارس سنة ١٨١٤ ونزل لهم نابليون عن الملك عقدوا صلحاً مع فرنسا يعرف في التاريخ باسم « صلح باريس » وقد سويت في هذا الصلح العلاقات بين فرنسا من جانب والحلفاء من جانب آخر . وكان الحلفاء أسخياء الى حد ما مع فرنسا . فلم يفرضوا عليها غرامة ما . ولم يحتلوا شيئاً من أرضها . بل إنهم تجاوزوا لها عن بعض فتوحاتها التي تمت لها في عهد الثورة فقررُوا أن تتمتع بحدود سنة ١٧٩٢ وهي تفضل حدود سنة ١٧٨٩ باشتغالها على أفنديون وبعض بلاد أخرى . وكان السبب في كل هذا التسامح من جانب الحلفاء أنهم اعتبروا الحرب التي كانت تشغلهم حرباً مع شخص نابليون لا مع

فرنسا . فلما اعتزل نابليون الملك لم يكن ثمت ما يدعو الى التشدد مع فرنسا نفسها .

ولكن الأمور ما كادت تستقر في فرنسا على هذا الأساس حتى واجه الحلفاء بعضهم بعضاً يطلبون تسوية الشئون المتعلقة بينهم . فتقرر عقد مؤتمر جامع في مدينة فينا للنظر في تلك الشئون والعمل على تسويتها وإيجاد حل لمشاكلها . وكان برنامج هذا المؤتمر في الواقع لا يبشر بنىء كثير من النجاح . فأن الدول ما كادت تتخلص من نابليون حتى أسرع كل منهم يدعى أنه صاحب الفضل الأول في ذلك ويطالب أصحابه بأن يكون نصيبه من الغنائم متفقاً مع جهوده وتضحياته . متناسباً مع حسن بلائه . وبرز قيصر روسيا يقول لزملائه انه هو الذى كسر شوكة نابليون . فينبغى أن يحامله الحلفاء في تنفيذ سياسته الاستعمارية في الشرق . فانبرت له انجلترا تقول : بل انها هى التى تحملت ويلات هذه الحرب أكثر من أية دولة أخرى . وضحت على مذبحها بالنفس والنفيس . فلا يجوز أن ينقدم على نصيبها في الغنيمة نصيب آخر . وقالت النمسا انها هى الضحية الوحيدة التى يجب أن تتنحى لها كل دول أوربا عن كل ما من شأنه أن يعيد اليها كيائها وسلطانها

وتقدمت بروسيا أيضاً بمثل هذا الكلام - وكانت مهمة المؤتمرين في فينا أن يتفاهموا على هذه الدعاوى المتنافرة وأن يقربوا بين وجهات النظر المتقابلة . فكانت في الحق مهمة شاقة لا تدعو الى التفاؤل والاستبشار .

على أن الحلفاء لم يكونوا يحسون أن هناك ما يدفعهم إلى الاستعجال . فتباطؤوا في عقد هذا المؤتمر . ولما تقرر افتتاحه انقضت الأسابيع الأولى على انعقاده في اقامة حفلات التكريم . وفي تهيئة الجو الصالح لحسن التفاهم . بتبادل الزيارات وعمل الرحلات . وأخيراً (في شهر نوفمبر سنة ١٨١٤) بدأ أعضاء المؤتمر ينظرون فيما بين يديهم من المشاكل الجديدة . وانقضت أسابيع أخرى فيما أشرنا إليه من التناجد والتنابد . ولما اشتد تنافس المندوبين وازداد تغاليهم في مطالبهم وتعقدت بينهم الأمور بحيث لم يعد لأحد أمل في تفريجها فوجئوا بخبر فرار نابليون من البا ووصوله الى باريس . فكان ذلك هو الحل الطبيعي الوحيد الذي أعاد اليهم وفاقهم . والذي جمعهم مرة أخرى حول غاية واحدة - هي الوقوف في وجه نابليون من جديد !

وكان نابليون منذ عاد من الباق قد أدرك أن فرنسا التي جاء يواجها كانت غير فرنسا التي خلفها قبل سفره . وأن العهد عهد دستور لا يسمح بدكتاتوريته الأولى فأسرف في الوعد بالأصلاح ومنح الحريات الدستورية في كل نواحي العمل . ولم يفته أن دول أوروبا سوف تتألب عليه مرة أخرى مهما حسنت نيته لهم ومهما سعى الى التفاهم معهم . فكانت مهمته الأولى أن يستعد للقاءهم ويتأهب لدفع عدوانهم . بيد أن نابليون نفسه كان قد طرأ عليه من التحول والتغير مثل ما طرأ على فرنسا . فلم يعد هو نابليون الذي غادر فرنسا منذ عام واحد فقط . إذ كانت الحوادث الأخيرة قد أثرت في أعصابه فأرختها وأجهدتها . وأصبح بفضل هدوئه النسبي في إلبا بدينا ثقيلا الحركة لا يقدر على المشى ولا يستطيع الركوب . ويقول أطباؤه إن تجافيه للركوب في مدته الأخيرة كان بسبب إصابته بالبواسير من جهة وتشنج المثانة من جهة أخرى . وهكذا بدأ الانحطاط يظهر على كل قواه . وأصبح يميل كثيراً إلى النوم . وهو الذي لم يكن ينام أكثر من أربع أو خمس ساعات كل يوم . وكانت تعرض له أشباح حوادث المستقبل بصور مخيفة لضعف أعصابه . فيتخيل فرنسا

مقهورة مغلوبة على أمرها فیرتعش لذلك بدنه . ويتألم فكره .
ولا يجد سيلا الى ابعاد هذه التخيلات إلا بالنوم . ولحسن
حظه أن النوم كان يواتيه في مثل هذه المواقف التي ينفر
•ها عادة ويتجافى عن العيون

الفصل الثاني

ووترلو

نابليون بونابرت السلم :

كان أول ما فعله نابليون بعد عودته الى باريس أن جلس الى مكتبه في قصر التويلري . ثم أمر بأن تبسط أمامه خريطة فرنسا . ولم يكديستقر بصره على حدودها الجديدة حتى قال :
« مسكينة يا فرنسا ! »

ثم التفت الى كولنكور قائلاً :

« لقد ظللت طول الطريق أعلن عن عزمي على الاستمساك بالسلم . وأعرب عن استعدادي للاعتراف بشروط معاهدة باريس . فأقبل بذلك ما لم أقبله قبل رحيلي إلى إلبا . وذلك لأن فرنسا كانت ملزمة في ذلك العهد بأن تقوم بتضحيات كبيرة . وها هي قد قامت بها فعلاً . فلم يبق لمثلي إلا أن يقبل الحالة على ما هي عليه . »

وهكذا كان يغالط نابليون نفسه في مبدأ الأمر فيحدث
عن إمكان التفاهم مع أوروبا من غير الدخول في حرب جديدة
وكان ذلك منه طبيعياً فإنه لم يكن في حالة تسمح له بالتفكير
في الحرب أو التهيؤ لها .

غير أن الحلفاء كانوا أكثر منه صراحة في التعبير عن
خواطرهم أزاء عودته الى فرنسا . فأنهم لم يترددوا في اصدار
القرار التالي في أول جلسة عقدها «مؤتمر فينا» بعد أن وصلته
أخبار هذه العودة .

— « إن ملوك التحالف يعلنون للعالم بمناسبة هرب
نابليون بونابرت من الباء وعودته الى فرنسا أنه خسر بهذا
العمل حقه الوحيد في البقاء كما أن عودته الى فرنسا بنية
إثارتها وقلب نظامها قد حرمته حق التمتع بحماية القوانين
وجعلته في نظر العالم أجمع بمنزلة لا يحق له معها ان يطمع في
صلح ولا أمان . وتعلن الدول بناء على ذلك أن نابليون
بونابرت قد خرج بنفسه عن دائرة العالم المتمدن . وأنه
بوصف كونه عدواً للعالم وعاملاً جوهرياً لاخلال الأمن فيه
قد استحق أن يكون موضع انتقام الجميع . »

وكان تعبير الحلفاء في الواقع أصدق تعبير لما كان يحسه

نابليون ويريد أن يتجاهله . فأن انجلترا وبقا دول أوربا التي أنفقت في سبيل التخلص منه أكثر من ثمانمائة مليون من الجنيهات . وبذلت ما لا يقل عن مليونين من الأنفس لم تكن لترضى أن تقف في آخر الأمر مكتوفة الأيدي أمام الأمر الواقع الذى كان يريد أن تقبله . ولذلك اتفق الحلفاء فيما بينهم على أن يبدءوا بجمع نحو مليون مقاتل ثم يتعهد كل واحد منهم جيوشه بما يكفل لها التفوق على جيوش نابليون « حتى يصبح عاجزاً تماماً عن تكدير صفوف الأمور من جديد »

الحلفاء يستعدون للقتال

واستشير دوق ولنجتون فى رسم خطة القتال فأشار بأن يقسم الحلفاء جيوشهم الى ثلاثة أقسام :

أولها — يطبق على فرنسا من جهة الشمال (بلجيكا) ويكون مؤلفاً من جيوش بروسيا وانجلترا .

وثانيها — يزحف على فرنسا من الشرق ويكون مؤلفاً من جيوش بافاريا والنمسا

وثالثها — يزحف عليها من الجنوب الشرقى ويكون مؤلفاً من جيوش روسيا

وتقرر ان تبدأ جيوش القسم الأول بالهجوم فوراً
ريثما تتم تعبئة جيوش القسم الثانى . أما الجيوش الروسية
التي يتأخر وصولها لطول الطريق وصعوبة المواصلات . فأنها
تكون آخر من ينزل الميدان .

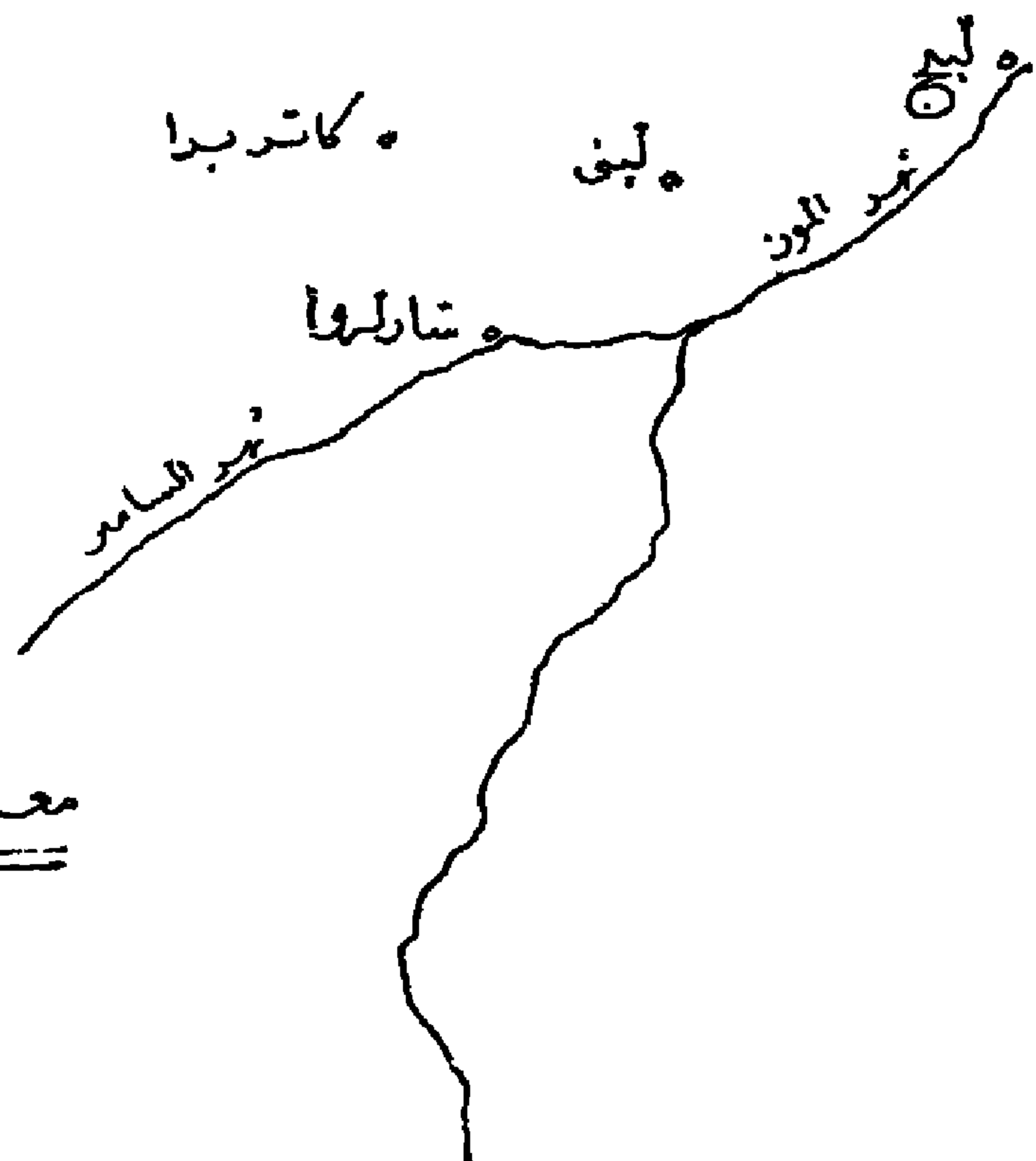
على أنه لم يقدر لأحد من رجال القسمين الآخرين
الاشتراك فى هذه الحرب . فأن المعركة الفاصلة وقعت مبكرة
فى الميدان البلجيكي . اذ علم نابليون بأنه قد اجتمعت فعلا
تحت قيادة ولنجتون Wellington فى بلجيكا طلائع جيوش
الحلفاء وأنه شرع يزحف بها جنوباً نحو الحدود البلجيكية
الفرنسية بينما كان بلوخر البروسى على رأس قوة أخرى
قاعدتها نهر الرين . وهو يجد زاحفاً بها نحو الغرب كما
يتصل بجيوش ولنجتون فلم ير نابليون خيراً من أن يسرع
الى لقاء هذين الجيشين والقضاء عليهما قبل أن يتصل أحدهما
بالآخر . وقبل أن تتم أهبة الجيوش الأخرى ما بين النمساوية
وروسية . وغادر باريس فى يوم ١٢ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد
يومين كان يعسكر على مقربة من شارلروا . وفى اليوم التالى
(١٥ يونيه) تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة .

أنقرین .

هولندرا

■ بروکسل
کالچي

• ووترلو



معركة ووترلو

معركة لينى Ligny

ويجب قبل بدء المعركة ان نبين كيف كان موقف كل واحد من هذه الجيوش بالنسبة للجيش الآخر في ذلك اليوم :
فأما البروسيون بقيادة بلوخر فكانوا مبعثرين على نهر الموز عند ليج — وأما وانجتون فكان يسوق رجاله جنوبا من بروكسل نحو كاتربرا . وقد عرفنا مما سبق أن نابليون كان عند شارلروا . ولما تبين نابليون موقف خصومه رسم خطته كالآتي :

(يسير جرونى) شرقا للقاء (بلوخر) والقضاء على جيشه .

ويسير (ناى) شمالا بغرب للقاء (وانجتون) ومنعه من التقدم وامداد البروسيين

وقرر أن يبقى هو بين الجيشين ومعه قوة احتياطية يمد بها من يحتاج الى معوته من جناحيه . على أن الذى قدره نابليون لهذا القتال أن جروشى سوف يتمكن وحده من القضاء على بلوخر وعند ذلك تتاح له هو الفرصة لينقض بقوته الاحتياطية على الانجليز بمعونة ناى فيكسر جيوشهم

ويدخل بروكسل. وقد ضرب نابليون بينه وبين نفسه موعداً لدخول هذه المدينة يوم ١٧ يونية. ولم يكتف برسم هذه الخطة في دائرة فكره وخياله. بل انه أخرج دقائقها الى حيز الفعل والتنفيذ فطبع المنشورات التي سوف يذيعها من بروكسل عند ما يدخلها ليعلن فيها لأهل باريس أخبار انتصاره وفوزه.

على أن نابليون لم يهجم فوراً كمعادته بل أضاع بقية اليوم الخامس عشر في استعراض جنوده. ولم يعبر نهر السامر الا في اليوم السادس عشر وكان ذلك كافياً لأن يستعد له بلوخر اليقظ الذي انتهاز فرصة هذا التأخير وجمع جنوده عند مدينة ليني. فلما شرع نابليون في تنفيذ خطة الأمس رأى أن البروسيين قد اجتمعوا أمامه في جبهة واحدة متماسكة. فعدل خطته على الفور وقرر تطويقهم وسحب ناي من الميدان الغربي موقفاً للاشتراك معه في هذه الحركة. ودارت معركة ليني بين الفريقين واصطدمت فيها عزمة نابليون على أن يشق طريقه نحو المجد من جديد ويغسل عن نفسه عار الغلبة وذل الأسر بعزمة البروسيين على الدفاع عن كيانهم والحيلولة بين نابليون وبين التحكم في مصائرهم. فكانت معركة رهيبية

عنيفة لا نغالى إذا قلنا أنها كانت أعنف المعارك التى خاضها نابليون . . .

ودامت المعركة من الساعة الثالثة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء وتم النصر فيها لنابليون . ولكنه كان آخر نصر قدر له أن يلقاه . واندحر البروسيون فيها « اندحارا لا يتصوره العقل » كما يقول بعض المؤرخين . ولكن عظمة بلوخر تجلت فى ثباته المدهش الذى أبداه عقب هذه الهزيمة فإنه تمكن من تنظيم فلول قوته . واعادة شىء من التماسك اليها . وتقهر بما بقى منها بانتظام كان له أثره المباشر الغريب عندما دارت المعركة التالية بين ولنجتون ونابليون بالقرب من ووترلو كما سنبين فى هذه السطور

وقضى الفرنسيون ليلة السابع عشر وهم يحملون أسعد الأحلام عن ذلك المستقبل البسام الذى عاد اليهم بطلمح المحبوب لأحيائه والذى كانت معركة لىنى فاتحة لعمره . وباتوا وهم لا يدرون أن هذه الومضة الخلافة انما كانت تخفى وراءها تلك النكبة العظمى التى لم يكن بينهم وبينها أكثر من ثمانى وأربعين ساعة . والتى تفرق بعدها شملهم وتصدع بنيانهم وسقط عاهلهم وحمل الى أقصى الأرض ليجتر وحده

ذكريات الماضي الأليمة . وليختم أنصع حياة عرفها التاريخ
بأسود ساعات سجلها التاريخ .

معركة ووترلوه

كان من أثر ذلك الركود الذى كانت نوباته تعترى
نابليون بعد عودته من الباطل على ما وصفناه فى الفصل السابق
أنه عاد لليرة الثانية يضيع وقته الثمين ويبدد الساعات الطويلة فى
السكون والهدوء بينما كان خصومه ينتفعون بالثوانى ويستغلون
اللحظات . فإنه أخذ بعد معركة ليني يطوف راكبا حول
ميدان القتال وهو يحدث قواده عن الحالة السياسية فى باريس .
وذهب فى تهاونه وتراخيه إلى حد أن فكر فى تسريح جيشه
يوما كاملا للراحة .

ولعله من سوء حظ فرنسا أن عاود المرض نابليون فى
نفس تلك الليلة التى تم له النصر فيها على البروسيين . فلقد
كان احساسه بالفتور والمرض هو الذى أوحى إليه بتلك
الراحة التى فكر فى منحها لجيشه . وهو الذى كفه عن مطاردة
فلول البروسيين عقب هزيمتهم مباشرة والأيقاع بمن بقى
عنهم بعد المعركة حتى لا تقوم لهم من بعد يومهم ذاك قائمة

وترتب على هذا المرض المفاجئ أن أتاحت الفرصة لبلوخر
فجمع شمل رجاله وسار بهم شمالاً يحاول الاتصال بولنجتون
بينما كان نابليون يعتقد خطأ أن الجيش البروسي أصبح جيشاً
مقهوراً مفروغاً من أمره . ولذلك لم يرسل خلفه (جروشى)
لمطاردته والقضاء على أنقاضه الا عند ظهر يوم ١٧ . وزاد
الطين بلة أن هطل المطر غزيراً طيلة ذلك اليوم . فلزم نابليون
فراشه وأضاع ذلك اليوم أيضاً فى جملة ما أضاع من الوقت
أما ولنجتون فإنه بعد أن وصلت أخبار ليني كان قد قرر
الانسحاب شمالاً وإخلاء بروكسل أمام نابليون . ولكنه لما
عرف بعد ذلك من بعض رسله بأن (بلوخر) لا يرتد إلى
نهر الرين — كما كان يتوقع هو ونابليون معاً — وإنما هو
يزحف إلى مدينة وافر ليتصل بالجنح الأيسر للجيش
البريطانية قرر الثبات فى مركزه عند «مون سان جان» حتى
يصله المدد البروسى ما دام فى ذلك إبقاء على بروكسل وما
خلفها من خطوط القتال .

وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم الثامن عشر من
شهر يونيه سنة ١٨١٥ انقطع المطر الذى استمر طول اليوم
السابق . وكان حقاً على نابليون أن لا يضع بعد ذلك دقيقة

واحدة . ولكن ضباط مدفعيته قرروا له بأن حالة الأرض
لمن تسمح باستعمال مدافعهم على الوجه الأصح قبل أن تجف
الأرض قليلا . فأخذ بمشورتهم . ولم يبدأ هجماته إلا في
منتصف الساعة الثانية عشرة ظهراً . وعند ذلك استمات له
ولنجتون ورجاله وبدأ نابليون بحس بحرج الموقف حيث
كانت قد نمت اليه بعض أخبار بلوخر وعلم من كشافته أن
المطر والأحوال التي عطلته هو عن الهجوم حتى الظهر لم
يعرها بلوخر العاني اهتماماً كبيراً وظل يخوض غمارها جادا
مثابراً هو ورجاله حتى أشرف على الميدان أو كاد . وعند
ذلك ضاعف نابليون حدته وأرسل على جيش ولنجتون
ما بين الساعة الرابعة والسادسة بعد الظهر أربع هجمات عنيفة
كبدت الانجليز خسارة طائلة ولكنهم لم تفلح في إجلائهم
عن مواقعهم إلا أشباراً محدودة . وبات الفرنسيون ولا أمل
لهم في التغلب على خصومهم إلا إذا ساعدتهم المقادير بأن
يرجع اليهم جروشي بقوته التي كان يطارد بها البروسيين .
وعاد الجيشان يشتبكان ويفترقان ويهجم من يهجم فيهما فلا
ينتصر . ويدافع من يدافع فيهما فلا ينكسر الى أن تخرجت
بينهما الحال أعظم تخرج . وتعادلت كفتاهما بحيث أصبح الترجيح

بينهما موقوفاً على أتفه الأسباب . وعند ذلك سمعت من جهة الشرق طلقات كثيرة . فاستبشر الفرنسيون وصاحوا قائلين :
— « هذا جروشي ! الانتصار ! الانتصار ! »

غير أن هذه الطلقات لم تكن في الواقع الا طلقات خمسين ألف جندي بروسي وصل بهم (بلوخر) الى الميدان في تلك الساعة من النهار . فأدرك نابليون لأول وهلة ما في الموقف من حرج بالغ . ولاح له شبح ماضيه المجيد وهو يوشك أن يندك في هذه المعركة الفاصلة . ورأى بعين خياله ما في المستقبل من ظلمات ومخاوف فلم يجد أمامه من أمل باق إلا رجال حرسه الامبراطوري الخاص الذين كان يضمن بهم أن ينزلوا أى ميدان من ميادين القتال . فرتب أولئك الفدائيين الأعزاء في صفين وسلم قيادتهم للمارشال ناي ثم امتطى صهوة جواده ورافقهم هو بنفسه مسافة طويلة وهو صامت لا ينبس ببنت شفة حتى بلغ النقطة التي رأى أن يفارقهم عندها الفراق الأبدى . ثم رفع يده وهو ما يزال على صمته المطبق وأشار اليهم بسبابته نحو الانجليز . كأنما يريد أن يقول لهم :
« هذا هو طريق خلاصكم الوحيد . فضحوا بالحياة في سبيل استبقاء الشرف ! »

عند ذلك صاح رجال الحرس بصوت واحد Vive ،
l'Empereur ، وانحدروا كالسيل الدافق الى الوانى . وظلوا
يكافحون الانجليز لغاية التاسعة مساء . وقد فنت صفوفهم
ولم يبق منهم الا أفراد قلائل تحت قيادة الجنرال كامبرون
Cambronne وكان من المحقق ان يلحقوا قريباً بأخوانهم
الذين سبقوهم وكان كامبرون نفسه مصاباً بستة جروح خطيرة
تنزف منها دماؤه . ولكنه ظل مع ذلك يدافع ويقاقل حتى
أشفق عليه أعداؤه أنفسهم . فأرسلوا اليه راية بيضاء يعرضون
عليه الهدنة والتسليم هو ومن بقى معه إبقاء على أرواحهم .
فما كان منه إلا أن قال كلمته التاريخية الخالدة :

« ان الحرس يموت ولكنه لا يُسلم »

وكأنما عز على نابليون أن تكون هذه المحنة الأليمة
خاتمة رجاله البواسل . وقد وقف كل واحد منهم يقاقل
ثلاثين من رجال العدو فاستل سيفه وسار على رأس من
بقى معه قائلاً :

— « لقد طاب الموت اليوم أيها الرفاق ! »

فأسرع اليه سولت وأمسك بزامم جواده وهو يقول :

— « ماذا تريد أن تصنع يا مولاي ؟ أفرأيت حظ الأعداء



«الحرس يموت»، «ولكنه لا يسلم»

ناقصاً فأنت تريد اليوم أن تتمه عليهم ! »
ولوى عنان الفرس به وتمكن هو وبقية القواد الحاضرين
من رد نابليون بعد الجهد الجهد . فخرج من آخر ميدان
قدر له أن يخوض غماره وهو يقول : لقد خسرنا كل شيء
الا الشرف !

أما بقية القصة التي يرويها التاريخ عن ليلة ووترلو المشهورة
فقد سطرها بلوخر بسيوف جنده في رقاب الهاربين والملهوفين
من، انقاض القوة الفرنسية . وأحس كل جندي بروسى في
تلك الليلة العظيمة بأنه قد اقتص لنفسه ولوطنه من الفرنسيين
وأنه قد وفي نفسه حقها من التشفى والانتقام !

الفصل الثالث

نابليون بعد الهزيمة

خسر نابليون معركة ووترلو . ولكنه لم يخسر فيها شيئاً من سمعته الحربية أو الفنية . فقد أجمع الثقات على أن خطة القتال كانت من أبرع الخطط وضعا وتصميا وأنها إنما خابت في اخراجها وتنفيذها . وانهزم الفرنسيون في تلك المعركة ولبكنهم لم يسجلوا لأنفسهم صحيفة أبهى ولا أنصع منها في تاريخ جهادهم وشجاعتهم . ومات جنود نابليون في ميدان ووترلو زرافات ولكن لم يكن بين من مات في ذلك اليوم من الفرنسيين من لم يعرف كيف يشهد العالم على أن في الموت أحياناً من الشرف ما لا يجده الإنسان كثيراً في الحياة .

ولقد أشرنا غير مرة الى ما جد على نابليون أثناء وجوده في البا من الترهل والسمن وما أعقبه ذلك فيه من ضعف الهمة وكلال العزيمة . وبيننا كيف أنه أصبح كثير

النوم طويل الغيوبة بادی الفتور غير أنه ما كاد يلج ميدان القتال في بلجيكا حتى تنبّهت فيه كوامن طبيعته وأخذت تتجلى فيه صفاته القديمة تباعاً حتى كان صباح يوم ووترلو فاذا هو قد عاد سيرته الأولى من النشاط الخارق والهمة الحادة التي لا تعرف الملل ولا السكّال . وعلى الرغم من توقعه يوم ١٧ يونية فإنه استيقظ في اليوم التالي (وهو يوم ١٨ يونية الذي دارت فيه معركة ووترلو) في الساعة الواحدة صباحاً وطاف بمواقف الجيش الأمامية ثم عاد في الساعة الثالثة فسمع تقارير الكشف والعيون وأصدر أوامره الجديدة . وفي الساعة التاسعة صباحاً ركب الى ميدان القتال حيث اتخذ لنفسه مقعداً وراء قلب صفوفه وبسط أمامه خواناً نشر عليه خرائطه وأمسك في يده مرقباً يرقب به حركات جنوده . ووقف الى يساره الجنرال سولت يتلقى أوامره فيرسلها سراعا الى بقية الضباط لتنفيذها وظل على هذه الحالة منذ نشبت المعركة قرب الظهيرة حتى أذنت الشمس بالافول . وأقبل الليل بعد ذلك وفي ركابه بلوخر ورجاله . وكان ما كان مما نشرناه في الفصل السابق . ولما انكسر الجيش ذلك الانكسار الذي لا يجبر بذل نابليون

كل ما في وسعه ليلم شعث الهاريين ولكنه حاول ذلك عبثاً.
فأن العنف الذى كان يطارد به (بلوخر) فلول الفرنسيين
لم يترك مجالا للم الشعث أو ضم الصفوف. ولقد ظل نابليون
فى يوم المعركة أكثر من أربع وعشرين ساعة من غير أن
ينال أدنى قسط من الراحة فضلاً عن انه بقى على ظهر جواده
أكثر من سبع وثلاثين ساعة فى خلال الايام الاربعة
الحرجة التى استغرقها القتال (من ١٤ — ١٨ يونية سنة
١٨١٥)

ولعل هذا الجهد الشاق قد استنفد ما بقى فى جسم
نابليون من النشاط . فإنه عاد بعد الهزيمة الى غيبوبته الأولى .
ويقول أحد من رآه غداة وصوله الى باريس (٢١ يونية)
أنه كان فى ذلك اليوم أشبه الناس بالمجانين . يضحك طوراً
بقهقهة عصبية كأنها خلجات المتشجنين ثم لا يلبث أن يصيح
قائلاً : يا إلهى ! يا إلهى ! وهو رافع عينه الى السماء . ثم ينكفىء
يدور حول جدران الغرفة كما تفعل الوحوش فى حدائق
الخيوان . وأخيراً قر قراره وهدأت حركاته ولكنه دخل
فى بحران عميق . فكان حوله أصدقاءؤه وأنصاره يهيبون به أن
يعمل عملاً لتلافى الخطر المحدق بالبلاد . وأحاط الشعب بقصر

الاليزيه يناديه ليتولى قيادته كي يقوم بثورة يعقوبية أخرى يصد بها زحف أوربا على الحدود الفرنسية، ولكنه لم يكن يستجيب الى أولئك ولا الى هؤلاء. ووقع صك تنازله عن الملك من جديد بناء على طلب الهيئتين النيابيتين (٢٢ يونية) وبقي فيما هو فيه من الذهول حتى تشكلت حكومة مؤقتة في باريس برئاسة (فوشه) لحل محل حكومته. ثم لم يلبث أن طلب اليه رئيسها مغادرة باريس فوراً. فرحل عنها وذهب يقيم في قصر الميزون حيث كانت تقيم زوجته الاولى جوزفين بوهارنيه. على أنه لم تطل اقامته في هذا القصر اذ علم أن الجيش الالماني قد دخل الحدود الفرنسية ومع قواده التعليمات المشددة بالقبض عليه حياً أو ميتاً. ففكر في السفر الى أمريكا ليقضى فيها بقية أيامه. وقصد فعلاً الى ميناروشفور (٣ يولية) ليركب البحر منها الى الدنيا الجديدة. ولكنه وجد مياها تعج بالمراكب البريطانية التي وقفت لحراسة الشواطئ الفرنسية والخيولة بينه وبين الفرار. وفي ٩ يولية أمرته الحكومة المؤقتة بمغادرة فرنسا في ٢٤ ساعة فأشار عليه بعض انصاره ان يسلم نفسه لربان إحدى هذه المراكب ليحمله الى البلاد الانجليزية على اعتبار كونه

لاجئاً سياسياً . والعرف الدولي يقضى دائماً بقبول اللاجئين السياسيين وحماية أشخاصهم . فأخذ نابليون بهذا الرأي وعرض الأمر على الكابتن ميتلند ربان البلرفون

« Captain Maitland of the Bellerophon »

فقبل ميتلند نقله الى انجلترا ولكن السفينة ما كادت تبلغ مينا بليموث في جنوب انجلترا حتى كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أمراً باعتبار نابليون أسير حرب وقررت نفيه الى جزيرة سنت هيلانة .

وما كاد يصل ذلك الى علم نابليون حتى ثارت له ثائرتة وصاح قائلاً :

— « انى ضيف انجلترا ولست أسيرها . ولقد تقدمت بمحض ارادتي لأضع نفسي تحت حماية القوانين البريطانية . . . ولكن الحكومة بعملها هذا قد انتهكت حرمة قوانينها وضربت عرض الحائط بالقوانين الدولية . وأنكرت انكاراً صارخاً واجب الضيافة المقدس ! »

وصادف احتجاج نابليون عند بعض الشعب البريطانى آذانا ضاغية وبدأت بعض الصحف فعلاً تردد صدى شكايته فارتاعت الحكومة لذلك وخشيت أن تستفحل دعايته ضدها

فأصدرت أوامرها المستعجلة الى الباخرة « نورثمبرلند Northumberland » التي تقرر سفرها الى سنت هيلانة أن تنأهب للرحلة في أقصر وقت . فلم يملك نابليون أزاء هذه الاجراءات إلا أن يرسل الى الحكومة البريطانية احتجاجه التاريخي المشهور .

« انى أشهد العالم على احتجاجى هذا لما تتخذه الحكومة البريطانية معى من وسائل العنف ولانتهاكها أقدم حقوقى التى تمس شخصى وحرىتى لقد جئت بمحض اختيارى الى البلرفون فما أنا بأسير انجلترا ولكنى ضيفها . فأن كانت الحكومة حين سمحت لربان البلرفون بحملى الى أرضها لم ترمى الى أكثر من القاء شبكة تقتنصنى بها فأنها تكون قد خفرت ذمتها وودنت رايتهما .

وانى لأستشهد بالتاريخ ليسجل على صفحاته أن خصما ظل يحارب انجلترا عشرين عاما ثم أقبل من تلقاء نفسه يحتفى بقوانينها فلم تقابل انجلترا منه هذه الشهامة بأكثر من أن مدت له يدا مضيافة حتى اذا ما استسلم لها وهو واثق من كرمها غدرت به وأكلته غيلة واغتصابا

نابليون

فى ٤ أغسطس سنة ١٨١٥ عن ظهر البلرفون فى البحر

الباب الثالث

سنت هيلانة

الفصل الأول : لتجوود Longwood

» الثاني : هــسون لو Hudson Lowe

» الثالث : وفاة نابليون

» الرابع : نابليون يرقد على ضفاف السين

الفصل الأول

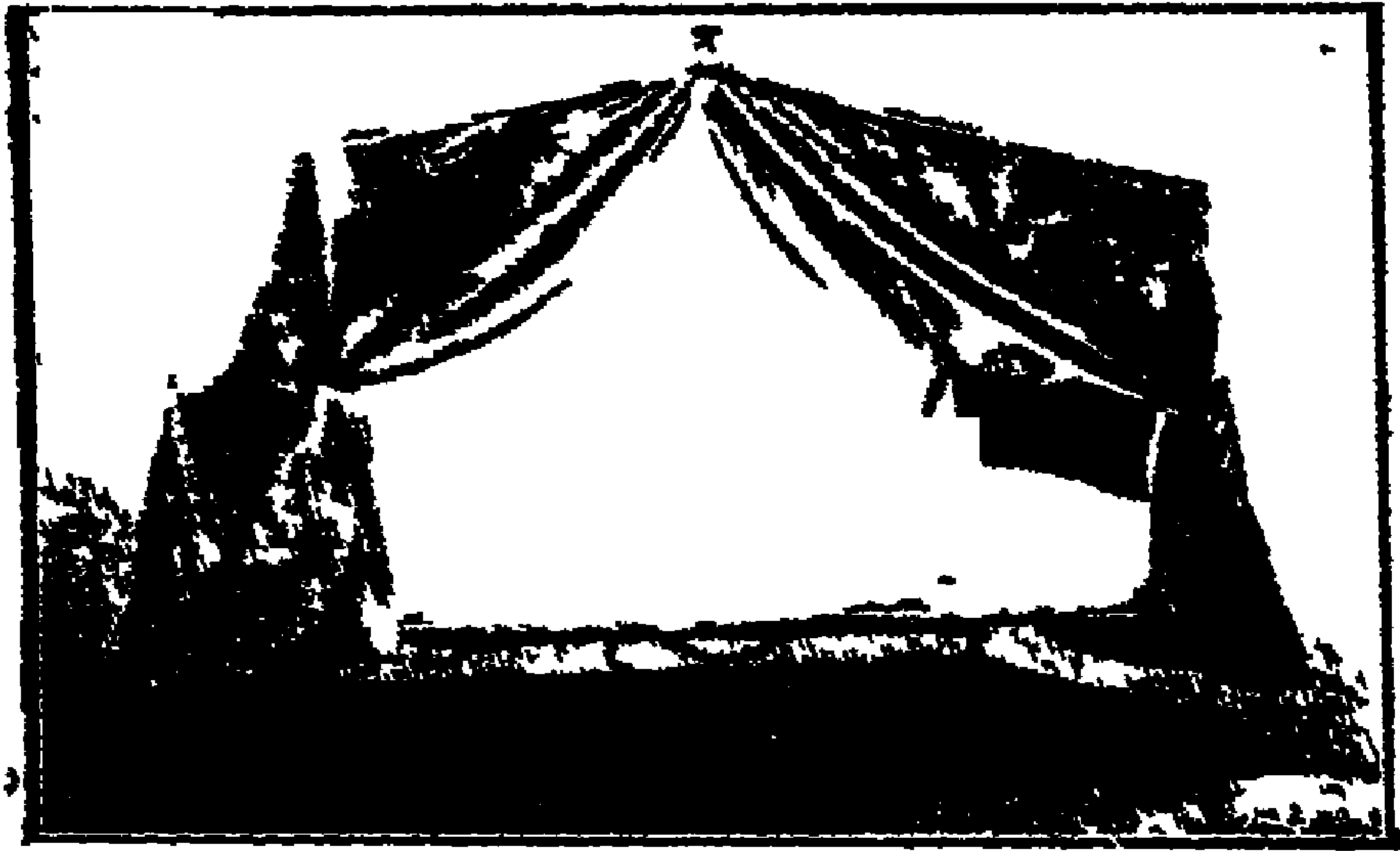
لنجوود

لم تثمر احتجاجات نابليون. وذهبت صيحاته كلها صرخة في
الراد. ولم ير بدا في آخر الأمر من الاستسلام لقضاء الله فرضه
لما جرت به المقادير وقابل بلواه بالصبر. وانتقل هو وحاشيته
التي اختارت البقاء معه إلى « النورثمبرلند » وفي ٨ أغسطس
أقلعت السفينة بشحنها الغالية ميممة نحو جزيرة القديسة هيلانة
وكان مع نابليون من أصدقائه الكونت مونتولون Montholon
وزوجته وولده والكونت برتران Bertrand وزوجته وأولاده
الثلاثة والبارون جورجو Gourgaud والكونت لاكاز
Las Casas والدكتور أوميرا O'Meara البريطاني الذي
استأنس له نابليون منذ عرفه على ظهر البلرفون. وبلغت الجماعة
كلها بالاختصار ٢٤ نفساً.

أما جزيرة القديسة هيلانة التي كانوا يقصدونها فهي
صخرة عظيمة نائمة في وسط الأوقيانوس تبعد عن أوروبا

بسته آلاف ميل وليس بينها وبين أقرب بقعة من أرض أفريقيا المجاورة لها أقل من ألف ومائتي ميل ولها جوانب منيعة تقوم في وجه الأمواج كأنها أسوار قلعة حصينة . وقد أصبحت الجزيرة بفعل هذه الجوانب التي تحول بين نسيم البحر وبين باطنها كالآتون المستعر لا سيما في فصل الصيف حيث تتكاثف الرطوبة مع الحرارة على إحداث جو خناق لا يمكن أن تترعرع فيه الأعمار وتبلغ فيه غاياتها الطبيعية . وكان تعداد أهل الجزيرة عندما سافر إليها نابليون نحو ٥٠٠ نفس من بينهم مائتان من الجنود وكان فيها ثلاثمائة أيضاً من العبيد ويقرر موثولون أنه لم يحدث أن بلغ أحد من سكان الجزيرة يوماً أو عبيداً سن الخمسين !

وبعد رحلة طويلة مرهقة استغرقت نحو سبعين يوماً ألقت النورثمبرلاند مراسيها (يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٨١٥) على صخور هذه الجزيرة . ونزل نابليون هو وجماعة من حاشيته فاستقلوا زورقا نقلهم إلى الشاطئ حيث دخلوا مدينة جيمستون — أستغفر الله — بل قرية جيمستون الحفيرة التي كانت وما تزال عاصمة الجزيرة والتي لم يكن بها إذ ذاك إلا شارع واحد .



سرير نابليون في سانت هيلانة

وفي غرفة غير مؤثثة بين أكواخ هذه القرية نزل نابليون
وكان يحمل معه سريره الحديدى الذى نام عليه فى ميدان
أوسترلتز . فنصبه له أصحابه وسط الغرفة ثم نثروا حوله
قليلاً من الأثاث الذى استعاروه خصيصاً من السفينة ليزينوا
به « غرفة الامبراطور » .

وكانت أوامر الحكومة البريطانية أن ينزل نابليون فى
بيت مهجور هناك يبعد عن جيمستون بنحو ثلاثة أميال .
وكان يعرف هذا المنزل بمنزل لونجود . ولكنه كان
خراباً يحتاج الى ترميم كبير . ويقال انه كان يستعمل حظيرة
للابقار . فلزم له هذا الترميم ليصلح لنزول نابليون فيه وقد
اهتمت حكومة الجزيرة بأمر هذا الإصلاح فقرغت منه
بعد شهرين . ومع ذلك فقد كثرت شكاوى نابليون منه طول
مدة اقامته فيه لأن الأمطار كانت اذا هطلت بغزارتها المعهودة
فى تلك الجهات خر عليه السقف من فوقه . ولأن الجرذان
كانت قد استوطنت جمحور المنزل وفجواته فاستعصى أمرها
وعز التخلص منها . وكانت تتخذ لنفسها مسارب فى حوائط
البيت وسقفه بل وفى جيوب ملابس نابليون نفسه . وفى قبعته
حتى اضطر آخر الأمر الى اعلان الحرب عليها والاستعانة
ببندقية فى مطاردتها

الفصل الثاني

هدسون لو

مرت الأيام على نابليون في منفاه وهو ينام كل يوم الى ساعة متأخرة من النهار خلافا لعاداته . ولكنه لم يلبث أن عاد الى النهوض مبكراً فكان يستقيظ في الساعة الخامسة صباحاً فيخرج على ظهر جواده للرياضة ثم يعود للاستحمام وعند الساعة الحادية عشرة يتناول طعاماً خفيفاً يبقى عليه حتى الساعة السابعة مساء . حيث كان يتناول طعام العشاء . غير أنه ما لبث أن عدل عن هذا النظام اكراماً لمدام موثلون فجعل الغداء في الساعة الثالثة والعشاء في نحو الساعة العاشرة . وكان بعد العشاء يجلس الى رفاقه يتحدثهم أو يلعب معهم الشطرنج حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة دخل الى غرفته لينام .

وقد كان من شأن هذا النظام الهاديء أن أكسب نابليون سمناً على سمه وضعفاً فوق ضعفه . فزادت آلامه واضمحلت

صحته وقل نومه . وأصابه ورم في رجله وخور في أعصابه
وقرور في عضلاته .

وزاد الطين بلة أن الحكومة الانجليزية لم تترحم الى
تصرفات الأميرال كوكبرن حاكم الجزيرة مع نابليون لتساعده
معه في بعض الشئون وملاطفته إياه في بعض الأحيان فندبت
بدله حاكماً آخر هو سير هديسون لو — وكان رجلاً شريراً
صارماً يمقت نابليون شخصياً فأتيحت له الفرصة كاملة ليبدى
فيها مواهبه الشيطانية في إيلامه وتعذيبه . وقد نفر منه نابليون
أول ما رآه وقال عنه ان عينه الضبع الذى وقع فى فخ .
وقد كان هذا الرجل خليطاً عجيباً من الطباع المرذولة
فكان سخيلاً بالغاً في سخافته كما كان ظنيناً مفرطاً في توجسه .
ومن حماقاته أنه أبى أن يخاطب أحداً الا بالانجليزية وكان
مندوب الحكومة الفرنسية في الجزيرة لا يعرف كلمة من
الانجليزية بينما كان (لو) يجيد الفرنسية ولكنه بقى مصراً
على رأيه لا يتكلم الا بلغته وأخيراً تم الاتفاق بينهما على
أن يتخاطبا باللغة اللاتينية !

ومن نوادره أيضاً التى تدل على مبلغ توجسه وهوسه أنه
علم بأن المندوب الفرنسى قد وصلته بذور من اللوباء البيضاء

والخضراء . ليزرعها فأوجس (لو) من ذلك شراً وحسب
أن في الأمر دسيسة إذ قد تكون البذور البيضاء رمزا الى
البريون لأن عليهم أبيض والخضراء رمزا لنابليون لأنه يلبس
في الغالب سترة خضراء .

وعلى الرغم من أن كل صخرة في الجزيرة كانت تحمل
مدفعاً مَصَوَّباً نحو الشاطئ استعدداً للطوارئ فان (لو) ما
زال يستنجد بحكومته ويطلب منها الامدادات والسفن الحربية
حتى أصبحت بقعة سنت هيلانة شاكية السلاح بجرأ وبرأ
كأنها أهم مركز في ميدان حمى فيه وطيس القتال . ولا تسلم
بعد ذلك عن ضغطه على نابليون ورفاقه وتهجمه عليهم في
كل حين وتعقبهم في كل مكان بدعوى مراقبة شئونهم حتى
ضاق به نابليون ذرعاً وكف أخيراً عن الخروج من غرفته
حتى لا يرهقه (لو) بجواسيسه وعيونيه . فلما طال احتجاجه
لعبت الوسوس بقلب (لو) وأوجس خيفة من أن يكون
سجينه قد حفر لنفسه نفقا في الأرض وخرج عن طريقه
من الجزيرة . هذا مع أن نظام الحراسة كان لا يسمح بخروج
جرذ واحد من جردانها الصغيرة أو الكبيرة . فقد كانت
الجزيرة على ما وصفناها عبارة عن صخر مستدير في وسطه

سهل عميق لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق ثغرة واحدة
أو ثغرتين حتى لو أن الجزيرة هاجمها عشرة آلاف مقاتل
فأن خمسين جندياً بداخلها يستطيعون ردهم لقوة استحكامهم
وعدم تمكن المهاجم من يكون في مثل موقفهم . ولقد
كان كوكبرن يقول لمن يحدثه في أمر زيادة تحصين الجزيرة
من رجاله :

« لا تخف فأن بوارجى تكتف الجزيرة حتى لو أن الشيطان
نفسه أراد أن يرحبها لتعذر عليه ذلك ! »

أما هرسون لو فأنه كان لا يطمئن الا اذا رأى نابليون
بعينه أو تحسسه بيده ولذلك كتب (في ٢٩ أغسطس سنة
١٨١٩) طالباً اليه أنه لا بد من أن يراه كل يوم ضابط من
ضباط الحرس الانجليز وانه اذا لم يتقدم نابليون من تلقاء
نفسه ليراه هذا الضابط حتى الساعة العاشرة حق للضابط أن
يدخل على نابليون عنوة . ولكن نابليون رفض الرضوخ
لهذه التعليمات . وبالغ في التخفى وعدم الظهور نكائية في
سجانه المتعب فكان الضابط المكلف بمعاينته كل يوم يذوق
الامرئ في مراقبته . تارة يوصص من الباب . وتارة ينظر
من ثقب المفتاح . وتارة يشرف عليه من كوة حمامه .

وتصادف أن ظفر به نابليون مرة وهو على هذه الحال ففتح
الباب بغته وخرج إليه عارياً !

ويطول بنا الشرح اذا نحن تتبعنا وسائل هذا الحاكم
الغليظ وأساليبه الفظة في مراقبة نابليون . ولكن لا بد لنا
هنا من الإشارة الى أنه لم يكن في كل ذلك يرمى الى المحافظة
على أسيره . بل انه كان أحياناً يعمد بتصرفاته هذه الى ايلام
نابليون وجرح عواطفه ليس الا . فمن ذلك انه كلن كلما رآه
شديد التعلق بأحد من رفاقه عمل على اقصائه واخراجه من
الجزيرة حتى يحرمه من أنس مجلسه . والراحة التي يستشعرها
في محادثته وصحبته . ووصل الجزيرة يوماً أحد المسافرين من
أوروبا وكان هذا المسافر قد رأى مارى لويز وملك روما
فلما علم ذلك هدمون لو حرم عليه ان يقابل نابليون حتى
لا يحمل اليه شيئاً من أخبار أسرته .

على ان (لو) كان في الواقع الى حد ما يردد في جزيرة
سنت هيلانة صدى أحقاد رجال الحكومة الانجليزية في
انجلترا فقد قرروا منذ البداية ان لا يلقب نابليون بلقب
« امبراطور » وان لا يخاطب الا بلقب « الجنرال بوناپرت »
بدعوى انه اغتصب ملك فرنسا اغتصاباً فهو لا يستحق ان

يلقب بألقاب الملوك . مع أنه لا قيمة لهذا الأمر ما دام نابليون قد ترك فرنسا وغادرها لملوكها مرة أخرى . ومع أن انجلترا نفسها كانت تخاطب نابليون وهو في البنا بلقب امبراطور هي ووزرائها الرسميين إلا أنها عادت وشددت على (لو) في تطبيق هذا القرار . على أن الرجل لم يكن بحاجة الى توصيه . « فأن ما أرادته حكومته بالدرهم كان يجره هو بالقنطار » على حد قول بعض الكتاب

ومن المضحكات المبكيات أن يعرف الانسان الى أى حد ذهب سير هديسون لو في تطبيق نظرية حكومته . فأن رفاق نابليون اجتمعوا بعد موته . وأعدوا له قبرا في تلك الجزيرة الموحشة على قدر ما سمحت لهم به الظروف ثم شرعوا يعدون اللوحة التي تقام عادة على مقابر الأموات فكتبوا عليها :
« هنا يرقد »

وأرادوا اتمام العبارة بأضافة كلمتي :

..... الامبراطور نابليون »

فما كان من (لو) إلا أن أسرع اليهم ومنعهم من كتابة ذلك مشيرا بوجوب تسميته « الجنرال بوناپرت » فقال له رجال نابليون :

« لقد كان نابليون ملك يدكم تتصرفون فيه كيف تشاءون
أما وقد مات فقد أصبح ملكا لنا ولفرنسا ولنا اليوم أن
نسميه كيف نشاء فأصر همدسون لو على وجهة نظره وأصروا
هم أيضاً على وجهة نظرهم . وانهى الأمر بينهم بأن يدفن
نابليون وتبقى اللوحة التى على قبره وليس عليها الا هاتين
الكلمتين :

« هنا يرقد »

وهكذا كان

وظل نابليون « راقدا هناك » فعلا أكثر من خمس
وعشرين سنة لا يحمل قبره الا هذه اللوحة البتراء . ثم نقل
بعد ذلك إلى فرنسا باحتفال مهيب لم تكن تضارعه الا تلك
الاحتفالات المهيبة الأخرى التى كانت تقام له وهو فى أوج
عظمته وبسطة سلطانه .

الفصل الثالث

وفاة نابليون

لما سلم نابليون نفسه بعد واقعة ووترلو الى انجلترا كتب لورد لفربول رئيس وزرائها الى لورد كاسلري وزير الخارجية فيها يقول :

— « حبذا لو كان ملك فرنسا يتولى استلام بوناپرت وقتله شنقاً أو رميا بالرصاص لعصيانه ! »
ثم عاد فكتب اليه ثانية يقول :

— « إن كان ملك فرنسا لا يرى من نفسه المقدرة على معاملة بوناپرت كما يعامل العصاة فنحن نأخذ على أنفسنا حراسته . »

وليس أدل على سوء نية الحكومة الانجليزية نحو شخص نابليون من صدور مثل هذا الكلام من أكبر رجالها المسؤولين . ويستطيع القارىء بعد ذلك أن يفسر لنفسه لماذا وقع اختيار القوم على سير هديسون للقيام بواجب هذه

« الحراسة » التي قرر لورد لفرپول أنه « سيأخذها على نفسه . »

ولقد ضربنا في الفصل السابق بعض الأمثال التي توضح مسلك هذا الرجل الخشن نحو سجينه وأبنا كيف أن تضيقه الخناق على نابليون كان سبباً في لزوم الامبراطور غرفته . واعتكافه فيها وكيف أن هذا كان بدوره سبباً في انحلال جسمه وانحطاط قوته والدنو به حثيثاً من قبره .

ولقد كانت رياضة نابليون الوحيدة عند أول حلوله في جزيرة سنت هيلانة ركوب الخيل وكان يعود على أثر هذه الرياضة أهدأ نفساً وأوفر نشاطاً وأحسن صحة . ولكن (لو) لم يلبث أن وكل به ضابطاً انجليزياً يلازمه عند ركوبه لزوم الظل بحجة أن ذلك يقتضيه واجب الرقابة الدقيقة التي تتطلبها الحكومة الانجليزية على شخص نابليون . فما كان من نابليون الا أن عدل عن الخروج أصلاً واصطنع لنفسه جواداً من الخشب وجعل يتأرجح عليه داخل منزله كلما أعوزته الحركة وابتغى لنفسه شيئاً من النشاط .

على أن (لو) لم يكن يقصر همه في مضايقة نابليون على حرمانه من هذه الكماليات . بل انه كان يقتر عليه في

نفس ما كله ومشربه هو وحاشيته الصغيرة وكان نابليون نفسه قليل العناية بأمر طعامه فلم يكن ليكثرث بما يصنعه (لو) معه . ولكنه زار مرة مائدة أتباعه فرأى طعامهم قليلا لا يقوم بحاجتهم . فأمر وكيل خروجه أن يبيع ما عنده من الآنية الفضية لينفق من ثمنها على رجاله . وأصبح في اليوم التالي فاذا بالطعام يقدم اليه في صحاف من الخزف . فانقبضت لذلك نفسه واعتراه الخجل وعاف الأكل من هذه الصحاف . وكان وكيل الخرج قد خالف أمر مولاه واستبقى بعض الآنية الأولى على غير علم منه . فعاد الى تقديم الطعام فيها . فسر نابليون بذلك وعاد الأكل فيها كما كان .

وقد ندم (لو) على ما فعل . وخشى سخط الرأي العام في أوروبا إذا أذيع فيها أن نابليون باع صحافه الفضية لينفق من ثمنها على طعام أصحابه . ولم تكن تفوت أمثال هذه الأمور نابليون . بل إنه كان شديد التنبه اليها واسع الحيلة في استخدامها وإذاعتها . وقد حصل يوماً أن قل الوقود عنده فأمر خادمه أن يكسر سريره ويوقده ليصطلي به . وشاع الخبر في الجزيرة . فأسقط في يد (لو) وخشى أن يذاع في أوروبا وصار منذ ذلك اليوم يجانب نابليون . ويحتد في كيده عن طريق أصحابه

المقربين اليه الذين كان يأنس اليهم ويرتاح دائماً الى مجالستهم وكانت عادة نابليون كل يوم أن يجلس ساعة أو ساعتين يملئ فيهما مذكراته على صديقه لا كاز . فما كان من (لو) إلا أن تصداه تم أمره بمغادرة الجزيرة وعاد يعد ذلك فطرد الدكتور أوميرا تم عززهما بالجنرال جورجو . على أن نفى جورجو هذا عاد على (لو) بأوخم العواقب . فإنه ما كاد يصل الى أوربا حتى أذاع فيها كل ما كان يلقاه الأمبراطور على يدي سجنائه من ضروب العنت والارهاق . وكان أداة حية لنشر الدعاية ضد جور الحكومة البريطانية وسوء معاملتها لأسيرها المريض .

أما نابليون نفسه فإنه وقع في حيرة شديدة بعد سهر أوميرا وأصبح يرى أن لا مفر له من أن يقبل الاطباء الذين يعينهم له سجنائه أو يبقى مريضاً بغير طبيب . وكانت أوجاعه تنزايد يوماً بعد يوم . وبدأت القرحة التي كانت في معدته تدخل في طورها الأخير . وضعفت شهيته للطعام . وساورتها فكرة الخوف من أن يموت مسموماً . فامتنع عن كل دواء يصفه له اطباء (لو) . وصار موتلون يقضى الليالي الى جانبه مواسياً ومعزياً . فيضع الكمادة الساخنة على معدته وهو يشهد



على سرير الموت

عن كتب ديب الداء ويرى آثار فتكه في اصفرار الامبراطور
وهزاله . وفي عينيه الغائرتين ورجليه اللتين لم تعودا تقويان
على حمله .

وبقى على هذه الحال بغير علاج من شهر يولييه سنة
١٨١٨ الى يناير ١٨١٩ وهو كلما عرض عليه (لو) طبيباً
رفضه بحجة أنه لن يصف الداء ويعالجه الا بقدر ما يرضى
الانجليز فكان هــــسون لو يقول عند ذلك .

— « اذا كان بونابرت لا يقبل من أعينه له من الاطباء
فلأنه مريض ويخاف أن تنكشف حيلته ! »

وغضب مندوب روسيا والنمسا لهذه المعاملة فاحتجا
بشدة وأنذرا الحاكم أنه اذا قضى الامبراطور نحبه فهما
لا يتحملان تبعه ما ينتج عن ذلك .

وكان جورجو قد اتصل بأمر نابليون وأفضى اليها بما
آلت اليه صحة ولدها من الضعف والخور فقامت مدام
ليتيشيا بحملة واسعة ناشدت فيها دول الحلفاء أن يهتموا
بأمر ولدها في سجنه القصي . فسمحوا بارسال الدكتور
اتتومارشى من فرنسا اليه ولكنه كان طبيباً جاهلاً استسلم
له نابليون قليلاً في أول الامر ثم ما لبث أن تنبه الى خطأ

علاجه وسوء تطبيقه فواجهه ذات يوم صاحبها مقرعا وهو يقول :

« ليس من العدل أن يقضى على مسكين مثلى بهذا الوجه . فأنت جاهل وأنا أجهل منك لقبولى علاجك ! »

وفى عام ١٨٢١ ازدادت حالة الامبراطور سوءا فأصبحت معدته تلفظ كل ما يدخل فيها . وكان القيء أسود اللون مما لم يدع محلا للشك فى موطن الداء . ولكن اتتو مارشى لم يكن على ما يظهر يستطيع أن يشخص الامراض الا بأنها احتقان فى الكبد . وذلك لانتشار هذا المرض فى جزيرة القديسة سنت هيلانة فى ذلك الوقت فكان المسألة كانت فى نظره مسألة أغلبية وما تشكوه الجماعة يجب أن يكون هو موضع شكاية الفرد . وظل يتابع علاجه معه على انه مريض بكبده لا بمعدته ولكن الامبراطور يئس منه أخيرا فرفض كل علاج يقترحه له وعاد الى أساليبه الخاصة الأولى وهى لزوم الحمية واستعمال المغاطس وتناول الاشربة المبردة غير ان الداء كان يدب فيه بسرعة هائلة حتى آمن همدسون لو نفسه بصحة دعواه وصار يعرض عليه من شاء من الاطباء .

وفى ٢ ابريل سنة ١٨٢١ (اى قبل وفاته بنحو شهر)

ذكر أمام نابليون ان نجما ذا ذنب قد ظهر في السماء . فما كان منه الا أن صاح قائلاً :

« ان ظهور مذنب أنذر بموت يوليوس قيصر »

ولم تكن فكرة الموت لتزعج نابليون بل انه كان مستسلماً لها مستبشراً بها وكان يقول : أنى انتظر الموت صابراً لأنى أرى فيه شفائى من كل هذه الآلام ! »

وبما قاله لرفاقه عندما اشتدت به الحال ودخل في دور النزع : « عندما أموت سيتعزى كل واحد منكم بالعودة الى أوربا حيث أهلكم وأصدقاؤكم وفرنسا أما أنا فأنى سألقى أبطالى في الجنة . . . أجل ! إن كليبر وديزيه وبسير وديروك وناى ومورا وماسينا وبرتييه سيأتون جميعاً للقائى ! فإذا رأونى جنوا من الفرح . وسوف نتحدث هناك عن حروبنا وأعمالنا أنا وأمثلك الأبطال . . . ! »

وفى ٢٨ ابريل أفاق نابليون بعد ليلة قضاها في التوجع والآلم وأعطى لأتومارشى التعليمات الآتية :

« بعد موتى — ولا أخال مياعده بعيداً — أريد أن تفتح جثتى وأن يستخرج قلبى ويحفظ ليحمل الى حبيبتي ماري لويز

في پارما . ثم اذهبوا الى روما وقابلوا والدتي وأهلي وقولوا لهم : إن نابليون العظيم لفظ النفس الأخير على هذه الصخرة في أتعس الحالات وأشقاها محروماً من كل شيء ومتروكاً لنفسه وللمجد ! »

ولم تكن الأيام التالية إلا نزاعاً بين الموت والحياة في ذلك الجسم المهزول . وأحس نابليون بدنو أجله فاستدعى الأب فينيالي واعترف له بخطايا حياته ثم التفت الى موثلون قائلاً :

« إني سعيد بأن تمت واجباتي الدينية . وإني أتمنى لك أيها القائد مثل هذه السعادة عند موتك . »
وكتب وصيته بيده وقد جاء في أولها :
إني أموت في حضن الدين الكاثوليكي الرسول الروماني .
ذلك الحضن الذي ولدت فيه منذ أكثر من خمسين عاماً ...
..... وإني أرغب في أن ترقد رفاً على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي الذي أحبته حباً جماً . »

، * ،

وفي صباح ٥ مايو هبت عاصفة عاتية على لונجورود اقتلعت أشجارها وحطمت مساكنها الزرية . وتحرك نابليون



وجه نابليون بعد وفاته مطبوعاً على قالب من الجبس

في فراشه حركة خفيفة ثم سمعه رفاقه يتمم قائلًا : « رأس ...
يجيش فرنسا ملك روما . » ثم خفضت صوته
وبدا على شفثيه زبد أبيض . وعلم الحاضرون من اتباعه
أن مولاهم قد انتقل من هذه الدنيا إلى العالم الآخر !

الفصل الرابع

نابليون يرقد على ضفاف السين

لما قررت انجلترا نفى نابليون الى جزيرة سنت هيلانة امرت بتفتيش حثائه وأمتعته هو ورجاله واستولت على كل ما كان فيها من المال والنفائس بدعوى أنها تحتاط حتى لا يجد نابليون ما يعينه على الهرب مرة أخرى من منفاه . غير أنها أعلنت في نفس الوقت أنها إنما تحتفظ بهذه الأشياء كوديعة وتحفظ لنابليون الحق في أن يتصرف فيها بوصيته عند موته كما يشاء . وتعهدت بأنها تنفذ نصوص هذه الوصية بحروفها وحذافيرها .

ولما أحس نابليون بدنو أجله كتب وصيته بيده . وهي التي أشرنا اليها في الفصل السابق وزع فيها ما بقي من حطام ماله وجسمه على أهله وأتباعه وزوجته ماري لويز . ثم أبدى رغبته في أن ترقد رفاته بعد موته على ضفاف السين ولكن هذه الرغبة . لم يتيسر لانجلترا تنفيذها فوراً

بسبب الروح الذى كان يسود كل أوربا فى ذلك الوقت .
فقد كانت الرهبة لا تزال تسيطر على قلوب ملوكها لدى
ذكر نابليون وحروبه . وكانت فرنسا من ناحية أخرى تعاني
ضغط حكومة لويس الثامن عشر الرجعية التى بدأت عهدها
بمحاكمة المارشال ناي واعداده فى ساحة من ساحات باريس
العامة . ولذلك ظل نابليون فى قبره المتواضع بسنت هيلانة
يحرسه أيضاً فى رقدته الاخيرة أحد الجنود الانجليز . ودار
الزمن دورته فمات لويس الثامن عشر فى سنة ١٨٢٤ . وولى
ملك فرنسا من بعده شارل العاشر الذى أثبت للفرنسيين أنهم
كانوا فى عهد سلفه الغابر فى نعيم وحظ عظيم . وذلك بقضائه
القضاء الاخير على معظم ما بقى للشعب من حريات حتى
ضاقت به الصدور آخر الامر . وعاد وميض الثورة يلعب
فى عين كل من كنت تلتقاه من الفرنسيين . وعلى الرغم من
تهالك الشعب الفرنسى وكثرة ما مر به من المحن والازايا
بسبب ثورته الاولى فإنه لم يبال بالقيام بثورة أخرى فى
سنة ١٨٣٠ خلع فيها نير هذا الملك الغاشم وتخلص بها من
حكومته الممقوتة .

واعتلى عرش فرنسا بعد شارل هذا « لويس فيليب » ابن

دوق أورليان الذى كان فى عهد الثورة الأولى نصيراً للشعب وزعيماً من كبار زعمائه . فحاول أن يقيم فى فرنسا حكومة ديمقراطية يكون رأى الأعلى فيها لسواد الأمة وأكثر فى بدء عهده من الإصلاحات التى كان يتوق إليها الشعب . وبدأ الناس يحسون على يديه بشيء من العزة والكرامة التى حرموها منذ فارقهم نابليون . وكان هذا فى ذاته مذكياً لذكرى امبراطورهم العظيم الذى أصبح اسمه عندهم رمزاً للعظمة والمجد . وكل ما بلغته فرنسا فى عهده من السؤدد والفخار . فتقدمت عدة اقتراحات للحكومة بوجوب العمل على نقل رفات نابليون وسعى الناس افراداً وجماعات لرد غربة هذا البطل الخالد . وأخيراً كللت مساعيهم بالنجاح وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والانجليزية عن الاتفاق على إعادة جثمان نابليون الى فرنسا .

وندب الملك لويس فيليب ابنه البرنس جوفانفيل ليكون رئيساً على البعثة التى تقرر سفرها الى سنت هيلانة للقيام بهذه المهمة .

وفى ٧ يوليه سنة ١٨٤٠ أبحرت من ميناء طولون المركب الفرنسية لابل پول « La Belle Poule » التى أعدت لنقل

رفات الأمبراطور . وعلى رأسها البرنس جوانفيل وبعثته وهي تضم معظم من كان حياً من رفقاء نابليون ورجاله الذين قضوا معه مدة النفي — وكانت تحرسها لافافوريت « La Favorite » إحدى مراكب الأسطول الفرنسي الحربية . وبعد ثلاثة شهور كاملة في البحر صاح صائح : « La Terre » فعلم الجميع أنهم أشرفوا على الجزيرة . وأنهم أوشكوا أن يكونوا في حضرة الأمبراطور . فاستولى عليهم شعور الرهبة والخشوع .

« وفي ٩ أكتوبر الساعة الحادية عشرة صباحاً نزل البرنس جوانفيل والبعثة كلها الى البر بصفة رسمية وتوجهوا الى منزل الحاكم حيث وجدوا سلحفتين عظيمتين كانتا هناك منذ زمن نابليون وهما لا تزالان حيتين الى ذلك اليوم . ثم انتقلوا الى القبر ثم الى منزل نابليون في لنجود فوجدوا الحيطان تكسوها كتابات كتبها الذين زاروا المكان ومعظمهم من جنود نابليون وأتباعه ومن تلك الكتابات الجملة الآتية التي تدل على تعلق رجال نابليون بسيدهم :

« استخدم ميشيل روير الذي كان جندياً في الحرس على

الباخرة أماليا ليتمكن من السلام على منزل كابوراله الصغير .
الوداع . »

و « الكابورال الصغير أو الاومباشى الصغير » هو الأسم
الذى كان يطلقه الجنود على نابليون على سبيل الدعابة والتدليل
وفي منتصف ليلة الخامس عشر من شهر أكتوبر قام
رجال البعثة بمهمتهم الرهيبة فنزلوا قبر نابليون وفتحوا تابوته
وأزاح طبيب البعثة لفائف القطن التى كانت تحيط بحثمان
الامبراطور فبدا من تحتها وجهه كامل التقاسيم . ماعدا تشويهه
خفيف عند أنفه وفي خديه . وتحقق رجال البعثة من هويته .
وشاهد الحاضرون على صدره الوشاح الاكبر لجوافة الشرف .
وكان بين الساقين وعاء من الفضة فيه قلب نابليون الذى
أوصى به لزوجنه مارى لوىز .

وأقفل النابوت بعد ذلك وحمل الى (البل پول) وما
كادت تمس الجنازة ظهر المراكب حتى طفقت مدافع السفن
الفرنسية تحي نقلها وشاركتها في ذلك مدافع الانجليز من
حصون الجزيرة وقلاعها . وبلغ عدد الطلقات في ذلك
الاحتفال المهيب ثلثمائة طلقة .

وفي آخر نوفمبر رسا أسطول البعثة الصغير في مياه

شيربورغ حيث بقيت جثة نابليون نحو ثمانية أيام تقاطر في خلالها عشرات الالوف من الناس لتحياتها وتكريمها . وكانت في خلال هذه المدة أيضاً قد تمت المعدات اللازمة في باريس للقاء الجثة . فانتقلت الجنازة اليها .

وفي فجر الخامس عشر من شهر ديسمبر ١٨٤٠ . كانت الموسيقى تصدح في كل مكان بباريس . ثم قصفت المدافع وقرعت نواقيس الكنائس . واجتمع كل من بقي حياً من جنود نابليون تحت قوس النصر المشهور . فها هو أن وقعت أعينهم على النعش حتى أجهشوا بالبكاء . وأحاطوا بالعربة لا يبخون عنها حولا . ولقد كان البرنامج يقضى بأن يأتي أولئك الجنود خلف المستشارين . ومندوبي البلديات في تشبيع النعش . ولكنهم رفضوا قائلين :

« ان الامبراطور كان يسير دائماً بين حرسه ! »

وقد كانت الطرق في ذلك اليوم المشهود زاخرة بالجموع وكانت الشرفات والابواب مجللة بالسواد . وكان الشعب يتلقف النعش أفواجا عن أفواج بتلك الصيحة القديمة المحبوبة :

“ Vive l'Empereur ”

على أن مظاهر الحماسة التي غمرت باريس في يوم هذا

الموكب الخالد ليس مما يصوره الكاتب بقلبه ولكنه مما يتصوره القارىء فقط بخياله .

ولما انتهى الركب الى سراى (الأنفاليد) التى تضم
بفاخر فرنسا الحرية التى تقرر أن يودع فيها جثمان الامبراطور
نقدم رئيس البعثة البرنس Joinville بين يدى الملك قائلاً :
« مولاي يا صاحب الجلالة . اقدم لك جثمان
امبراطور نابليون ! »

فأجابه الملك بصوت جهورى :

— « باسم فرنسا أتقبله ! »

وأودعت الجثة مثواها الأخير وتحققت رغبة نابليون
ورقدت رفاته على ضفاف السين بين ذلك الشعب الفرنسى
الذى أحبه حباً جماً .

٨٠ ٢٤٢ ٣
اتهى الكتاب

ن ١٠

